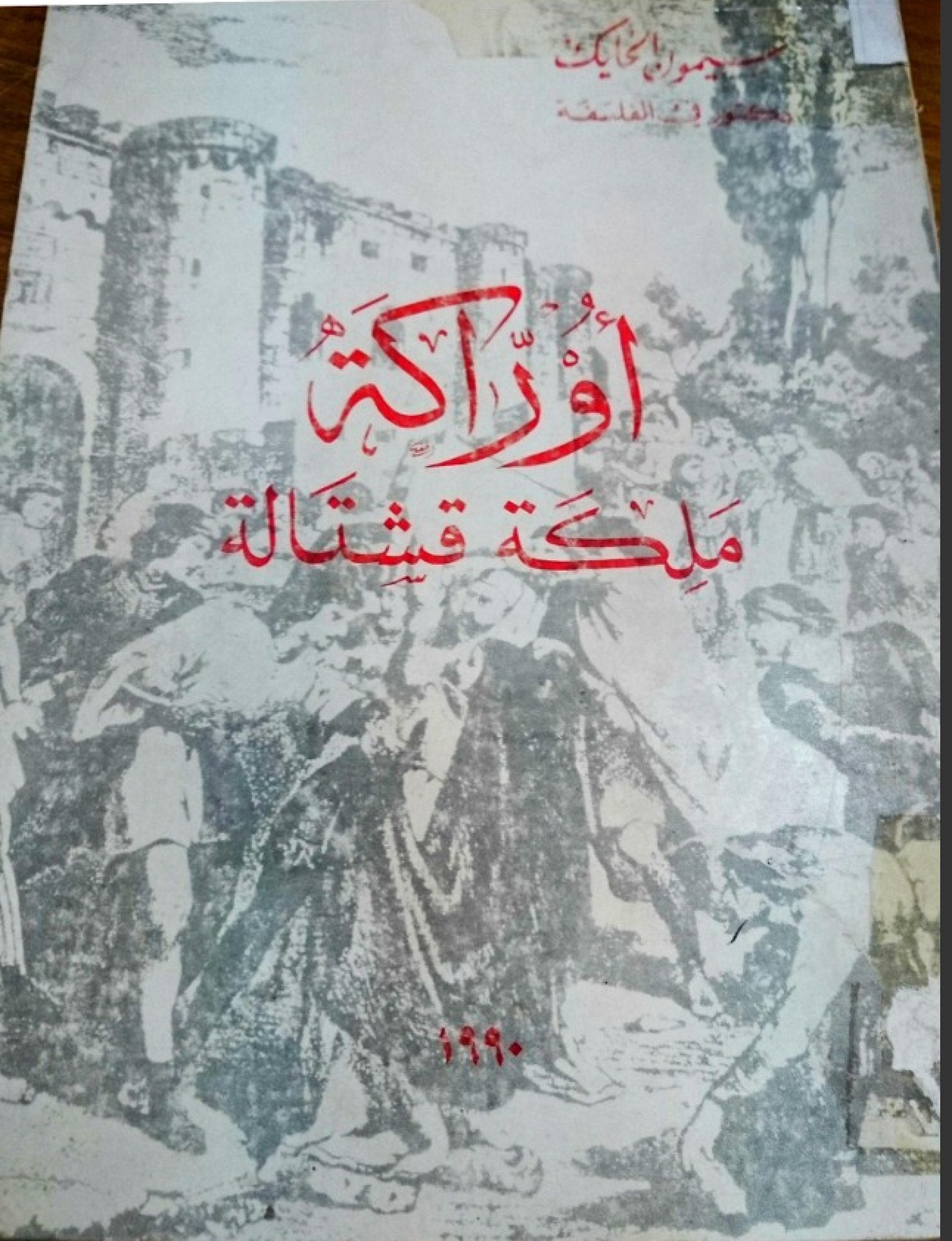


سيمون الحايك
دكتور في الفلسفة

أوراكة
ملكة قشتالة

١٩٩٠

سيمون الحايك
دكتور في الفلسفة

أوراكة
ملكة قشتالة

١٩٩٠

تَمْهِيد

واجه الفونسة السادس مشكلة الوراثة بعد وفاة ولده الوحيد شانجه في معركة اقليش ، وكان قد انجبه من زائدة كنة المعتمد بن عباد . وكان له ابنة اسمها آورَّاكَة تزوجت القند ريمون البرغوني وتوفي سنة ٢١٠٧ وترك لها ولدين صغيرين الفونش ريموندش وشانجه وترك الفونسه السادس في وصيته عرش قشتالة لابنته آورَّاكَة ارملة القند الفرنسي ، ونصحها بالزواج من ملك اراغون الفونش بن رذمير .

وبعد وفاة الفونسه السادس اجتمع رجال الدولة وقرروا العمل بوصية ملكهم الراحل لا سيما وانهم يخشون الا تقوى آورَّاكَه وحدها على تدبير الملك . ووافقوا على زواجها من ملك اراغون المذكور رغم تخوفهم منه فانه قد تتوق نفسه الى ضم مملكة قشتالة الى مملكته اراغون ، ولكنهم مع ذلك وافقوا على الزواج ورأوا ان من الافضل ان يستولي ملك اراغون على قشتالة ولا ان يستولي عليها المرابطون .

ووافقت آورَّاكة بدورها على هذا الزواج مكرهة فهي لا تحب هذا الملك نسيبها الذي لا هم له سوى الطعن والضرب ومنازلة الاقران واعتلاء صهوة الجواد وخوض الموت في الحرب السجال . قلبها يميل الى سواه .

واتفق الرأي على ان تصبح اوراكة ملكة قشتالة وليون واشتورش وتصبح جليقية من نصيب ابنها الطفل الفُونش رَيْمُوندس الذي رزقته من القند ريمون الفرنسي ، ولكن تبقى جليقية تحت سيادة قشتالة ويمنح القند انريق زوج تريز اخت آورَّاكة امارة البرتغال ولكن هذه الامارة تبقى تابعة لعرش قشتالة ، واذا لم ترزق

الرواية العربية ترجع المملكة كلها بعد وفاتها الى ابنها الفونش ريموندس من زوجها الاول الفرنسي .

ووقع الزواج سنة ١١٠٩ ، وفي العام التالي توجهت برفقة زوجها الى اراضي ناجرة وسرقسطة ولكنهما لم يبلغا منها مأرباً لأن المرابطين استولوا في ذلك العام على مدينة سرقسطة .

وما طال الامر حتى دب الخلاف بين الزوجين المتنافسين على السلطان ، وآورَّاكة ملكة تريد الاستئثار بالملك ، فقربت المؤيدين لها وابعدت اعداءها ، فغضب زوجها الفونسه المقاتل الذي اساء معاملتها لا بالكلام وحده بل بالاهانة والصفع والضرب واللكم والركل .

ورأى الاساقفة ان المخرج الوحيد من هذه الحالة هو الطلاق ، وهو غاية ما تصبو اليه الملكة آورَّاكة لانها واقعة في حب اثيم مع القند غومس .

قامت حرب اهلية بين الملكة آورَّاكة وزوجها الفونسه بن رذمير ملك اراغون فاسر زوجته في قلعة «قشتلار» سنة ١١١١ وحجته في ذلك انها تحاول بث الثورة وانها بسوء سلوكها اضاعت هيبة السلطان .

شاء زوج تريز الامير انريق البرتغالي ان يدخل في الصراع القائم لكي يستفيد منه فيستولي على عرش قشتالة ، فتوجه الى بلاده فرنسة باحثاً عن حليف يشد ازره وعاد الى البرتغال عن طريق اراغون واتفق مع الفُونش المقاتل على توحيد قشتالة واراغون واقتسامها فيما بعد بينهما .

ودخل طرف ثالث او رابع في النزاع وهو الامير الطفل الفُونْش رَيمُونِدش الذي يعيش في جليقية برعاية وصيه القند بَدرُه دي طَرَابَة PEDRO DE TRABA فلما تزوجت امه من جديد شاء الوصي اعلانه ملكاً على جليقية عملاً بوصية جده الفونسه السادس ، وامير البرتغال انريق يؤيد هذا المشروع ، غير ان اوراكة بعد سجنها في قلعة قشتلار ارسلت انصارها الى جليقية مطالبة بالعرش وخشي الجلالقة من سطوة زوجها الفونسه المقاتل ملك اراغون .

وتمكنت اوراكة من الهرب من قلعة قشتلار ، والتف حولها الاشراف في

قشتالة بعدما عاينوا من شراسة الاراغوني ما اغاظهم . واطلقت اوراكة العنان لشهواتها الجامحة وقربت اليها «غومس غنصالس» وبذْرُه غنصالس PEDRO GONZALEZ ذي لارة من اشراف قشتالة فتعشقها الاثنان وكل منهما راغب بالزواج بها بعد طلاقها من زوجها الاراغوني .

وانريق امير البرتغال يوازر ملك اراغون الذي احتل طليطلة ، وقامت الحرب الاهلية : قشتالة وليون من جهة واراغون والبرتغال من جهة ثانية . التقى الجمعان في محلة «كامبو دي سبينا» «CAMPO DESPINA» بالقرب من «سبولفدة» «SEPULVEDA» من اعمال شقوبية . قائد القوات القشتالية القند بدره دي لارة عشيق الملكة اوراكة ، تخلى عن المعركة تجاه عنف هجمات الاراغونيين فخلفه في القيادة عشيق الملكة الآخر القند غومس الذي سقط قتيلاً في المعركة الى جانب الكثيرين من اشراف قشتالة في تشرين الثاني سنة ١١١١ .

لم يشأ المرابطون لسبب اجهله وتجهلونه الاستفادة من هذه الحرب الاهلية بين النصارى لتوسيع رقعة نفوذهم واسترجاع طليطلة على الاقل .

خلا الجو للجيش الاراغوني بعد انتصاره فاجتاح اراضي قشتالة وعزل الاساقفة الموالين لاوراكة زوجته . وخشي اشراف جليقية سوء العاقبة فانضموا الى الملكة ونصبوا الامير الطفل ملكاً عليهم والتحق بامه في قشتالة يصحبه وصيه «القند دي طرابة» «DE TRABA» والمطران جلميرز «GELMIREZ» على رأس قوة جليقية . ودري ملك اراغون بالمؤامرة فبادر الى التصدي لهم وجرت معركة حاسمة في «استرقة» «ASTORGA» والطرفان يحاولان امتلاك الطفل ، وانهزم الجلالقة واستطاع المطران جلميرز اسقف سانتيقوب خلال المعركة ان يظفر بالطفل ويفر به ويوصله الى امه وساروا جميعاً الى سانتيقوب .

ازدادت هيبة الاسقف «جلميزر» فجمع القوات من جليقية وقشتالة بمساعدة الملكة اوراكة ، واستمال امير البرتغال انريق الذي اصبح يخشى سطوة الفونسه بن رذمير .

شعر الفونسه المقاتل بتفوق خصومه فغادر استرقة متوجهاً الى بلد الوليد . وحاول اعداؤه محاصرته في تلك المدينة ولكنه تغلب عليهم وارتد ظافراً الى بلاده في نيسان ابريل سنة ١١١٢ .

وصل الخلاف بينه وبين زوجته اوراكة الى حد يعجز فيه اي وفاق بينهما . وعقد صلح تم الاتفاق فيه على توزيع البلاد والحصون على الملكين غير ان الزوج استولى على حصون الزوجة وثار القشتاليون مؤيدين اوراكة ، وطلب الفونسه المقاتل الصلح ورفض المطران جلميرز واعلن بطلان الزواج ووافق البابا واغتبطت الملكة اوراكة غير ان الزوج رفض كل هذا وانكر البراءة البابوية واعلن الحرب على قشتالة .

وتعاقبت الفتن والقلاقل واوراكة الملكة ماضية في مسلكها الشائن واطلقت يد خليلها القند «بدره دي لارة» «PEDRO DE LARA» يتصرف كما يشاء في امور الدولة ووصلت علاقاتها الغرامية الى السنة العامة .

والمطران جلميرز من جهته يعمل لتوطيد مركز الامير «الفونشه ريموندش» في جليقية واستاءت الملكة من تصرفه فسارت في قواتها الى سانتيقوب لاخضاعه فاعلن توبته وطاعته .

في تلك الاثناء هبت تريز اميرة البرتغال وشقيقة اوراكة الى شنت يقوب لمحاصرة اختها ولكنها اضطرت الى الارتداد لما وصلت اليها الانباء ان قوات المسلمين تهاجم اراضيها ففضلت الاحتفاظ بهذه الاراضي على تملك اراضي جديدة .

وثار اهل سنتيقوب على المطران جلميرز ففر الى قشتالة والتجأ الى الملكة اوراكة فاستقبلته بالترحاب وعهدت اليه القيام بالمصالحة بينها وبين ولدها . فعقد اجتماع في «سهاغون» «SAHAGUN» وتم الاتفاق بين الابن والام وقعه ثلاثون شخصاً من كل جهة يقضي بان تتولى الام والابن معاً الحكم في جليقية وليون واشتوريش وتتفرد بالحكم في قشتالة طيلة حياتها على ان يخلفها ولدها وفقاً لوصية والدها الملك الفونسه السادس .

وجرى الاتفاق على هذا الشكل وسارت الى جليقية لزيارة ولدها ، ثم توجهت الى شنت يقوب لمعاقبة اهلها على مناوءتهم للاسقف جلميرز . فقاومها اهل المدينة بعنف حتى اضطرت الى اللجوء مع حاشيتها في الكاتدرائية فاضرم فيها الشعب النار غير عابئين ولما هرعت الى الخارج طلباً للنجاة تطاول عليها الثوار واهانوها واطلقوا سراحها بعد ان تعهدت لهم بان تعين لهم اسقفاً جديداً بموافقة الملك .

وتمكن الاسقف من الفرار متنكراً ولكن انصاره هلكوا في الكاتدرائية حرقاً .

وما كادت الملكة تغادر شنت يقوب حتى زحفت على المدينة قوات جليقية ترافقها قوات الملكة وانصار الاسقف . فقررت اوراكة معاقبة السكان على جرأتهم عليها . فارتاع اهل المدينة وطلبوا الصفح عنهم ورفع الحرم الكنسي الذي اصدره الاسقف عليهم .

رضيت الملكة على شرط ان يسلم الثوار سلاحهم وان يقسم اعيان المدينة يمين الطاعة للملكة وللمطران وان يقدموا خمسين رهينة . واستولت على املاك خمسين ثائراً وفرضت على المدينة ضريبة فادحة ودخلت المدينة ظافرةً يصحبها الاسقف الذي اعيد الى منصبه ونال رتبة كردنال من البابا كالكستوس وهو اخو القند ريمون والد الملك الصبي الفونشه ريموندس .

توجهت اوراكة لمحاربة اختها تريز ملكة البرتغال واسترداد ما سلبته من مملكة قشتالة اي مدينتي «توي» و «اورونسي» . دخلت اراضي البرتغال وحاصرت اختها في حصن «نيوسو» ولكن تريز تمكنت من الفرار بمساعدة المطران جلميرز نفسه وانتهت المفاوضات بين الاختين : اوراكة تتنازل لاختها عن اراضي في سمورة وشلمنقة وطوره لقاء تعهد تريز بمعاونة اختها ضد جميع اعدائها من نصارى ومسلمين . عادت الى جليقية وامرت ان تعبر قوات المطران النهر اولاً . وما كادت تعبره حتى امرت اوراكة بالقاء القبض عليه وعلى اخوته الثلاثة وعلى صديقه مطران «براغة» ومطران «اورنسه» «ORENSE» .

وقعت هذه الاجراءات وقوع الصاعقة على مدينة شنت يقوب وعلى رومة ايضاً فقد ارسل البابا كالكستوس الى سائر اساقفة اسبانيا ان يعقدوا مجمعاً يقرر انزال عقوبة الحرم الكنسي بالملكة اوراكة اذا لم تفرج عن المطران جلميرز وترد الى الكنيسة جميع الاملاك التي اغتصبتها منها .

وثار شعب شنت يقوب مطالباً الملكة بالافراج عن مطرانه ومما زاد حماسهم قدوم الملك الفتى الفونشه ريموندش على رأس قواته فاضطرت الملكة الى اطلاق سراح المطران ولكن لم ترد للكنيسة املاكها .

قرر المطران محاربة اوراكة وانضم اليه ابنها «الفونشه ريموندس» . وقرر

الطرفان اجراء مفاوضات حقناً للدماء اسفرت عن معاهدة صلح بموجبها ترد الملكة اوراكة الى الكنيسة والى المطران جلميرز جميع الاملاك التي اغتصبتها منهما وتقدم ستين رهينة من فرسانها ضمانة لتنفيذ المعاهدة .

تم عقد الصلح بين الملكة اوراكة وابنها في بلد الوليد سنة ١١٢٤ بان يحكما البلاد معاً . وكان الابن قد اعتقل عشيق امه القند «بدره دي لارة» ولكن القند تمكن من الفرار ، واستمرت الملكة في سلوكها الشائن حتى وفاتها سنة ١١٢٦ ، فتنفس الجميع الصعداء في سائر انحاء اسبانية النصرانية .

وكان ابنها في سنة ١١٢٤ اي قبل وفاتها بسنتين قد بلغ الثامنة عشرة من عمره وصار يحمل لقب ملك او امبراطور في بعض الاحيان .

وبينما كان الملك الفونسه المقاتل الاراغوني يشن الغارات في بلاد الاندلس بلغه خبر وفاة زوجته آورَّاكَة المطلقة توفيت في صلدانية «SALDANIA» وتضارب الآراء في وفاتها فقيل : بسبب اجهاض .

عندما اخذت اسبانية النصرانية تتنفس قليلاً بعد وفاة الملكة اوراكة ، وتتخلص من الحروب الداخلية التي استمرت اكثر من عشرين عاماً تنهشها دون هوادة ، شب في المغرب اعصار يهدد بالقضاء على الدولة المرابطية في افريقية والاندلس ، ظهر عبد الله بن تومارت وصار ينخر في جسم الامبراطورية المرابطية حتى جاء عليها ، وقامت مكانها دولة الموحدين .

الفصل الأوّل

أورّاكة السجينة

تصل الى اذني في زنزانتي تراتيل الرهبان المبشرة بقدوم الصباح . لا يحق لملكة مثلي ان تسدر في يبوستها ، فالراهب روبرت الذي اوكل اليه السهر على سلامتي يعلم علم اليقين انني لم استسلم لليأس ولم تخر قواي ولم تضعف همتي فانا ما زلت في شرخ الشباب قوية العزيمة محافظة على رباطة جأشي تجاه هذه الملمة التي حلت بي عن حق او عن غير حق .

وعندما تتعالى الى سمعي اصوات الرهبان وتسابيحهم التهويمية كما لو ان كل حجر من معبدهم يردد صداها ، يخال لي اني اسمع جلبة الفرسان على صهوات خيولهم وقرقعة السلاح وصليل السيوف وادرك ان التاريخ سيصفح عني وينصفني .

يعلم الرهبان انه حرم عليهم الكلام معي ومع ذلك فيتمتمون اسمي في صلواتهم بينما يصل الى سمعي تضرعهم : «يا رب ارحم شعبك ولا تسخط علينا الى الابد» . انهم حراس صابرون يعرفون قدر فريستهم الواقعة بين ايديهم ، وطائعون مثل النعاج التي تساق الى الذبح وسيكونون اول من يفتح لي الابواب عندما تحين ساعة انتقامي . رئيسهم ينحني امام عنادي ويتخلى عن محاولته الاولى لما شاء ان يحملني على الاعتراف جهراً بخطاياي والندامة عليها ، وهذا ما اكرهه لأن اورّاكَة لا تندم على ما فات ، فالانسان هو المسؤول عن اعماله اولاً وآخراً . لا اطلب الشفقة ولا استجدي الرحمة ، ونظراتهم المشفقة تغيظني وكم تمنيت لو صرخت في وجوههم : فكوا عن الصلاة فأورّاكَة ما زالت حية .

الملكة تحتاج الى مؤرخ قادر على ان ينقل الى الخلف مغامراتها العاطفية ومآثرها ومتاعبها وآلامها ومصائبها . وانا هنا معزولة في هذا الدير اريد ان أؤرخ لنفسي لكي اعرض جميع الاسباب التي حدت بي الى التصرف كما تصرفت والى الاقدام على كل خطوة لاترك شاهداً على ذلك ، واذا ما كتب عليّ الموت فعلى الجميع ان يعلم ان ارادتي اصطدمت بخيانة وعناد ونفعية اسقف طموح واشراف لم يستوعبوا جليل مقاصدي وبعد مشاريعي .

سيكتبون التاريخ على هواهم سيتحدثون عن جنوني وسيشهدون بالزور لكي يبرروا خلعي عن ملكي والحجر عليّ في الدير سيقولون عني : «انثى افنت العمر باالهوى بهيمية اللذات والشهوات» .

ستتكلم اوراكة وستروي قصتها لكي يتغنى بها الشعراء ويعرفها القريب والبعيد وتتناقلها الافواه جيلاً عن جيل .

زودني الراهب روبرت بكل ما احتاج اليه للكتابة وتدوين مذكراتي ولي عبرة بملك مسلم «عبد الله» ملك غرناطة خلعه يوسف بن تاشفين كتب مذكراته في منفاه وانا هنا ساكتب مذكراتي اذكر اني تعلمت لما كنت طفلة العب في ارباض طليطلة هذه الابيات من الشعر العربي :

«وان تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي وينزل ان انزل ويدفن في قبري»[1]

توصلني ذاكرتي الى طفولتي ، فالمهر الذي كنت اركبه محمر اللون مثل النار ، لم اتجاوز الخامسة من عمري وطليطلة مدينة جميلة وكبيرة . الشعب فيها يعادي والدي . يصعب علي العودة بالذكرى الى تلك الايام التي دخل بها ابي ظافراً على هذه المدينة التي اصبحت عاصمة مملكتي . ابي باسم الثغر فاز بما تصبو اليه نفسه من زمن بعيد . نال المدينة غيلة ، سلمها اليه يحيى القادر المغفّل لقاء مملكة بلنسية فضّل الذي ليس في يده على الذي في يده فكان ذلك وبالاً عليه .. عرض على والدي

---

(١) قال هذين البيتين ابن حزم الذي اعتنق مذهب الظاهرية الذي انشأه بالمشرق العربي داود بن علي الاصبهاني ا وطاف ابن حزم بدول الطوائف مدافعاً عن مذهبه فاصطدم بفقهاء المالكية فهاجمهم بشدة وعنف فاعلنوها عليه حرباً عواناً والّبوا عليه الناس فامتنعوا عن سماع دروسه في جامع قرطبة . ثم امر المعتضد ملك اشبيلية بحرق كتبه وتحريم قراءتها فقال ابن حزم البيتين المذكورين اعلاه .

تسليمه طليطلة تحت شروط وهي ان يتعهد بتأمين اهالي طليطلة على اموالهم ودمائهم ومن شاء منهم الهجرة هاجر ومن شاء الاقامة اقام وانه لا يفرض عليهم الا غرامة واحدة مقررة من قبل وان المسجد الاعظم يبقى للمسلمين وان الاذفنش اي والدي يساعد يحيى القادر على تملك بلنسية .

ولما توالت على اهل طليطلة الفتن المظلمة وترادف عليهم البلاء واستباح ابي اموالهم وارواحهم كان من اعجب النوادر الدالة على الخذلان ان الحنطة كانت تقيم عندهم مخزونة خمسين عاماً ولا تتغير فلما كانت السنة التي استولى فيها والدي على طليطلة لم ترفع الغلة من «الاندر» حتى اسرع فيها الفساد فعلم الناس ان ذلك بمشيئة الله تعالى ولا مرد لقضائه وخرج «يحيى القادر» من المدينة باقبح صورة ورآه الناس وبيده اسطرلاب يأخذ به وقتاً يرحل فيه فتعجب منه المسلمون وضحكنا نحن عليه آنذاك .

وبسط ابي العدل على المدينة وحبب التنصر الى عامة الناس .

طليطلة بشوارعها الضيقة والسوق فيها يبيع الاقمشة ونشم فيه روائح ذكية ممتزجة برائحة الخرشوف والبصل والثوم ... وانا اوراكة ابنة الملك ترجع اليّ هذه المدينة بالميراث عن والدي . هنا أقْطَعُ يكشف عمّا تبقى من ذراعه للناس وذاك يمارس الالعاب البهلوانية على مرأى منهم وهناك الكفيف يردد اغانيه على وتيرة واحدة ، والحاوي يخرج الافعى من السلة ، وهذه خابية كبيرة على شكل دن تحتوي السائل الاحمر انها اشبه بفم غول مفتوح قادر على ابتلاعي . اذكر جميع القصص والحكايات التي تقصها عليّ امي كونستانس تهويماً لكي انام بينما ابي وزع الهدايا على الجواري ويقودهن الى مضجعه .

الآباتي برنار صديق والدتي ، منتصب على متن جواده الاسود اللون ، يترك خيالاً طويلاً على الطريق سمعت هذا الراهب من جمعية كلوني التي قدمت الى اسبانيا النصرانية لتردها الى الطقس اللاتيني بدل الطقس المستعرب ، هذا الآباتي يجلس قريباً من امي في الاحتفالات ويردد هذه العبارة : «غضب الله آت» وتوافق امي على كلامه وتتذمر من تصرفات والدي تجاهها .

وبرنار هذا بالتواطؤ مع امي حول المسجد الى كنيسة .

لا يجب ان ننتظر اموراً خارقة العادة من اخ يقتل اخاه[1] .

وتقدم الموكب في شوارع طليطلة على اصوات الطبول والدفوف والصنوج . عمتي اوراكة راكبة حصاناً تسير بين والدي وبدره انشورش وانا خلفهم الى جانب امي والهتافات تتعالى من حناجر الجماهير المصطفة على الطرقات التي يمر عليها الموكب ، والمناديل الحريرية يلوحها الحشد في الهواء والراهب برنار يردد دعوته بصوت خافت : «طليطلة كرسي الديانة المسيحية . هذا وعد امي له غير ان والدي قال كلمته للمسلمين : مسجدكم يبقى لكم» . ولا سبيل لمخالفة تعهدات والدي ، وهذا ما حال دون رغبة المطران برنار في تحويل المسجد الى كنيسة ، وانا لم افهم آنذاك شيئاً من هذا لصغر سني . ثوبي احمر وحصاني احمر ايضاً ، الحر شديد ، الخيل تعرق والسائرون في الموكب يعرقون ايضاً ، والمطران برنار يحلم بالاعمدة الضخمة والسواري والمذابح المزخرفة اكراماً لالهه .

وكان ينادي المسلمين : «ارفعوا جباهكم من التراب وانزعوا عمائمكم عن رؤوسكم لا اله الا الله ، ذلك الذي تجلى لموسى في عليقة ، الاله الذي صار انساناً وحمل شقاءنا وبؤسنا وخطاياكم وشروركم وآثامكم .

ــ تمهل يا برنار لم يحن الوقت بعد .

هذا كلام امي ويرد عليها الراهب قائلاً : طليطلة ستعود وتصبح المدينة المقدسة التي تعقد فيها المجامع الدينية ، انها زميلة رومة .

وامي تصغي اليه وتتمتم كأنها تصلي . وفي تلك الآونة سمع صوت المؤذن يدعو الناس الى الصلاة والفلاح فتحركت حفيظته ورفع صليبه فوق المسلمين ، وانا احدق النظر بوالدي الملك وامبراطور الملتين ، فلا الرهبان ولا رؤساء الرهبان قادرون على معارضته والوقوف في وجهه حتى امي «كونستانس» «CONSTANZA» ترهبه وتخشى بطشه انه قاتل اخيه لأجل الوصول الى سدة الملك ومن يعاند رجلاً مثل هذا الرجل الواثق من نفسه ؟ انه السلطان على الجميع .

وتوقف الركب امام المسجد الجامع في الساحة الكبرى حيث تلمع الاعلام وتخفق البيارق والبنود وصعدنا الى المنصة المنصوبة وترجل والدى عن صهوة حصانه

---

(١) الفونسه السادس قتل اخاه شانجه بمؤامرة دبرتها اخته اوراكة .

وساعد عمتي اوراكة على الترجل ايضاً ، ودنا صاحب المدينة وسلّم لأبي مفاتيحها فدعاه والدي للجلوس قربه بين الطنافس والاوسدة وظل الباقون واقفين بينما الراقصات يهززن خصورهن على اصوات الموسيقى .

وجالت عيون والدي متوقفة عند خصور الراقصات ونحورهن وتأمل في ايديهن كيف تتحرك كأنها افاعي ويقابل والدي بين راقصة وراقصة ويفضل هذه على تلك بينما والدتي تتأفف من هذه المناظر الخليعة والآباتي برنار يشاركها في استنكارها لهذه المشاهد الناضب منها الحياء .

امي هذه تقاسمت مع والدي غرفة النوم الكبيرة واقيم بينهما حاجز وانا ارقد في الزاوية قريبة من امي حيث الجمر في الموقد ينطفىء قليلاً قليلاً ، الساعة متأخرة ليلاً لقد انبلج الفجر وانا اسمع لهاث والدي واتخيل لعابه يسيل على ظهر الجارية العربية السمراء . كل النساء هن لوالدي الملك الظافر والمستسلم الى الملذات .

ابي الذي قتل اخاه بالتآمر مع عمتي اوراكة نراه الآن مصغياً بجوارحه الى انغام الموسيقى ، وملأ كأسه مرات عديدة بينما البهلوانيون يلعبون امامه باعاجيبهم وحركاتهم والاشراف المسلمون في طليطلة يندبون حظهم ، حصلت الخيانة على يد ملكها ، راعيها حراميها ، لم يحركه ضميره ولم يهتز لتأنيب وتوبيخ ، انه لعبة طيعة في يدي والدي الملك الاذفونش .

وانا المتشحة بتلك الاثواب المخملية الدمشقية التي اختارتها لي والدتي ، انصرفت الى ارواء نهمي من الحلوى ومن الزبيب والتمر . وافكر في عمي غرسية المسكين الراسب في قيوده في سجنه بينما احدق في الدب الذي يقوده الغجري ، دب داجن ومقيد مثل عمي غرسية ، يخدش الجدار باظافره عبثاً . برج له نافذة واحدة مثل هذه الزنزانة التي رماني فيها زوجي .

ابي غرس اصابعه في اللحم المدهن لحم الخروف ذو الرائحة الغريبة رائحة الشحم والبهارات . «بطره انشورش» «PEDRO ANSURES» يطغي بقهقهاته على صوت عمتي الحاد الجارح : تمنيت لو لامست الدب الاسود وعفيرته القذرة ومسدت له صوفه .

وقالت والدتي : «لا مغفرة لمن يهدم بيته على رأسه» وانا عندما شاهدت

الدب الطائع لأوامر الغجري ادركت ان لا خطر على حياة والدي فانتقام عمي غرسية لن يصل اليه وقلت في نفسي : لا مجال لخروجه من السجن كتب عليه ان يموت فيه . وفي ذلك الصباح الذي دخلنا فيه على طليطلة دخول الظافرين فهمت ان والدي ملك عظيم لأنه حبس على عمي غرسية وتآمر مع عمتي آورَّاكَة التي تحمل اسمي ، على قتل عمي الآخر شانجه وخلا لوالدي الجو .

قضية تحويل المسجد الى كنيسة فكرة لازمت والدتي والمطران برنار وتحيّنا الفرص لتطبيقها غير عابئين بميثاق والدي للمسلمين ، واتيحت لهما الفرصة : والدي في الشمال يقاتل في سرقسطة يبغي امتلاكها كما امتلك طليطلة فاغتنما فرصة تغيبه عن المدينة لتنفيذ خطتهما .

اذكر ما جرى في ذلك اليوم ان الشيخ الاستاذ قيل لي ان اسمه «المعامي» صار الى الجامع وصلى فيه وامر مريداً له بالقراءة ، ووافاه النصارى وعلى رأسهم المطران برنار وتكاثروا لتغيير القبلة فما تجاسر احد منهم على ازعاج الشيخ في صلاته ومعارضته ، ويقول المسلمون ان الله عصمه منهم الى ان اكمل القراءة وسجد سجدة ورفع رأسه وبكى على الجامع بكاءً شديداً وخرج ولم يتعرض له احد بسوء او مكروه لأنهم يعلمون ان تلك الساعة هي الاخيرة للجامع فصبروا على هذا الشيخ الجليل حتى اتمها بآخر عبادة اسلامية فيه .

وعلمت بعدئذ ان والدي الاذفونش غضب غضباً شديداً عند عودته لما وجد ان المسجد قد تحول الى كاتدرائية وشاء قتل المطران وامي كونستانس لانهما خالفاه وجعلاه كاذباً امام المسلمين ، ويقال ايضاً ان المسلمين انفسهم تشفعوا لدى والدي بالمطران وامي لكي يعفو عنهما .

يظن الكثيرون اني حقدت على والدي لأنه زوجني صغيرة من «ريمون» البورغوني الفرنسي ارضاء لأمي الفرنسية ايضاً ، «فريمون» هذا كان يردد على مسمعي تصرفات والدي الخشنة انها تصرفات مقاتل صليبي ، «وريمون» على حق ، ولكن عندما يتكلم ضد والدي امامي يهيج في نفسي حبي البنوي ، ريمون يبغي الوصول الى العرش ، عرش والدي الفونسه السادس ، عرش كلفه الكثير من التضحيات والحروب واراقة الدماء حتى قتل الأخ وسجن الاخ والتذلل والصغار وقسم اليمين على رؤوس الاشهاد بانه بريء من دم اخيه والآن بعد كر السنين ،

وشبعي من الايام وتذوقي حلوها ومرها وتكشفت لي الحقائق التي التبست عليّ في الماضي اقول ان البغض الذي تغذى في جسدي يوماً بعد يوم تجاه والدي لا يماثله سوى عرفان الجميل نحوه فقد تغذيا معاً فانا مدينة بكل شيء لأبي ، حزمي جلدي نشاطي مثابرتي ، كل هذا تعلمته من ابي لكي احافظ على ما يخصني وانقذه من ايدي الغاصبين الطماعين .

لا مجال للضعيف العاجز في سياسة الدول ، «الانسان ذئب لاخيه الانسان» نتغذى به قبل ان يتعشى بنا . لا مكان للحلم والرأفة في صدر من كتب له ان يتقلد مصير الناس ، عندما يقرر الانسان استلام زمام الامور واذا كان هذا الاستلام يسبب له لذة كبيرة يجب ان يكافح لاجلها حتى النهاية ، ولذا انا محجورة عليها في هذا الدير كما حجر على عمي «غرسية» في برج «لونة» «LUNA» واني لواثقة الآن اني خسرت لأنني ترددت وكففت عن مراقبة خيوط النسيج ، كنت مغفلة ، وسمحت للآخرين باخذ المبادرة مني ، لا يحق لي توجيه اللوم اليهم لأنهم سبقوني وتغلبوا عليّ في هذه اللعبة ، لعبة السيطرة على الدولة . اخطأت واهملت الحراسة او توانيت في سبيلها وتهاونت وتسامحت في خسارة برج في لعبة الشطرنج هذه عندما كان المصير مشكوكاً به ، والآن ادرك اني لم اعمل بنصيحة والدي . انا الآن مثل غرسية لا يحق لي المطالبة بحقوقي المنتزعة مني . ولدي الفونشه ريموندش الذي انجبته من ريمون زوجي الاول ، استلم المبادرة واصبحت وحيدة انا التي في يوم من الايام كنت العائق الاكبر في وجه رغائبه . لا اطلب شفقة ولا رحمة ولا اصنع ما صنع عمي غرسية في تقليم اظافره بجدران زنزانته المغطاة بالعفن . انها لعبة اشبه بلعبة الشطرنج خسرت الحصان وعرضت الملك للخطر . انا آورَّاكَة الملكة ابنة ملك وامبراطور تهاونت وخسرت . برج «لونة» اوفق من سواه . مصير عمي شانجه اشد مأساة من مصير عمي غرسية ، ذلك خسر حياته بطعنة من يد «بليده دلفوس»[١] ، وعلى كل حال فقد راعى ابني والمطران «جلميزر» صفتي امرأة واحترما هذه الشعرات الاولى البيض البادية في مفرقي ، انني امرأة راعوني وسجنوني في قفص قد لا يكون ذهبياً ولكنه افضل من فقدان الحياة .

---

(١) كتابي «السيِّد عنترة الاسبان» .

كان الدب الاسود يدور وابي يضحك عالياً وانا اعرق لأن الثوب الذي البسه من الصوف السميك ، وامي جمعت يديها ورفعت انظارها الى السماء مسلمة مشيئتها للراهب الاسود ، وهو يخطط ويوجه ويرسم وامي تراقب والدي المخمور وتقول : «غضب الله آت» ...

ومرت الاعوام وتوصلت الى فهم ما تقصده امي كونستانس ، فمن غرفتها تحرك مصير الكثيرين وتبني الاديرة ، ليست بالضعيفة العاجزة كما تبين لي من الوهلة الاولى ولكن سلاحها الصلاة والتدلل الذي تحسن التصرف فيه ، تعطي منه بمقدار واذا هدد والدي بالطلاق او الهجران توسلت لرهبانها ، رهبان «كلوني» ، الذين طالما عمل والدي بمشيئتهم وطالما اضطررت ان احني الرأس امامهم ، نحصل من رومة بواسطتهم على ما نرضاه ونتمناه ، يقرر البابا ان الزواج لا ينفصم . حليفها الاكبر برنار رئيس رهبان كلوني الفرنسيين ، هذا الراهب هو سلاحها السري تشهره في وجه والدي الفونسه الملك الامبراطور .

الراهب يجمع بين لباقة الحظيات واللسان العذب الناعم الممهور بالكلمات الالهية . لا سلطة قادرة على مناهضة سلطة الملك سوى الكرسي الرسولي ، بابا رومة ، واستفادت كونستانس من هذه القوة التي تنحني امامها الجباه حتى جباه الملوك وقوة الجيوش : «الحِرْم الكَنَسي» .

سيطرت امي على ارادة ابي فادخلت الى بلاط ليون عادات مستوردة كما ادخلت الطقس الكنسي الروماني ليحل محل الطقس المستعرب السائد في بلادنا منذ العهد القوطي . وبينما والدي يتقاسم فراشه مع حظاياه وخليلاته ، امي تناقش الاباتي ، ثم تذهب الى والدي وتتدلل بفتور ناعس يخبله وينحني امام ارادتها ، تبسم له عندما ترى البسمة ضرورية ، تمهد له سريرها عندما ترى ذلك ملائماً تفتح له ذراعيها تسكب عليه حنانها وعطفها بالتقطير فتخمد فيه كل رغبة في المقاومة وابي تستهويه النساء على اختلافهن فيستكن صاغراً .

كنت العب في فناء القصر مع «قزمان» الخادم القيم عليّ . ما زلت اذكر عينيه الجاحظتين وجوزة حلقه البارزة بافراط . ابارزه في معركة خاسرة انا لبقة احسن استعمال السيف ولكن قبضة يدي تتعب بسرعة وهو يتسم يتوقع الانتصار عليّ بسهولة .

انني طفلة ترغب لباس الرجال ، انني امرأة مترجلة .

السيف ثقيل في قبضة يدي وحركاتي تضعف ، وشعرت بالخسارة ولاحت لي فكرة تعلمتها من امي ، لما شعرت بخسارتي في مبارزة قزمان تركت رباطات صدري تنحل وبان نهداي الصغيران ، ووقعت ابصار قزمان عليهما كما لو انهما يدعوانه فتردد مبهوراً من هذا الموقف الذي لا عهد له به واضطربت نفسه فاستفدت من اضطرابه ودهشته وبطرفة عين وضعت طرف السيف في رقبته وصحت فيه : قهرتك هذه المرة ، وتغلبت عليك .

وادركت اعتباراً من ذلك اليوم اني اذا جمعت بين صلابة الرأي وحسن تصرف والدتي تغلبت على جميع العقبات التي تسد طريقي نحو السلطة ، وفهمت ايضاً ان الصبر لا مندوحة عنه فالفونسه والدي لا يسمح بان تمتد يد لتنزع الصولجان من يده ولا يسمح باستيقاظ ميول فيَّ سابقة لاوانها تسعى لنيل السلطة .

لا اريد ان اكون على شاكلة الدب المربوط بالسلاسل يقودونه حيث يشاؤون اتضجر من دموع والدتي وأأنف من تنهداتها كأمرأة غير راضية عن حياتها ، فاخترت السلطة والتسلط واستعددت لاستملاك جميع الاراضي التي يملكها والدي عندما يفارق هذه الحياة .

شق على والدي الفونسه ان زوجته لم تعطه ولداً ذكراً كما لم تنجب له زوجته الاولى ايناس الاكيتانية فوجد فيَّ وفي اختى تريز ورقتين بيديه يستعملهما لتوسيع رقعة مملكته ، يهمه منا تزويجنا للمنفعة من هذا الزواج وامي ايضاً استخدمتنا لاغراض اخرى ، زوجتنا وما زلنا في ريق الطفولة بزوجين قد ينال منهما والدي منافع جمة ، انهما مغامران من عائلة بورغونية يمكنانه من نشر نفوذه في قشتالة وليون وربما في بورغونية الفرنسية .

عرسان تجلت فيهما الفخفخة والبهرجة والروعة والاسراف باجلى مظاهرها عذارى متشحات باثواب حريرية بيض سرن امامنا وجيء بالعازفين على العود والرباب والقيثارة وبمغنين يغنون الاغاني البلدية باللغة الدارجة ولائم وحفلات لا اول لها ولا آخر طيور مطبوخة بالنبيذ الاحمر ، العجول الصغيرة والحملان ، التهم منها اعداداً كبيرة ، وامي تحدثني عن بلادها وتتشوق للعودة اليها فزوجتنا من هذين

النبيلين الفرنسيين واستدعت رهبان كلوني لاصلاح الكنيسة الاسبانية وحشدت جمعاً ضخماً من المغنين المتجولين .

تزوجت اختي بانريق وانا بريمون وادركت اختي كما ادركت انا ان الاطراء الذي اغدقته والدتي على الفارسين من بلادها في غير محله او مبالغ فيه جداً فريمون لا يختلف كثيراً بشكله او بمعارفه عن اكثرية اشراف ليون وجليقية الذين كان يرغب ابي بتزويجنا منهم .

الفصل الثاني

المطران جلميز

تأخر الراهب روبرت في حمل الطعام اليّ ، انا لا يكفيني الكتابة اطلب اليه ان يمكث قربي لاحدثه عن جلميز فيضطرب عند سماعه هذا الاسم مثل ورقة شجر هزتها الريح ، ويرسم اشارة الصليب على صدره بصورة لا افهم مغزاها هل هي دلالة على الاحترام او التكريم او الخوف . ويقول : المطران ؟ ويخفض انظاره الى الحضيض كما لو انه يشاهد فيه تاج الاسقف والصولجان ووشاحه المغلف بجلود الثعالب .

يرى في صوته رنة النواقيس ويدخل الى العقول من غير استئذان ، وفرسه يقدح الشرار من حوافره عندما يطأ الحصباء كأنه غضب السماء نزل على الارض .

انت مصيب يا روبرت في وصف المطران ، عليك ان تعلم انه حالفني ولكن في هذه المرة فاز عليّ ولا بد لي من تقديم الطاعة له . نحن ، متحدين ، لا يقهرنا احد ولكن عندما تصادمت مصالحنا تغلب عليّ فهو ادهى مني .

ــ ليس من احد يقوى على مغالبة ارادة الله .

انا واثقة ان هذا الراهب عندما يعود الى رسومه ونمنماته سيعمل على رسم سيف المطران وحصانه وهو يمتطيه وعيناه تشعان بريقاً واطمئناناً ..

ورويت للراهب اني حملت الى البلاط وانا طفلة ولما تزوجت ولا اكاد ابلغ العاشرة من عمري اعطاني والدي مملكة جليقية مهراً لي وشرع الاسقف «جلميزر» «GELMIREZ» يتقرب من زوجي ريمون حتى اصبح مستشاره الخاص .

انه رجل الله ، يا روبرت ، له صوت المزمار ووداعة الحملان ، هو راهب مثل بقية الرهبان الذين اعرفهم مستعد لاقتبال العشور وبعض الهبات التي تأتيه من المؤمنين . لم اعرف قدره وحزمه وعزمه ولباقته وصبره ومسايرته للظروف حتى تصبح ملائمة له ، الا في ساعة مؤخرة وبعد فوات الاوان .

حصل التحالف بيننا عندما هرع المطران «جلميرز» ذات يوم الى زيارتنا ، وقد زارنا مراراً عديدة . فهو وزوجي يعرفان كيف يجمعان الاموال في الصناديق فالاسقف ذراع زوجي اليمنى يكر حيث يرى الكر لازماً ويفر حيث يرى الفرار ضرورياً .

دب الحبور في جسم المطران ولمع بريق عينيه . وشربنا معاً نبيذاً معتقاً من هذا النوع من النبيذ الذي يبقى في الحنجرة ويصعد الى الرأس ويفك عقدة اللسان ، وريمون زوجي يبتهج بتلك الخلوات التي يتسفيد منها المطران ليبث في مسامع زوجي جليسه عبارات الاطراء والثناء المبالغ فيها والفروسية والسخاء والشجاعة والاقدام فيترنح ريمون ويزهو مثل الطاووس ، المطران يرضي غروره ولا تخلو ليلة من ليالي الشتاء الباردة حتى يجتمع الرجلان عند المدفأة يلعبان بالورق بينما الحطب يحترق في المدخنة ، يتحادثان ويعدان المشاريع ويبنيان ويهدمان العالم في ليلة واحدة . وفي تلك الامسية اشبعا سمعي باحلامهما ومشاريعهما وانا صامتة لا ابدي حراكاً جالسة على كرسي صغيرة خشبية استمع الى قرقعة الحطب المحترق واشاهد اشباحاً في اللهيب المتصاعد مثلما انت يا روبرت تشاهد بلاطات ارض هذه الحجرة اشباحاً غير واضحة المعالم .

ويخاطب المطران زوجي بهذه الكلمات : انت تعلم يا سيدي ، ان عمك الملك والد زوجتك لا يعيش الى الابد على الاقل في هذا العالم ، وادي الدموع . جليقية مملكة ويجب ان تعود الى ما كانت عليه وانت تصبح ملكاً بكامل الحقوق وبكل ما تعنيه هذه الكلمة وانا بصفتي مطران سنتيقوب يهمني جداً ان تستعيد جليقية استقلالها وانا على استعداد لمساعدتك . انت تستعيد عرش جليقية العائد اليك عن طريق الميراث الآتي اليك من زوجتك اوراكة وانا ، لقاء خدماتي ، تجعل ان تحتل مدينة سنتيقوب المكانة التي تليق بها .

هذه الامور وامور اخرى خاطب بها المطران زوجي ريمون مرفقة بكلمات

التبجيل والتفخيم : انت قادر على ذلك ... يجب عليك ... يحق لك ... وفي جميع مخاطباته تظهر مصلحة رهبنة كلوني ممزوجة بمصلحة بورغونية ومصلحة المطران .

ويلّذ لزوجي ريمون سماع كلمات المديح يغدقها عليه المطران جلميرز ويصدقها فهي تنزل عليه كالماء الزلال . لم يتعود المطران على الشراب ولكن يملأ كأسه مراعاة لريمون ويسايره في معاقرة الخمرة بينما زوجي يغرق في سكره ، المطران صاح منتبه .

ويقول ريمون : هذا النبيذ كثير الحموضة بينما النبيذ في بلادي كلون الذهب يترك طعماً عطرياً في الحلق . ويصطنع المطران الاهتمام بمواسم الخمور والكروم والعنب ويقول زوجي العنب يحتاج الى حرارة الشمس حتى يصل الى درجة عالية وعليك ايها الحبر المطران في يوم من الايام ان تأتي معي الى بلادي ولو انك لم تنذر العفة لعرضت عليك صبية ترضيك من جميع النواحي ... هناك عندنا صبايا من النوع الرفيع ، ناهدات الصدور قائمات النهود كأن اثداءهن مثل التفاح جامدات صلبات . ويتظاهر المطران انه لا يهتم كثيراً بالغمزات التي يوجهها اليَّ زوجي استعداداً لما يطلبه مني بعد قليل عندما يضمنا الفراش ، فالمطران لا يعْبأ بقليل ولا كثير بنزوات ريمون الغرامية تعصف به عندما تلعب الخمرة في رأسه ، بل يصغي اليه ويصطنع الاهتمام باوصاف الاثواب المقلوبة والمرفوعة عن الافخاذ الجامدة ، كما يتحدث عنها ريمون .

خمر يلذ لك النظر اليه فلا يتعكر مثل هذا الخمر ويدنو ريمون مني ويدس اصابعه الطويلة بين فلقة نهدي دون ان يتأثر بحضور المطران .

لا تخش ايها الراهب ولا يضطرب قلبك ، الملكة لا تسترسل في هذه الاوصاف ولن تروي لك ما يجري في لياليها الغرامية مع ريمون ولن احدثك عن شغفه بالصبايا الصغيرات السن الطريات العود . انا كنت صبية صغيرة لما تزوجته ولكنني اصبحت في نظره عجوزاً بعد سنوات قليلة ، فمل عشرتي وابتعد عن فراشي الزوجي . يريدها من ذوات الثلاثة عشر ربيعاً او الاربعة عشر او اقل من ذلك يريدها صامدة اللحم غير متهدلة . وتحمر وجنتاه عندما يطلع الاسقف على مغامرة جديدة مع جارية لها جسد كقضيب الخيزران ناعمة كالمخمل مسترسلة الشعر نقية الثغر خفيفة الحركة .

لا تحمر وجنتاك ايها الراهب روبرت . زوجي معجب بالنساء البرغونيات

الفرنسيات والبرتغاليات والقشتاليات والليونيات والجليقيات ، ولكن لا يريد ان يعرف شيئاً عن النساء العربيات ، ويختلف في هذه المسألة تمام الاختلاف عن والدي ، فاحتقره . حرارته الدينية تضع حداً لتصرفاته الغرامية في الفراش ، فلا يبحث مثل والدي عن التمهيدات والمقدمات في الحب قبل اللقاء الجنسي ، انه يفضل الطفلات النضرات الخدود الموردات الوجنات لا يبدين مقاومة ولا يجادلن بل ينصرفن خاضعات طائعات الى تعاطي الجنس مثلما يطلب منهن .

تآمر زوجي والمطران جلميرز على والدي ، فريمون يرغب في اعتلاء عرش جليقية قبل وفاة والدي .

وتلعثم الراهب لما سمع كلامي ، فرجل الله مثلما هو جلميرز لا يتآمر على ملكه .

انك صافي النية ايها الراهب ، رجال الدين اكثر الخلائق حناناً الى شؤون الملك انا واثقة لولا الفضيحة لتخلى جلميرز عن ثوبه الكهنوتي ليجلس الى جانبي على عرش جليقية ، ولكنه محتال مراوغ فطن ، يدرك ان رئيس دين لا يجلس على العرش دون ان يتعرض للحرم الكنسي ، ومن ناحية اخرى يحب ان يحظى برضاي ، كل ما تصبو نفسه اليه هو رئاسة اساقفة جليقية وهو امر طبيعي وشرعي في رتبته الدينية .

ريمون يتحدث عن الخمور وعن النساء والمطران جلميرز يصغي اليه ولكن يحلم بمكاسب جديدة وبحملات توسعية واديرة وكنائس وحجاج الى سانتيقوب وتجارات رابحة ... ازدهار مال غزير وهذه امور يتقبلها زوجي بالرضى الكامل . وعندما تلعب الخمرة في رأسه يفرط في الكلام دون مبالاة فيرسله على عواهنه .

ــ ستصبح رئيس اساقفة ايها المطران ، اجل ستصبح رئيس اساقفة ، خذ هذا الوعد من فم ريمون البورغوني . وسنشهد الاحتفال بالتتويج في كنيسة سانتيقوب بحضور رئيس الاساقفة الذي هو انت ويأتي القاصد الرسولي ونوجه الدعوات الى كافة الملوك ومن بينهم دوق بورغونية لتمتين عرى المودة والالفة .

جلميرز يتحدث دائماً مع ريمون ولا يكاد يتلفت اليّ ، ايها الراهب روبرت ، ولم يكترث لي الا بعد وفاة زوجي ريمون عند ذلك تحولت آورَّاكَة في نظره الى نقد متداول يمكن الحصول عليه والوصول اليه يمكن ان تعرض للزواج من جديد وتختار

ولكن الاختيار يجب ان يلائم مصالح المطران فلو لم يمت زوجي باكراً لما طمعت بالملك وركضت وراءه ، وقبل ان يموت ريمون خلف في احشائي جنيناً يضطرب فاقلعت عن ركوب الخيل مدة طويلة وانصرفت الى تربية ولدي واتذكر الآن كيف كان يعض في صدري واستسلم له طائعة .

ـــ اختارك الله يا اوراكة والآن وقد توفي ريمون فعلينا انا وانت ان نهيء الامور .

جلميرز يحب البحر ويحب اراضيه جليقية ، والآن وقد احتل ولدي المملكة التي كانت لي استراح وارتضى واصبح رئيس اساقفة سانتيقوب بجميع الحقوق ومرتبته لا تقل درجة عن مرتبة رئيس اساقفة طليطلة .

خلع الامير عبد الله صاحب غرناطة

مسكينة زائدة ، هل حقيقة تنصرت واخذت اسم ايزابيل وتنصر اولادها من الفتح بن المعتمد ، ومن كان معها من الحشم بما يقرب من سبعة آلاف رجل على حد قول المؤرخين العرب والنصارى . وتوفيت عند مولد شانجه ابنها ودفنت بدير ساهاغون عام ١٠٩٧ ؟

كل ذلك صحيح وان كان رقم المتنصرين مغالى به . لم تفارق لبس الحرير طيلة حياتها ، حرير شفاف يترك للمخيلة المجال الرحب . زائدة الهاربة من المرابطين ، خليلة والدي . زائدة لم تلبس اثواب الصوف ولا الثياب الخشنة . عندما وصلت الى البلاط كنت طفلة ولكن اذكر انها لم تكن بارعة الجمال ولا شابة ولكنها لبقة تعرف كيف تستهوي قلوب الرجال ، اوقعت والدي منذ الليلة الاولى في غرامها وحبائلها بحيث انه لم يستطب الا عشرتها ، وتخلى نوعاً ما عن نسائه الاخريات وهي بدورها احبته واظهرت له خضوعها واستسلامها لرغباته واهوائه ورافقته في كل مكان . عيناها الكبيرتان السوداوان النديتان ، عينا بقرة طائعة لا تعرف معنى للتمرد والنشوز .

لم احتمل رائحة البخور المنتشرة في القاعات منذ ان استقرت زائدة في القصر . مئات المجامر موزعة في كل زاوية يحرقون فيها البخور والصندل . وجاءت بالعطور

. استرداد قرطبة التي خسرتها .

الزكية الرائحة تدغدغ الأنف علها تستطيع بذلك استرداد قرطبة التي خسرتها . كوانين من الفحم القي فيها العنبر والند فخلقت جواً سحر والدي وملأ الجو عطوراً .

بوابيج من الجلد تستريح فيها الرجل استعملتها زائدة ، ووالدي ايضاً وغطت وجهها بالقناع عند وصولها الى القصر مثل النساء المسلمات بحيث لا يظهر منها سوى عينيها ولا عجب اذا ضاجع ملك نصراني امرأة غير مؤمنة ، فمجرد الاستيلاء على مدينة اسلامية قهراً تؤخذ النساء سبايا ويتمتع بها الجنود والفرسان كما يشاؤون انهن من الغنيمة ، ولكن الجديد في قضية زائده هو قبولها ملكة .

زائدة او ايزابيل تعمدت وشاءت بماء العماد محو ذنوبها ويقول عنها المطران جلميرز : «المسلمة المتنصرة والبغي الكافرة» .

تجلس زائدة عند اقدام والدي تضرب على العود وتغني له وتهوم عليه حتى ينام مثلما يهومون على الاطفال الصغار ، لم ترتدِ قط قميص الصوف بل وشاحاً طويلاً يصل الى الارض تمشي حافية زينت قدميها بالخلاخل وبخفين من الجلد المصنوع والمطرز بخيوط ذهبية وازار على وجهها لا ينزعه الا والدي .

اذكر اني تحدثت معه ورجوته التخلي عنها واذكر اني رشقتها بالاهانة وذكرت له امي ، واللوم الذي يقع عليه هو الملك النصراني الذي يدّعي خوض حرب صليبية ، يرقد مع امرأة كانت زوجة الفتى المأمون بن المعتمد بن عباد . وسألته لماذا تطيب نفسه بمضاجعتها ولماذا لا يضاجع امرأة سواها ؟

ويتراءى لي الآن مضجعاً بين الارائك يستدعي زائدة فتهرع صامتة فيربت على ردفيها ثم يشير اليها قائلاً : علمّي ابنتي هذه ما تعرفين . وتحمر زائدة خجلاً وترتمي عند قدميه ثم يصرفني قائلاً : ان فيها لسحراً لن تدركه قط امك .

ان زائدة ايها الراهب حافظت دائماً على هيبتها وانفتها وشموخها وهذا امر لا يتلاءم مع وضعها لاجئة شريدة طريدة غير انها خضعت لوالدي واطاعت اوامره طاعة جديرة بالجواري لا بملكة مثلها .

في ذات يوم شئت الكلام مع والدي فقصدت غرفته ووجدت زائدة نائمة وساهرة مثل كلب امين .

قالت لي : انه يستريح ولا سبيل لازعاجه .

فاجبتها : اني ابنته ويحق لي الكلام معه ساعة اشاء .

— لن تدخلي انه نائم .

وفهمت من تصميمها انها ستحول بيني وبين الوصول الى والدي وفهمت ان اصطدامي معها يحط من قدري فهي الدخيلة ولكنها الظافرة في تلك الساعة اذ انها مصممة على ان يظل والدي في رقدته .

لم اتوصل يا روبرت الى معرفة ما اذا كان ذلك الشعور حباً ولكنه شعور جبار انه خضوع تام دون قيد ولا شرط قد يكون عرفان جميل في اول الامر ثم تحول الى حنان وحب جارف .

لمَ اطيل الكلام عن هذه المرأة ؟ انت تحدسه ولا اطلعك عليه . زائدة الشخص الوحيد التي تقف في وجهي ان فيها لسحراً لا يقاوم لم تبلغه والدتي ولن ابلغه انا كما قال والدي . ولكن لا يتبادر الى ذهنك يا روبرت اني ابغضها ، لم اتوصل الى كرهها رغم انها منذ دخلت البلاط تحولت الى مزاحمة قوية وها هي تحبل وتعطي والدي طفلاً طالما اشتاق اليه ليرث الملك بعده لأنه لم يرزق قط بطفل ذكر رغم انه تعرف على نساء كثيرات . سلب مني هذا الطفل كل حقوقي في اعتلاء العرش بعد وفاة والدي ، ذلك الاختلاط او تلك العشرة كما يسميها المطران جلميرز اثمر وسرق مني جميع حقوقي . لم اكره زائدة ، عيناها الوادعتان لا يعرفان التحدي .

كم من المرار جلست معي ونزعت القناع عن وجهها وحدثتني عن الحدائق التي تزينها الزهور الملونة من ابيض واحمر واصفر يجللها الطل ، والساقية تبدو وكأنها يد بيضاء منتشرة على بساط اخضر ، قصور يسمع فيها خرير الماء تنصب فيها معجلة وهي مشرقة من انصباب النور عليها ، تتحدث عن قرطبة كما لو انه المكان الذي يجب العودة اليه . الدور بيض وصغيرة تطل الزهور على الشرفات والرجال والنساء يتحلون بالبسة حريرية مذهبة اعتقد يا روبرت ان كبرياء زائدة متأت من اقتناعها بتفوق قومها علينا وهي تأمل بالعودة اليهم ، فالبلاط القشتالي في نظرها جامد بارد لا حياة فيه ولا روح ، تتشوق الى قاعات قرطبة وحماماتها ودفئها . كل هذا تخلت عنه او اضطرت الى التخلي عنه اثر مقتل زوجها ، زوجة ملك قرطبة تتحول الى



Zaida (Mujer de Alfonso VI)

حظية الفونسه السادس امبراطور الملتين كما سمى نفسه . انها تتحسر على خسارة ملكها وكيف ان الذين طلبوهم للدفاع عنهم ضد النصراني استولوا على ملكهم .

وعدتك يا روبرت بتكملة حديثي عن خلع ملوك الطوائف واولهم عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة فهذا الملك طرد من غرناطة «مُقَاتل بن عطية» الزناتي وكان فارس الاسلام وهو مع اخوته في ثلاثمائة فارس فكان ذلك ابتداء نحس عبد الله بن بلقين سنة ١٠٨٩ وفي هذه السنة نفسها قام «مؤمل» مولى باديس بن حبوس في قصبة لوشه على حفيد مولاه ، فاخذ عبد الله وسجنه .

فاول من شهر الخلاف على يوسف بن تاشفين صاحب غرناطة عبد الله بن بلقين فنظر في اختزان الاقوات والحق الرماة والرجال واعلى الابراج وبنى الاسوار ووصل بعضها ببعض واقام عليها الديدبانات ونصب الرعادات وملأ بيوت السلاح وجد في ضرب السهام وبذل في ذلك جهده واذا نفدت هذه لن تغني العدة ونقل المال والذخيرة وخرج المتاع والآنية الى «قصبة المنكّب» لكونها في غاية المنعة وعلى ضفة البحْر وهدم حصوناً توهّم عليه القيام منها ، ومن ما منه يؤتى الحذر وعمد على مال كثير وثياب نفيسة وتحف جليلة واعلاق رفيعة فوجه بها الى الاذفونش وكتب اليه مطارحاً عليه مستجيراً به واعلمه ان البلد بلده وانه فيه فائدة فاهتز لذلك اذفونش وقبل المال والهدايا واقسم بجميع ايمانه ومعتقد ملته انه يشد اليد عليه في ملكه ولا يتركه لضيم ولا هضيمة وان ينهض اليه بنفسه ويبذل جهده في نصره . فقويت نفس حفيد باديس بذلك وفي ذلك يقول السمسري :

صاحب غرناطـه سفيـــه ... واعلـم النـاس بالامـــور
صانـع اذْفونشَ والـنصارى ... فانظـر الى رأيـه الـدبير
وشاد بنيانـــه خلافـــاً ... لطاعـــــة الله والامير
يبنـي على نفسه سفاهـــا ... كأنـــه دودة الحريـــــر
دعوه يبنـــي فسوف يدري ... اذا اتت قدرة القديـــــر

وفي سنة ١٠٩٠ تحرك يوسف بن تاشفين لخلع رؤساء الاندلس فاجتاز البحر ويمم قرطبة. وتواترت الانباء على عبد الله صاحب غرناطة بما يغيظه ويحقده وقدّم الى غرناطة اربع محلات فنزلت بمقربة منها ولم تمتد يد الى شيء بوجه ، فسر الناس واستبشروا وامنت البادية واقبل اهل الحاضرة الى القرى واسرع حفيد باديس في المال

والحق السبوقة والحاكة واستكثر من اللفيف والح بالكتب على الاذفونش بما يطمعه وامر يوسف ابن تاشفين مقدمة الجيش الى التحرك نحو غرناطة فتحرك وفي ليلة الأحد لثلاث عشرة خلت من شهر رجب اجتمع الى الامير عبد الله صنائعه فخوفوه من عاقبة التربص وحملوه على الخروج اليه فركب وركبت امه وخرجا وتركا القصر على حاله والتقى امير المسلمين على فرسخين من المدينة فترجل وسأل العفو فعفا عنه وامره بالركوب فركب واقبل حتى نزل خارج الحضرة واضطربت المحلات وامر «مؤملاً» بثقاف القصر فتولى ذلك وخرج الجمع من المدينة لمبايعة امير المسلمين يوسف بن تاشفين فقبلهم وانسهم وسكن جانبهم فاطمأنوا وسهل مؤمل اليه دخول الاعيان فامر بكتب الصكوك ورفع القبالات والخراج الا زكاة العين وصدقة الماشية وعشر الزرع واستقصى ما كان بالقصر فظهر على ما يحول الناظر ويروع الخاطر من الاعلاق والذخيرة والحلى ونفيس الجوهر واحجار الياقوت والزمرد وآنية الذهب والفضة واطباق البلور والجرجانيات والعراقيات والثياب الرفيعة والانماط والكلل والستائر واوطئة الديباج مما كان في ادخار باديس واكتسابه . واقبلت دواب الظهر من المنكب باحمال السبيك والمسبوك واختلفت ام عبد الله لاستخراج ما اودع ببطن الارض حتى لم يبق الا السقط ، ووزّع ذلك الامير على قواده ولم يستأثر منه بشيء .

ورغب اليه مؤمل في دخول القصر فركب اليه وكثر استحسانه اياه وامر بحفظه وتفقد اوضاعه وافنيته . ونقل عبد الله الى مراكش وسنه يوم خلع خمس وثلاثون وسبعة اشهر فاستقر بها هو واخوه تميم وحلّ اعتقالهما ورفّه عنهما واجروا المرتب والمساهمة عليهما . واحسن عبد الله اداء الطاعة مع لين الكلمة فقضيت مآربه واسعفت رغباته وخفّ على الدولة فاستراح واستريح معه ورزق الولد في الخمول فعاش له ابنان وبنت جمع لهم المال فلما توفي ترك لهم مالاً جماً .

مؤمل مولى باديس :

جئنا على ذكر هذا الرجل مراراً عديدة ودوره الكبير الذي لعبه تجاه يوسف بن تاشفين . كان مولى لباديس جد الامير عبد الله آخر ملوك غرناطة الذي خلعه ابن تاشفين ، فعبد الله هذا لما بلغه تحرك ابن تاشفين اليه لخلعه استشار مؤمل في امره ، وكان في الجملة من احبابه وبه وله سن وعنده دهاء وفطنة ورأي ونظر ولم يكن في

وزراء مملكته واحباء دولته اصيل الرأي جزل الكلمة الا «ابن ابي خيثمة» من كتبته ومؤمل من عبيد جده وجعفر من فتيانه فالطف له مؤمل في القول واعلمه برفق وحسن ادب ان ذلك غير صواب واشار اليه بالخروج الى امير المسلمين اذا قرب والتطارح عليه فانه لا يمكنه مدافعته ولا يطاق حربه ، والاستخذاء له احمد عاقبة وايمن مغبة . وتابعه على ذلك نظراؤه من اهل السن والحنكة ، فاستشاط غيظاً على مؤمل ومن نحا نحوه وهمّ بهم فخرجوا فلما جنهم الليل فروا الى لوشة وبها من ابناء عبيد باديس قائدها فملكوها وثاروا فيها بدعوة امير المسلمين يوسف بن تاشفين . وبادر مؤمل بخطاب يوسف المذكور وقد كان عاينه من ذي قبل فاعجب به يوسف عقلاً ونبلاً ، فاهتز اليه وكان اقوى الاسباب على حركته .

وبادر الامير عبد الله فاشخص الجيش لنظر صهره فتغلب عليهم وسيق مؤمل ومن كان معه شر سوق في الحديد ، قد اركبوا على دواب هجن وكشفت رؤوسهم واردف وراء كل رجل من يصفعه . وامر الامير عبد الله بنصب الجذوع واحضار الرماة . وقيل للأمير عبد الله : ان قتلتهم الآن اطفأت غضبك واذهبت مالك فاستخرج المال وانت من وراء الانتقام . فثقفهم . وانفذ يوسف بن تاشفين في حل اعتقالهم ، فلم تسعه مخالفته فاطلقهم . ولما ملك غرناطة قدّم «مؤملاً» وجعل بيده مفاتيح قصر الامير عبد الله فنال ما شاء من مال وحظوة واقتنى ما اراد من ذخيرة . ونسبت اليه بغرناطة آثار منها الساقية بباب الفخارين والحور المعروفة بحور «مؤمل» .

توفي مؤمل في غرناطة سنة ١٠٩٩ ولما اشرف على المنية احضر ما كان عنده من مال واشهد الحاضرين على دفعه الى من استوثقه على حمله . ثم ابرأ جميع عماله وكتّابه وانفذ رجلاً من صنائعه الى امير المؤمنين بجملة من المال يريه ان ذلك جميع ما اكتسبه في دولته ايام خدمته وان المال اولى به ورغب في ستر اهله وولده . فلما وصل ذلك الى ابن تاشفين اظهر الاسف عليه وامضى تقديم صنيعته .

واخبرتني زائدة ان زوجها الرشيد ابن المعتمد كان في مجلس انسه فورد اليه الخبر باخذ يوسف بن تاشفين غرناطة سنة ١١٠٠ فتفجع وتلهف واسترجع وتأسف وذكر قصر غرناطة فدعا جلساؤه لقصره بالدوام ولملكه بتراخي الايام وامر عند ذلك ابا بكر الاشبيلي بالغناء فغنّى :

«يا دار مية بالعلياء فالسند اقوت وطال عليها سالف الامد
وقفت فيها اصيلانا اسائلها عيت جوابا وما في الربع من احد»

فاستحالت مسرته وتجهمت اسرته وامر بالغناء من ستارته فغنّي :

«ان شئت ان لا ترى صبرا لمصطبر فانظر على اي حال اصبح الطلل

فتأكد تطيره وامر مغنية اخرى بالغناء فغنت :

«يا لهف نفسي على حال افرقه على المقلين من اهل المروآت
ان اعتذاري الى من جاء يسألني ما لست املك من احدى المصيبات

ويقول ابن اللبانة وتلافيت الحال فقلت :

«محل مكرمة لا هدّ مبناه وشمل ماثرة لا شتت الله
البيت كالبيت لكن زاد ذا شرفا ان الرشيد مع المعتد ركناه
ثاو على انجم الجوزاء مقعده وراحل في سبيل السعد مسراه
حتم على الملك ان يقوى وقد وصلت بالشرق والغرب يمناه ويسراه
بأس توقد فاحمرت لواحظه ونائل شبّ فاخضرت عذاراه

فلعمري كما يقول ابن اللبانة ، بسطت من نفسه ، اعادت عليه بعض انسه على اني وقعت فيما وقع فيه الكل لقولي :

البيت كالبيت لكن زاد ذا شرفا ان الرشيد مع المعتد ركناه

وامر اثر ذلك ابا بكر بالغناء فغنى :

ولما قضينا من منى كل حاجة ولم يبق الا ان تزم الركائب

ايقنا ان هذا التطير يعقبه التغير .

ثم قدم المعتمد بن عباد والمتوكل بن الافطس الى غرناطة لتهنئة امير المسلمين لما تهيأ له من ملك غرناطة ومالقة ، فلم يستقبلهما . وانصرفا عنه الى بلادهما وادرك ابن عباد الندم على استدعاء يوسف بن تاشفين الى الاندلس . وقال لحليفه المتوكل بن الافطس : والله لا بد له ان يسقينا من الكأس التي اسقى بها عبد الله ابن بلقين .

ولما عاد ابن عباد الى اشبيلية اخذ في بناء الاسوار وعمل القنطرة ، فقال له ابنه الرشيد : الم اقل لك يا ابت يخرجنا هذا الصحراوي من بلادنا ان انت اوردته علينا ؟ قال يا بني : «لا ينجي حذر من قدر» .

وبالفعل لم تمض شهور قليلة على هذه الحادثة حتى اجتاز يوسف بن تاشفين للمرة الثالثة الى الاندلس سنة ١٠٩٠ سببه انه لما كان على حصن لييط نقل اليه عن ملوك الاندلس كلام وغّر صدره عليهم ، ولما تبين لهم تغيره عليهم واعراضه عنهم نظر كل واحد منهم لنفسه .

ولما حل بالجزيرة الخضراء وافاه المعتمد بن عباد فتلقاه بعادته من التنظيم واحتفل في التضييف والتكريم واول ما صنع هو خلع تميم بن بلقين واخ عبد الله عن مالقة . كما خلع اخاه الامير عبد الله عن غرناطة كما رأينا احتملهما الى بر العدوة واسكنهما اغمات .

عاد الى سبتة وشرع في جواز العسكر الى الاندلس لخلع ملوك الطوائف :

ـــ قدم ابن عمه الامير سير بن ابي بكر على جيش وامره بمحاصرة ابن عباد في اشبيلية واوعز اليه انه اذا فزع من شأنه فليتقدم لبلاد المتوكل بن الافطس .

ـــ وقدم «ابا عبد الله بن الحاج» على عسكر ثان وامره بمنازلة «الفتح الملقب بالمأمون» ولد المعتمد بن عباد بقرطبة .

ـــ وقدّم «ابا زكريا بن واسينو» على عسكر ثالث وامره بمحاصرة المعتصم محمد بن صمادح بالمرية .

ـــ وقدّم «جرور» الحشمي على عسكر رابع وامره بنازلة «يزيد الراضي» بن المعتمد بن عباد برندة .

فجوّز العسكر وانصرف كل فريق الى حيث امرهم واقام هو بسبتة مترقباً لانبائهم فقام كل واحد منهم بالدور المطلوب منه .

كل هذا سمعته من زائدة كنة المعتمد وطلب اليها بعد مقتل زوجها في قرطبة ان تتوجه الى والدي الفونسه السادس وتلتجىء اليه .

خلع المعتصم بن صمادح :

لم يكن المعتصم بن صمادح من فحول الملوك بل اخلد الى الدعة واكتفى بالضيق عن السعة واقتصر على قصر ينبيه وعلق يقتنيه وميدان من اللذة يجري عليه كما يقول عنه ابن بسام غير انه كان رحب الفناء جزل العطاء حليماً عن الدماء والدهماء

طافت به الآمال واتسع في مدحه المقال واعملت الى حضرته الرحال ولزمه جماعة من الشعراء «كأبي عبد الله بن الحداد» «وابن عبادة» «وابن الشهيد».

آل امره مع امير المؤمنين يوسف بن تاشفين الى ان حضره جيشه وهو ينازع حشاشة نفسه، فمات على فراشه وفرَّ اولاده بمالهم في البحر الى سلطان «بجاية». وملك الملثمون البلد. وقال وهو ينازع الموت وقد سمع اختلاط الاصوات في حصار بلده: «لا اله الا الله نغّص علينا كل شيء حتى الموت».

فدمعت عين حظية له قالت: فلا انسى طرفاً الى رفعه وانشاده بصوت لا اكاد اسمعه:

«ترفق بدمعك لا تفنه ... فبين يديك بكاء طويل

وكانت مدة المملكة الصمادحية نحو خمسين سنة ونيّف وملك المعتصم منها احدى واربعين وهو ابن اربع عشرة سنة وقال الحجاري في وصفه: «ملك تملكه الاحسان واطلعه الفضل غرة في وجه الزمان» فكأن ابا تمام عناه بقوله:

تحمل اشباحنا الى ملك ... نأخذ من ماله ومن ادبه

من شعره قوله:

انظر الى الاعلام خفاقة ... قد عبثت فيها اكف الشمال
كأنها وهي لنا زينة ... افئدة الاعداء يوم القتال

وقوله عند موته:

تمتعت بالنعماء حتى مللتها ... وقد اضجرت عيني مما سئمتها
فيا عجباً لما قضيت قضاءها ... ومليتها عمري تصرم وقتها

واما تورعه وعدله فله فيهما حكايات، وكان يرتاح للشعر كثيراً.

وقال في وصفه الفتح:

«ملك اقام سوق المعارف على ساقها وابدع في انتظامها واتساقها واوضح رسمها وانبت في جبين اوانه وسمها ولم تخل ايامه من مناظرة ولا عمرت الا بمذاكرة ومحاضرة قال: ومن بديع افعاله ان «النحلى» دخل المرية وعليه اسمال لا تقتضيها الآداب ولا يرتضيها الا الانتحاب والانتداب والناس قد لبسوا البياض وتصرفوا من

خضرتهم في مثل قطع الرياض «والنحلى» ظمآن يسعره جواره حين لا يستره الا سواده فكتب اليه :

ايا من لا يضاف اليه ثان ... ومن ورث العلى بابا فبابا
ايجمل ان تكون سواد عيني ... وابصر دون ما ابغي حجابا
ويمشي الناس كلهم حماما ... وامشي بينهم وحدي غرابا

فوصله وبعث اليه من البياض ما لبسه وجلّل مجلسه وكتب مع ذلك :

وردت ولليل البهيم مطارف ... عليك وعندي للصياح برود
وانت لدينا ما بقيت مقّرب ... وعيشك سلسال الجمام برود

وارتجل في ماء تسلسل في قصره :

انظر الى حسن هذا الماء في صببه ... كأنه ارقم قد جدّ في هربه

وكتب الى ابن عمار وقد بلغه عنه ما اوجب ذلك من سوء الاغتياب :

وزهدني في الناس معرفتي بهم ... وطول اختياري صاحبا بعد صاحب
فلم ترني الايام خلا تسرني ... مباديه الا ساءني في العواقب
ولا قلت ارجوه لدفع ملمة ... من الدهر الا كان احدى المصائب

واطال الاقامة عنده مرة ابن عمّار فكتب اليه :

يا واضحا فضح السحا ... ب الجون في معنى السماح
ومطابقا يأتي وجو ... ه الجد من طرق المزاح
اسرفت في بر الضيا ... ف فجد قليلاً بالسراح

فراجعه المعتصم :

يا فاضلا في شكره ... اصل المساء مع الصباح
هلا رفقت بمهجتي ... عند التكلم في السراح
ان السماح ببعدكم ... والله ليس من السماح

قال ابو القاسم اسعد من قصيدة في المعتصم بن صمادح :

وقد ذاب كحل الليل في دمع فجره ... الى ان تبدى الليل كاللمة الشمطا
كأن الدجى جيش من الزنج نافذ ... وقد ارسل الاصباح في اثره القبطا
اذا سار سار الجود تحت لوائه ... فليس يحط المجد الا اذا حطّا

وقال ابن الحداد يمدح المعتصم بن صمادح :

بخْ بالحمى حيث الفياض العين فعسى تعن لنا المهاة العين
واستقبلن اوج النسيم فدارهم ندّية الارجاء لا دارين
افقٌ اذا ما رمت لحظ شموسه صدتك للنقع المثار دجون
اني اراعي لهم وبين جوانحي شوق يهون خطبهم فيهون
انى يصاب ضرابهم وطعانهم صب بالحاظ العيون طعين
فكأنما بيض الصفاح جداول وكأنما سمر الرماح غصون
ذرني اسر بين الأسرة والظبا فالقلب في تلك القباب رهين
يا ربة القرط المعير خفوقه قلبي اما لحراكه تسكين ؟
توريد خدك للصبابة مورد وفتور طرفك للنفوس فتون
فاذا رمقت فوحي حبك منزل واذا نطقت فانه تلقين
رأس بظهر النون الا انه سأم فقبته بحيث النون
هو جنة الدنيا تبوأ نزلها ملك تملكه التقى والدين
فكأنما الرحمن عجلها له ليرى بما قد كان ما سيكون
وكأن بانيه سنمّار فما يعدوه تحسين ولا تحصين
وجزاؤه فيه نقيض جزائه شتان ما الاحياء والتحيين
لا تلقح الاحكام حيفا عنده فكأنما الافعال والتنوين
وبدا الهلال الافق احنى ناسخا عهد الصيام كأنه العرجون
فكأن بين الصوم خطط نحوه خطا خفيا بان منه النون

وقال القزاز يمدح ابن صمادح :

نفى الحب عن مقلتي الكرى كما قد نفى عن يدي العدم
فقد قرّ حبك في خاطري كما قرّ في راحتيك الكرم
وفرّ سلوك عن فكرتي كما فرّ عن عرضه كل ذم
فابقى لي الحب خال وجد وابقى لي الفخر كل خال وعم

وقال ابو الحسن بن الحاج من مخمسة يرثي فيها ابن صمادح ويندب الاندلس زمن الفتنة :

من يا بمجبول على ظلم البشر صحف وفي احكامه ماء الحور

مرَّ بنا يسحب اذيال الخفــر   ما احسد الظبي له اذا نفــر
واشبه الـغصن به اذا خطـر
كافـــورة قد طرزت بمسك   جوهـــــرة لم تمتهن بسلك
نبذت فيها ورعـي ونسكــي   بعد لجاجي في التقى ومحكي
فاليوم قد صح رجوعي واشتهر
يا ارض قد خلت قصورهـــا   واصبـحت آهلـة قبورهـــا
يشغل عن زائرهـــا مزورهـــا   لا يأمل العودة من يزورهـــا
هيهات ذاك الورد ممنوع الصدر
تنتحب الدنيا على ابن معـــن   كأنها ثكلى اصيـبت بابـــن
اكـرم مأمـول ولا استثنـــي   اثنـى بنعمـــاه ولا اثنـــي
والروض لا ينكر معروف المطر
عهـدي به والملك في ذمـــاره   والنصر فيما شاء من انصاره
يطلـــع بدر التم من ازراره   وتكمــن العفـــة في ازوراره
ويحضر السؤدد إبـــان حضر
قل للنوى جد بنـا انطــلاق   ما بعـدت مصر ولا العــراق
اذا بدا نحوهما اشتيـــــاق   ومــن دواء الملــل الفــراق
ومن نأى عن وطـن نال وطر

ان ابن صمادح لما حضرته الوفاة وصّى ابنه المستخلف وقال له : «امتسك في هذه القصبة طول مقام ابن عباد في اشبيلية ما استطعت فان رأيت ابن عباد قد خرج لا تتربص ساعة واحدة بل انجُ بنفسك الى القلعة وادخل البحر بما قدرته عليه من ذخائرك اذ لا مطمع لك في البقاء بعده .

حفظ وصية ابيه ولما انقضى في اشبيلية ما انقضى تخيّر قطعة شحن فيها جميع ما قدر عليه من ذخائره وكتم امره وخرج باسم انه ناهض الى امير المسلمين بهدية ليهدن بذلك اهل المرية . فسروا بفعله وقالوا : «هذا هو الصواب قبل ان يحل بك ما حلّ بغيرك ، حتى توسط البحر واعطى النواتية مالاً جسيماً واخبرهم غرضه وخرج بالجزائر ، واكرمه صاحب القلعة وامنه في ذخائره واكرم ضيافته وخيّره حيث يحب السكن فاختار «تدلّس» لأنها على البحر وليغيب عن عين السلطان خوفاً من الطلب .

وقال ابو الفضل بن شرف الحكيم الفيلسوف في مدح المعتصم بن صمادح :

مطل الليل بوعد الفلق ... وتشكى النجم طول الارق
ضربت ريح الصبا مسك الدجى ... فاستفاد الروض طيب العبق
والاح الفجر خدا خجلاً ... جال من رشح الندى في عرق
جاور الليل الى انجمه ... فتساقطن سقوط الورق
واستفاض الصبح فيه فيضة ... ايقن النجم لها بالغرق
فانجلى ذاك السنى عن حلك ... وانمحى ذاك الدجى عن شفق
بابي بعد الكرى طيف سرى ... طارقاً عن سكن لم يطرق
زارني والليل ناع سدفه ... وهو مطلوب بباقي الرمق
فتأنى في ازار ثابت ... وتثنى في وشاح قلق
وتجلى وجهه عن شعره ... فتجلى فلق عن غسق
نهب الصبح دجى ليلته ... فحبا الخد ببعض الشفق
سلبت عيناه حدي سيفه ... وتجلى خده بالرونق
وامتطى من طرفه ذا خبب ... يلثم الغبراء ان لم يعنق
اشوس الطرف علته نخوة ... يتهادى كالغزال الخرق
لو تمطى بين اسراب المها ... نازعته في الحشا والعنق
حسرت دهمته عن غرّة ... كشفت ظلماؤها عن يقق
لبست اعطافه ثوب الدجى ... وتحلى خده باليقق
وانبرى تحسبه اجفل عن ... لسعة او جنة او اولق
مدركاً بالمهل ما لا ينتهي ... لاحقاً بالرفق ما لم يلحق
ذو رضى مستتر في غضب ... ذو وقار منطو في خرق
وعلى خد كعضب ابيض ... اذن مثل سنان ازرق
كلما نصبها مستمعاً ... بدت الشهب الى مسترق
حاذر منه شبا خطية ... لا يجيد الخط ما لم يمشق
كلما شامت عذارى خده ... خفقت خفق فؤاد فرق
في ذرا ظمآن فيه هيف ... لم يدعه للقضيب المورق
يتلقاني بكف مصقع ... يقتفي شاو عذار مفلق

ان يدر دورة طرف يلتمع او يجل دون لسان ينطق
عصفت ريح على انبوبه وجرت اكعبه في زئبق
كلما قلبه باعد عن متن ملساء كمثل البرق
لو نضا وهو عليه ثوبه لتعرى عن شواظ محرق
وارتوت صفحاه حتى خلته يحيا من لكفيك سقى
يا بني معن لقد ظلت بكم شجر لولاكم لم تورق
ابدعوا في الفضل ثم كلفوا كاهل الايام ما لم يطق

فلما سمعها المعتصم لعبت في ارتياحه وحسده بعض من حضر .

— وقّع المعتصم بالله او يحيى بن صمادح التجيبي صاحب المرية في رقعة من الحّ عليه في المزيد من اوغال الجند المرتزقين من ديوانه : «انتم عالة لا آلة ومؤونة لا معونة وانما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً» .

الاميرة الشاعرة ام الكرام :

ام الكرام بنت المعتصم بن صمادح . كان من عادة ملوك الاندلس ان يعهدوا ببناتهن ونسائهن لمعلمات يتعهدنهن بالتعليم والتهذيب وقراءة الشعر وحفظه ، فاعتنى المعتصم بتأديب ابنته لما رآه فيها من ذكاء حتى نظمت الشعر الجميل واسهمت في انشاء الموشحات وشعرها القليل يتناول الغزل وليست وقورة في غزلها ولا متكبرة في حبها بل كانت تجاهر بحبها وتصرخ طالبة الخلوة بحبيبها ولم يكن هذا الحبيب الذي اخرج الاميرة ام الكرام عن وقارها وعما يجب ان تلوذ به من كتمان واحتشام سوى فتى من فتيان قصر ابيها .

وهذه بعض ابياتها :

يا معشر الناس الا فاعجبوا مما جنته لوعة الحب
لولاه لا ينزل بدر الدجى من افقه العلوي للترب
حسبي بان اهواه لو انه فارقني تابعه قلبي

هذا غزل رقيق ولكنه شعر انثى تقوله في فتى ، ولنسمعها في شعر آخر اكثر جراة :

الا ليت شعري هل سبيل لخلوة ينزه عنها سمع كل مراقب
ويا عجبا اشتاق خلوة من غدا ومثواه ما بين الحشا والترائب

ويقال انها اشتغلت بفن التوشيح والتوشيح ليس بالامر السهل يحتاج الى اقفال واغصان وادوار وتشطير .

قرطبة المتنازع عليها :

شاء المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة الاستيلاء على مدينة قرطبة حيث يملك بنو جهور واستولى في طريقه على حصن المدور فاستغاث صاحب قرطبة عبد الملك بن جهور بالخطر المداهم فاستعان بحليفه المعتمد بن عباد فبعث اليه المعتمد نجدة يقودها «خلف بن نجاح» ومحمد بن مرتين ، فنزلا بالربض الشرقي من قرطبة واشرف ابن ذي النون بجنده على المدينة فالفاها قد استعدت لقتاله بقوة تزيد عدة وعدداً على قواته فارتد عنها غاضباً .

وكان اثناء ذلك قد وقع اتصال بين الناقمين على بني جهور في قرطبة وقائدي جيش المعتمد ، فما كاد ابن ذي النون يرتد بقواته حتى تظاهر القائدان بانهما عائدان الى اشبيلية وسارا في فئة من قواتهما الى وداع عبد الملك بباب المدينة عندئذ اقتحم العباديون الابواب وملكوها ودخلوا المدينة واحتلوها كان ذلك سنة ١٠٧٠ . وادرك عبد الملك الخديعة وايقن بالهلاك فطلب الامان لنفسه وذويه فارسلوا الى اشبيلية .

وندب المعتمد بن عباد ولده الفتى عباداً الملقب بالظافر وسراج الدولة لحكم قرطبة .

لم يقف المأمون مكتوف الايدي فلبث يتحين الفرص لتنفيذ مشروعه في الاستيلاء على قرطبة فاتصل برجل من انصاره يدعى حكيم بن عكاشة ، مغامر وافر الجرأة ، وكان في السابق من معاوني «ابن السقاء» وزير بني جهور فلما قتل «ابن السقاء» قبض عليه وزج في السجن ففر من محبسه ولحق بالمأمون بن ذي النون ، فاستخدمه وولاه بعض الحصون القريبة من قرطبة . وكان شهماً صارماً .

وتفاهم المأمون مع «ابن عكاشة» على تدبير مؤامرة للفتك بآل عباد واميرهم والاستيلاء على قرطبة ، ووضع «ابن عكاشة» خطته ولبث يدبر امره ويحشد من استطاع من المغامرين ، وفي ذات ليلة دخل المدينة في جمع من شيعته بواسطة رجال من انصاره فتحوا له الابواب ، ولم يفطن قائد العباديين ابن مرتين الى ما يحدث حوله . وكان رجلاً متهاوناً عاكفاً على لهوه وشرابه .

قصد المغيرون دار بني جهور حيث يقيم سراج الدولة ودهموه على غرة فلقيهم في نفر من رجاله وقتل مدافعاً عن نفسه . ثم قصدوا دار ابن مرتين وكان منكباً على لهوه ، فلما وقف على الخبر فرّ تحت جنح الظلام ولكنه اخذ بعد ايام قلائل وقتل .

وفي اليوم التالي كانت خطة «ابن عكاشة» قد كللت بالنجاح فبسط حكمه على المدينة وانضم اليه كثيرون من الدهماء . ودعا الناس الى بيعة المأمون بن ذي النون وطاعته وبعث اليه رأس سراج الدولة .

وكان المأمون يقيم يومئذ في بلنسية فقدم على عجل ودخل الى قرطبة في موكب عظيم في اواخر سنة ١٠٧٥ ولكنه لم يلبث طويلاً حتى مرض وتوفي باشهر قلائل واحتمل جثمانه الى طليطلة ودفن بها ويقال انه مات مسموماً .

وتولى «ابن عكاشة» من بعده حكم قرطبة نائباً عن يحيى القادر بن ذي النون حفيد المأمون وخلفه في حكم طليطلة . وكانت وفاة المأمون ايذاناً بتطور الحوادث . ذلك ان المعتمد بن عباد مذ قُتِل ولده وضاعت قرطبة كان يضطرم رغبة في استرداد المدينة والانتقام لولده .

واستدعته جماعة من اهل قرطبة فزحف عليها وادرك «ابن عكاشة» انه لا طاقة له على المقاومة ، ففر من المدينة ودخلها جند ابن عباد على الاثر . وبعث ابن عباد في اثر «ابن عكاشة» سرية من الفرسان طاردته حتى ظفرت به وقتلته وجيء به وصلب مع كلب امعاناً في الزراية به . وفرّ ولده «حريز بن عكاشة» الى «طليطلة» فولاه يحيى بن ذي النون حاكماً «لقلعة رباح» وكان «حريز» هذا شاعراً مطبوعاً .

اسكن بقرطبة ولده المأمون وعاد الى اشبيلية .

واستمرت الحال على هذا النحو حتى قدوم المرابطين ومعركة الزلاقة ثم الاطاحة بالامير عبد الله صاحب غرناطة على ايدي المرابطين ، ودرى المعتمد ان نصيبه سيكون مثل نصيب جاره الغرناطي فاخذ يستعد للدفاع عن اشبيلية وفي تلك الاثناء كان قائد المرابطين سير بن ابي بكر يضع خطته النهائية للانقضاض على قاعدة مملكة اشبيلية وقد بدأ بالاستيلاء على «طريف» اقصى ثغورها الجنوبية كانون الاول ١٠٩٠ ونادى فيها بدعوة امير المسلمين .

ثم اتجه نحو الشمال قاصداً اشبيلية بينما زحفت جيوش مربطية فرعية على رندة

وجيان وقرطبة . اما «رندة» ، حاصرها القائد «جرور» المرابطي بقواته وكان يدافع عنها «يزيد الراضي» ولد المعتمد وكانت رندة من امنع القواعد الجنوبية فصمد بها الراضي واضطر جرور ان يقنع بالحصار منتظراً سير الحوادث .

اما جيان فقد تعرضت لزحف جيش مرابطي بقيادة بطي بن اسماعيل وضرب حولها الحصار . ويقول ابن الخطيب :

«لما ضاق به (ابن عباد) الامر جدد مراسلة سلطان النصارى يستصرخ به ويطمعه فبعث اليه جيشاً اوقع بالمرابطين المحاصرين لاهل «جيان» وقيعة استأصلتهم ولأجلها ذهبوا الى الاقطار بدمه عند خلعه لو اتفقت الفتيا بذلك . ثم وصل النصارى الى «بلمة» من احواز اشبيلية فكانت بينهم وبين جيوش المرابطين وقعة تناصف فيها المسلمون وعند ذلك يئس ابن عباد وايقن بالغلبة .

واستمر «بطي» في محاصرة «جيان» حتى دخلها صلحاً وكتب سير بالفتح الى امير المسلمين . وامر «بطي» بالسير بقواته الى قرطبة .

زحف المرابطون على قرطبة وبها المأمون بن المعتمد بن عباد ، وكان قد اتخذ كل الاهبات الدفاعية الممكنة وارسل زوجته وامواله واولاده تحوطاً الى حصن «المدور» «ALMODOVAR» الواقع جنوبي غربي قرطبة على ضفة نهر الوادي الكبير لكي تبقى بمنجاة من الخطر وحتى تستطيع ان تلوذ عند الضرورة بحماية ملك قشتالة وقد كان هذا الاجراء باشارة المعتمد او بموافقته . ولم تصمد قرطبة طويلاً فقد اقتحمها المرابطون بعنف وقتل الفتح المأمون بن عباد خلال الهجوم مدافعاً عنها ورفع المرابطون رأسه على رمح . وكان افتتاح المرابطين لقرطبة في ٢٦ مارس آذار ١٠٩١ . ولما اشتد خطر المرابطين على تلك الانحاء التجأت زائدة الى الفونسه السادس في اوائل سنة ١٠٩٢ وتوفيت سنة ١٠٩٧ اثر وضعها ابنها شانجه ، ودفنت بدير ساهغون .

بنو الافطس :

عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة التجيبي ، مكناسي الاصل الملقب بالمتوكل على الله .

قال ابن حيان : كان جدهم عبد الله بن مسلمة المعروف بابن الافطس اصله من فحص البلوط كان من اهل المعرفة التامة والعقل والدهاء والسياسة . ثم كان هذا

الصقع الغربي بطليوس واعمالها وشنترين والاشبونة وجميع الثغر الجوفي في امر الجماعة ، رجل من عبيد الحكم المستنصر يسمى «سابور» . فلما وقعت الفتنة وانشقت العصا انتزى سابور على ما كان بيده . وكان عبد الله يدبر امره الى ان هلك سابور وترك ولدين لم يبلغا الحلم فاشتمل عبد الله على الامر واستأثر به على ولديه فحصل على ملك غربي الاندلس واعقبه ابنه المظفّر وكان ملكاً شهيراً عالماً شجاعاً اديباً وهو المؤلف كتاب المسمى بالمظفري ، وتوفي فقام بامره ولده عمر . كان اديباً بارع الخط ، حافظاً للغة راعياً حقوق بلده مؤاخياً لهم مرت له معهم ايام هدنة الى حين القبض عليه .

بلغه انه ذكر في مجلس المنصور يحيى اخيه بسوء فكتب اليه بما نصه :

«فمـــا بالهم لا انعـــم الله بالهم	ينيطـون بي ذمـا وقـد علمـوا فضلي
يسيئون لي في القول جهلاً وضلة	واني لا ارجـــو يسيئهـــم فعلي
لئن كان حقاً ما اذاعوا فلا مشت	الى غاية العليـاء من بعدهـا رجلي
ولم الـق اضيـافي بوجـه طلاقـة	ولم امنح العـافين في زمـن المحل
وكيـف وراحـي درس كل غريبـة	وورد التقى شمسي وحرب العدى نفلي
ولي خلق في السخط كالشر طعمـه	وعند الرضى احلى جنى من جنى النحل
فيـا ايها الساقي اخـاه على النـوى	كؤوس القلى مهلاً رويـدك لا يقلي
وقد كنت تشكيني اذا جئت شاكياً	فقل لي لمن اشكو صنيعك قل لي
فبــادر الى الاولى والا فاننـــي	ساشكوك يوم الحشر للحكم العدل

ونثره اشف من شعره وانه لطبقة تتقاصر عنها افذاذ الكتّاب كما يقول لسان الدين بن الخطيب (الاحاطة جزء ٤ ص ٤٥) ونهاية من نهاية الآداب . ويذكر هذه القصة :

كان ليلة مع خواصه للانس معاطياً وتفرغ للسرور والسعد اذ ورد عليه كتاب بدخول اشبونة في طاعته فزَاد في مسرته فقال له «ابن خيرة» وكان ينزل منه منزل الاحباب : لمن توليها ومن يكون واليها ؟

فقال له : انت . فقال : فاكتب الآن بذلك .

فاستدعى الدواة والرق وكتب فما توقف له كلم : «لم يسوغ اولياء النعم

مثل الذي سوغتموه من التزام الطاعة والدخول في نهج الجماعة وذلك لا آلومكم ونفسي فيكم نصحاً في من اتخيره للنيابة عني في تدبيركم والقيام بالدقيق والجليل من اموركم وقد وليت عليكم من لم اؤثر والله فيه دواعي التقريب على بواعث التجريب ولا فوات التخصيص على لوازم التمحيص وهو الوزير القائد «ابو عبد الله بن خيرة» ابني دربة وبعض صحبة ونشأتي سكة وقرية وقد رسمت له من وجوب الذب والحماية ومعالم الرفق والرعاية ما التوز الاستيفاء بعهده والوقوف بجده عند حده . والسؤال في عونه من لا عون الا من له عون ولن اعرفكم من حميد خصاله وسديد فعاله الا بما سيبدو للعيان ويزكو مع الامتحان ويفشو من قبلكم ان شاءالله على كل لسان وقد حددت له ان يكون لناشئكم اباً ولكاهلكم اخاً ولذي النفوس والكبرة ابناً ما اعتنوه على هذا المراد ولزوم الجواد وركوب الانقياد . وما من شق العصا وبان عن الطاعة وظهر منه المراد والهوى فهو القصي منه وان متّ اليهم بالرحم الدنيا ، فكونوا خير رعية بالسمع والطاعة في جميع الاحوال يكن لكم بالبر والموالاة خير وال .

وصوله الى غرناطة :

وصل اليها صحبة حليفه عباد لما قبض يوسف بن تاشفين على صاحبها ونزل بالمشيخة من خارجها سنة ١٠٩٠ رجب ٤٨٣ فدخلا عليه وهنأه وقد تمكنت في نفس ابن عباد الطماعية في تسليم غرناطة الى ابنه بعد استصفاء نعمة صاحبها عوضاً عن «الجزيرة الخضراء» . وكان قد اشخصه معه فعرّض بفرضه ، فاعرض امير المسلمين عن الجميع اعراضاً كانت منّة كل منهما التخلص من يده والرجوع الى بلده . فاعمل ابن عباد الحيلة فكتب يزعم انه وردت عليه تحثه من اشبيلية انباء مهمة طرقت بتحرك العدو ، واستأذن بها في الصدور فأخذ له ولحليفه المتوكل فانتهزا الفرصة وابتدرا الرجعة ولحق كل بموضعه يظن انه ملك رئاسة امره .

ولما اشتد خوفه من امير لمتونة ورأى انه اسوة ابن عباد في الخلع عن ملكه وضيقت الخيل على اطرافه وانتزعها ، داخل طاغية الروم الفونسه السادس وملكه من مدينة اشبونة رغبة في دفاعه عنه ، فاستوحشت لذلك رعيته وراسلت اللمتونيين ، واقتحمت عليه مدينة بطليوس ، واعتصم بالقصبة وخانه المحاربة فدخلت عليه عنوة وتقبض عليه وعلى بنيه وعبيده وتحصلوا في ثقاف قائد الجيش اللمتوني . وبادر اعلام

الامير «سير بن ابي بكر» فلحق بها ، واستخرج ما كان عند المتوكل من المال والذخيرة وارجعه الى اشبيلية مع ابنين له .

فلما تجاوز وبعد عن حضرته انزل وقيل له : تأهب للموت . فسأل ان يقدم ابناءه يحتبسهما عند الله ، فكان ذلك وقتلا صلبا بين يديه ثم ضرب عنقه وذلك صدر سنة ١٠٩٤ وانقرضت دولة بني الافطس فرثاهم ابن عبدون بقصيدته الفريدة .

«الدهر يفجع بعد العين بالاثر فما البكاء على الاشباح والصور ؟»

تجدها كاملة في كتابي «السيد عنترة الاسبان» .

ابن عمار :

اوراكة قابعة في سجنها لا انيس لها ولا جليس سوى الراهب روبرت الذي يأتي اليها من وقت الى آخر يحمل لها طعامها او ما تحتاج اليه وسألته ذات يوم :

ــ اتلعب بالشطرنج ؟

ومنذ ان طرحت عليه هذا السؤال شرع ينحت الفرسان والملك والملكة والفيل والحصان والبرج من خشب الجوز . وعدته بان تعلمه هذه اللعبة التي شغف بها والدها الملك الفونسه السادس ولعبها مع ابن عمار وكان من الخاسرين .

في سنة ١١١٠ فهمت وفهم الفونسه زوجي ان الغمد لا يتسع لسيفين كما قال المأمون لوالده المعتمد بن عباد لما شاء استدعاء المرابطين الى الاندلس فكأن الولد قرأ في الحدثان فعلم ان يوسف بن تاشفين سيستولي على الاندلس ، فنبه والده قائلاً : الغمد لا يتسع لسيفين واجابه ابوه : رعي الجمال في افريقية ولا رعي الخنازير في قشتالة .

كان والدي يردد : «المملكة مثل لعبة الشطرنج» . ويقضي الكثير من وقته يحرك الدمى . وخسر لعبته مع ابن عمار وزير المعتمد بن عباد وفرحت لأن ابي خسر واعجبت بالوزير المسلم دون معرفة سابقة . انه ثعلب عرف كيف تؤكل الكتف توصل الى اعلى المراتب ثم انحط الى اسفل وخسر حياته .

اقول ان الانسان في بعض الاحيان يقتل الشخص الذي يحبه والمعتمد قتل

وزيره ابن عمار الذي احبه ، وانا التي اتحمل غطرسة زوجي وسوء معاملته لي وخشونته وغلظته لم اشته شيئاً اكثر مما اشتهيت موته .

والمعتمد بكى على وفاة نديمه ابن عمار وانا لم اذرف دمعة واحدة على وفاة ابي . هناك امور يصعب تفسيرها منذ مقتل «براده» ابتدأت اكره الفونسه ، وعندما يدنو مني يتلاشى بغضي له وتضطرم فيّ الشهوة .

ــ وكيف خسر ابوك مع ابن عمار؟

ــ ابي ، اعتبره طفلاً كبيراً ، استهوته لعبة الشطرنج . ابي ضغط على اراضي المعتمد المالك في اشبيلية . وعلم ابن عمار ان والدي يهوى لعبة الشطرنج فامر بصنع شطرنج من اجمل ما وجد واشاع انه عنده شطرنج يريد المراهنة عليه ، فوصل الى اذن والدي التحدي فقال انا مستعد للمراهنة .

ــ وعلى مَ كان الرهان ؟

ــ اذا خسر ابن عمار يعطي والدي الشطرنج الجميل ، اما اذا ربح ...

وخشي الملك والدي ان يطلب منه ابن عمار شيئاً لا يقدر على تنفيذه فاقنعه جلساؤه وكان ابن عمار قد رشاهم ، بان يلعب فخصمه ضعيف لا يحسن اللعب وانه رابح لا محالة .

واقتنع والدي وراهن وخسر الرهان فقال له ابن عمار : طلبي هو ان تعود الى بلادك .

انها كلمة وفاء بالعهد وابي وفى بعهده انه ملك والملك لا يتراجع عن كلامه وهذا ما يجعلني اعجب بوالدي واقدره لأنه اعطى كلمته ولم يشأ الرجوع عنها .

ــ اجل الانسان في بعض الاحيان يقتل من يحبه .

ــ ولكن الخائن لا يستحق الرحمة والاحترام .

صدقت يا روبرت انا ادرى الناس بالخيانات ونكث العهود : خنت ابني وخنت «قند طرابة» وخنت المطران «جلميرز» «GELMIREZ» وخنت زوجي وخيانتي له مزدوجة خنته كزوجة وخنته كملكة ، لا استطيع التصرف بغير ما تصرفت المراهنة على المملكة وعليّ ان انقذ مملكتي .

في ذلك الوقت توفي المستعين ووجد الفونسه الفرصة مناسبة للاستيلاء على سرقسطة ورأى ان يطرد منها ابن الحاج والي بلنسية لكي يرد سرقسطة الى عبد الملك بن المستعين ، الوارث الشرعي .

وتوصلت الى كسب مودة عبد الملك بالمال والحيلة . ليس فيه شيء من ابن عمار انه مسكين خائف مستعد ان يتحمل كل مذلة وصغار لقاء الحفاظ على مملكته .

في ذلك الوقت سافرت بصحبة «غومس غنصالس» لأنه الشخص الملائم يفهم رغباتي ولكنه يتجاهل معرفتها لياقة منه وكياسة وحسن ادب .

لنرجع في حديثنا الى ابن عمار .. يقول عنه المؤرخون المسلمون كان نادرة وقته براعةً وادباً وحسن مجالسة وشهامة نفس فأخذ بمجامع قلب المعتمد وحل منه المحل المحجور على سواه .

ندبه المعتمد الى مرسية فدخلها واستولى عليها باسم المعتمد بن عباد بعد ان اعتقل ابن طاهر صاحب مرسية . وضبطها واستقر فيها قراره الى ان سولت له نفسه الانفراد بها وكشف وجهه في الخلاف للمعتمد .

وخرج ابن عمار لتفقد بعض شؤون حصونها فوثب ابن رشيق على مرسية واستولى عليها . وبلغ ابن عمار الخبر ففر عنها ولحق بالمقتدر بن هود بسرقسطة واستولى ابن رشيق على مرسية فامتنع ايضاً بها . وجرى بينه وبين المعتمد في ذلك حديث طويل الى ان تخلى ابن رشيق عن مرسية لامير المسلمين يوسف بن تاشفين عند جوازه الى الاندلس .

وبقي ابن عمار عند المؤتمن بن هود على شأنه عند المعتمد من سلطانه الى ان اغراه بحصن شقورة ووعده من نفسه بفتحه وتوجه اليه فلما نزل بساحته قاده صاحب الحصن وسهل عليه الامر وجعل البلد في يده باللسان وطلب منه الصعود بنفسه لمباشرة قصبته فاسرع لذلك في طائفة يسيرة من مماليكه ورجاله وقد اعمى عينه الحرص والغرور وتهوره المشهور فلما تحصل في قصبة اصحاب الحصن وثب به وكبله واودعه المطبق .

واتصل ذلك بابن عباد فراسل صاحب الحصن في التمكين منه فسلمه اياه ،

فادخل اشبيلية فوق ظهر اتان بين عدلي تبن . وحشد الناس الى رؤيته ، وقد خرج اميراً كبيراً واعيد اليوم ذليلاً اسيراً . واعتقله المعتمد ببعض حجر القصر وكان يستحضره فيبالغ في عتبه ويتلقاه ابن عمار بالاستعطاف والاسترحام بما كاد يحل عقدة موجدته ويطمع في الابقاء عليه .

وصدرت عن ابن عمار اشعار في الاستعطاف تعالج بمرامها جراح القلوب فمن ذلك قوله :

«سجاياك ان عافيت اندى واسمح — وعذرك ان عاقبت اجلى واوضح
وان كان بين الخطتين مزية — فانت الى الادنى من الله تجنح
حنانيك في اخذي برايك لا تطع — عداي ولو اثنوا عليّ وافصحوا
وماذا عسى الاعداء ان يتزيدوا — سوى ان ذنبي ثابت متصحح
وان رجائي ان عندك غير ما — يخوض عدوي اليوم فيه ويمرح
ولم لا وقد ابلغت وداً وخدمة — يكرّان في ليل الخطايا فيصبح
اقلني بما بيني وبينك من رضى — له نحو روح الله باب مفتح
وعّف على آثارهم جرم سلكته — بهبّة رحمى منك تمحو وتصفح
ولا تلتفت قول الوشاة وزورهم — فكل اناء بالذي فيه يرشح
سيأتيك في امري حديث وقد اتى — برأي بني عبد العزيز موشح
وقالوا سيجزيه فلان بذنبه — فقلت وقد يعفو فلان ويصفح
تخيلتهم لا درّ لله درهم — اشاروا تجاهي بالشمات وصرحوا
الا ان بطشاً للمؤيد يرتمي — ولكن حلماً للمؤيد يرجح
نعم لي ذنب غير ان لحلمه — صفاة يزّل الذنبُ عنها فيصفح
وبين ضلوعي من هواه تميمة — ستشفع لو ان الحمام مجلح
سلام عليه كيف دار به الهوى — اليّ فيدنو او عليّ فينزح
ويهنيه ان متُ السلوُ فانني — اموت وبي شوق اليه مبرح

لم تنفع كل هذه التوسلات ، دخل عليه ذات يوم وضربه بالطربزين ففلق رأسه وترك الطربزين في رأسه فقالت الرميكية : «قد بقي ابن عمار هدهداً» .

تلك نهاية ابن عمار ارتفع من اوضع منزلة الى اعلى منزلة حتى وصل الى هذا المصير التاعس .

زائـدة :

وجلس الراهب روبرت بجانبي وحدثني عن والده وعمه وينظر اليّ اثناء حديثه بخشوع واشعر بقرارة نفسي بشوقي الى العناق والقبلات في هذا السجن المحرومة فيه من التقبيل والعناق واللثم والضم .

ويطلب مني ان احدثه عن زائدة . وتحمر وجنتاه خجلاً كما لو ان مجرد ذكر اسم هذه المرأة خطيئة مميتة وهتك الاسرار المقدسة اذ لا يجب ان يخرج من فمه سوى كلام التسبيح والترتيل للعلي ..

قصة زائدة ايها الراهب طويلة ترجع معرفتها بوالدي لما كان منفياً في طليطلة ببلاط المأمون بن ذي النون لما نفاه عمي «شانجه القوّي» بناء على طلب عمتي آورّاكة لأن عمي كان عازماً على الفتك بوالدي بعد ان اتفقا على سجن اخيهما غرسية وتفردا بالسلطة بعد ان استوليا على مملكة جليقية (كتابي السيد عنترة الاسبان) .

ودار الزمان دورته فاذا بزائدة تتزوج ابن المعتمد بن عباد وابي يتخلص من منفاه ويستولي على مملكة قشتالة وليون وجليقية بعد مقتل عمي شانجه القوّي فيستبد بالملوك المسلمين ويرهقهم بالضرائب . والمعتمد من جملة الملوك الذين دفعوا الجزية لوالدي . فلما تملك ابي طليطلة ارسل اليه المعتمد الضريبة المعتادة فلم يقبلها منه وارسل اليه يتهدده ويتوعده بالسير الى قرطبة ليفتحها الا ان يسلم اليه جميع الحصون المنيعة ويبقى السهل للمسلمين . وكان الرسول في جمع كثير نحو خمسمائة فارس فانزله المعتمد وفرق اصحابه على قواد عسكره ثم امر قواده ان يقتل كل منهم من عنده من النصارى . واحضر الرسول وصفعه حتى خرجت عيناه . وسلم من الجماعة ثلاثة نفر فعادوا الى والدي واخبروه الخبر وكان متوجهاً الى قرطبة ليحاصرها فرجع الى طليطلة ليجمع آلات الحصار ويكثر العدة والعدد .

واخبروني ان امي لما حملت بي طلب من المعتمد دخول امي الى جامع قرطبة لكي تلدني فيه بعد ان اشار عليه القسوس والاساقفة لمكان الكنيسة في الجانب الغربي منه عمل عليها المسلمون الجامع الاعظم ، وسأل ايضاً ان تنزل امي بالمدينة الزهراء غربي مدينة قرطبة وهي التي انشأها عبد الرحمن الناصر لدين الله وامعن في بنائها

واغرب في حسنها وجلب عليها الرخام الملون والمرمر الصافي والحوض المشهور من البلاد والاقطار .

اشار القساوسة والاطباء على والدي ان تكون امي ساكنة الزهراء وتتردد الى الجامع المذكور . وكان السفير في ذلك يهودياً ، وكان وزير والدي فامتنع ابن عباد من ذلك ، فراجعه ، فاباه واياسه من ذلك واغلظ له في القول وواجهه بما لم يحتمله ابن عباد فأخذ محبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس اليهودي فانزل دماغه في حلقه وامر به فصلب منكوساً بقرطبة . كل هذا حصل بسببي .

وبلغ والدي ما صنعه ابن عباد بوزيره فاقسم ليغزونه باشبيلية ويحاصرنه في قصره فجرد جيشين وجعل على احدهما احد قواده وامره ان يسير على كورة «باجة» من غرب الاندلس ويغير على تلك التخوم والجهات ثم يمر على «لبلة» الى «اشبيلية» وجعل موعده امام «طريانة» للاجتماع به معه .

وزحف ابي بنفسه في جيش آخر عرمرم فسلك طريقاً غير الطريق التي سلكها الآخر وكلاهما عاث وخرّب ودمّر حتى اجتمعا لموعدهما بضفة النهر الاعظم «وادي الكبير» قبالة قصر ابن عباد . وفي ايام مقامه هناك كتب الى ابن عباد يقول : «كثر بطول مقامي في مجلسي الذباب واشتد عليّ الحر فاتحفني من قصرك بمروحة اروح بها على نفسي واطرد بها الذباب عن وجهي» .

ورد عليه المعتمد بخط يده في ظهر الرقعة :

«قرأت كتابك وفهمت مرادك وخيلاءك واعجابك ، وسانظر لك في مراوح من الجلود اللمطية تروح منك لا تروح عليك ان شاء الله تعالى» .

فلما وصلت الى ابي الفونسه رسالة المعتمد بن عباد وقرئت عليه وعلم مقتضاها اطرق اطراق من لم يخطر له ذلك ببال .

ورأى والدي ان يكتب الى المعتمد فاستدعى كاتبه وامر بنص الرسالة :

نص الرسالة التي وجهها الفونسه السادس الى المعتمد بن عباد

من الانبيطور ذي الملتين الملك المفضل اذفنش بن شانجه الى المعتمد بالله سدد الله آراءه وبصره مقاصد الرشاد . سلام عليك من مشيد ملك شرفته القنى ونبتت في ربعه المنى باغترار الرمح بعامله والسيف بساعد حامله وقد ابصرتم بطليطلة نزال

اقطارها وما حاق باهلها حين حصارها فاسلمتم اخوانكم وعطلتم بالدعة زمانكم والحذر من ايقظ باله قبل الوقوع في الحبالة ولولا عهد سلف بيننا نحفظ ذمامه ونسعى بنور الوفاء امامه لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده ووصل رسول الغزو ووارده . لكن الاقدار تقطع بالاعذار ولا يعجل الا من خاف الموت فيما يرومه وخشي الغلبة على ما يسومه وقد حملنا الرسالة اليك القرمط البرهانس وعنده من التسديد الذي تلقى بامثالك وللعقل الذي به تدبر بلادك ورجالك مما اوجب انابته فيما يرق ويجل وفيما يصلح لا فيما يخل وانت عندما تأتيه من آرائك والنظر بعد هذا من ورائك والسلام عليك يسعى بيمينك وبين يديك .

اجاب المعتمد على رسالة ابي بالرسالة الآتية :

من الملك المنصور بفضل الله المعتمد على الله محمد بن المعتضد بن عمرو بن عباد الى الطاغية الباغية اذفنش بن شانجه الذي لقب نفسه بملك الملوك وسماها بذي الملتين قطع الله بدعواه ، سلام على من اتبع الهدى . اما بعد فان اول ما يبدأ من دعواه انه ذو الملتين والمسلمون احق بهذا الاسم لأن الذي تملكوه من امصار البلاد وعظيم الاستعداد ومحبي المملكة لا تبلغه قدرتكم ولا تعرفه ملتكم وانما كانت سنة سعد ايقظ منها مناديك واغفل عن النظر السديد جميل مباديك فركبنا مركب عجز نسخه الكيس وعاطيناك كؤوس دعة قلت في اثنائها ليس ولم تستح ان تأمر بتسليم البلاد لرجالك ، وانّا لنعجب من استعجالك برأي لم تحكم انحاؤه ولا حسن انتحاؤه واعجابك بصنع وافقتك فيه الاقدار واغتررت بنفسك اسوأ الاغترار وتعلم انّا في العدد العديد والنظر السديد ولدينا من كماة الفرسان وحيل الانسان وحماة الشجعان يوم تلتقي الجمعان رجال تذرعوا الصبر وكرهوا القبر تسيل نفوسهم على حد الشفار وينعاهم المنام في القفار يريدون رحى المنون بحركات العزائم ويشفون من خيط الجنون نحو اتم العزائم ، قد اعدوا لك ولقومك جلاداً رتبه الاتفاق وشفاراً حداداً شحذها الاصفاق ، وقد يأتي المحبوب من المكروه والندم من عجلة الشروه ، نبهت من غفلة طال زمانها وايقظت من نومة تجدد ايمانها ومتى كانت لاسلافك الاقدمين مع اسلافنا الاكرمين يد صاعدة او وقفة متساعدة الا ذل تعلم مقداره وتتحقق مناره ، والذي جرأك على طلب ما لا تدركه قوم كالحمر لا يقاتلونك جميعاً الا في قرى محصنة او

من وراء جدار ظنوا المعاقل تعقل والدول لا تنتقل ، وكان بيننا وبينك من المسالمة ما اوجب القعود عن نصرتهم وتدبير امرهم .

نسأل الله المغفرة فيما اتيناه في انفسنا وفيهم من ترك الحزم واسلامهم لاعاديهم والحمد لله الذي جعل عقوبتنا توبيخك وتقريعك بما الموت دونه وبالله نستعين عليك ولا نستبطىء في مسيرنا اليك والله ينصر دينه والسلام على من علم الحق فاتبعه واجتنب الباطل وخدعه[1] .

علم والدي ان المعتمد تخلى ليوسف بن تاشفين عن الجزيرة الخضراء فاخترق بلاد المسلمين معرضاً عن رؤساء الطوائف لا يرضى اخذ الجزية منهم حتى انتهى الى الخضراء ومثل على شاطىء البحر وامر ان يكتب الى الامير يوسف بن تاشفين والموج يضرب ارساخ فرسه بما نسخته :

من امير الملتين اذفونش بن فردلند الى الامير يوسف بن تاشفين : «اما بعد فلا خفاء على ذي عينين انك امير الملة المسلمة كما انا امير الملة النصرانية ولم يخف عليه ما عليه رؤساؤكم بالاندلس من التخاذل والتواكل واهمال الرعية والاخلاد الى الراحة وانا اسومهم سوء الخسف واضرب الديار واهتك الاستار واقتل الشبان واسبي الولدان ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم ان امكنتك قدرة . هذا وانتم تعتقدون ان الله تبارك وتعالى فرض على كل منكم قتل عشرة منا ثم خفف عنكم فجعل على كل واحد منكم قتال اثنين منا فان قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار ونحن نعتقد ان الله اظهرنا بكم واعاننا عليكم اذ لا تقدرون دفاعاً ولا تستطيعون امتناعاً . وبلغنا عنك انك في الاحتفال على نية الاقبال فلا ادري اذا كان الحين يبطىء بك امام التكذيب ما انزل عليك فان كنت لا تستطيع الجواز فابعث اليّ من عندك من المراكب لاجوز اليك واناجزك في احب البقاع فان غلبتني فتلك غنيمة جاءت اليك ونعمة مثلت بين يديك وان غلبتك كانت لي اليد العليا واستكملت الامارة والله يتم الارادة» .

فامر يوسف بن تاشفين ان يكتب في ظهر كتابه : «جوابك يا اذفونش ما تراه لا ما تسمعه ان شاء الله» .

---

(١) اورد نص الرسالتين صاحب الحلل الموشية ، وهذا النص هو الذي اعتمده دوزي عن مخطوطات باريس وليدن وغيانغوس (مدريد) .

واردف الكتاب ببيت ابي الطيب :

ولا كتب الا المشارف والقنـا   ولا رسل الا الخميس العرمرم .

وعبر البحر وقد استجاش اهل الاندلس وكان اللقاء يوم الجمعة منتصف رجب تسعة وسبعين واربعمائة افلت اذفونش في فل قليل قد اصابته جراحة واكد شعراء المعتمد القول في ذلك فمن ذلك قول عبد المجيد بن عبدون من قصيدة :

فاين العجب يا اذفونش هلا   تجنبت المشيخـة يا غلام
سيسألك النساء ولا رجال   فحدث ما وراءك يا عصام
اقمت لدى الوغى سوقاً فخذها   مناجزة وهوّن لا تنام
فان شئت اللجين فثم سأم   وان شئت النضار فثم حام
رأيت الضرب تطبيبـاً فصلّب   فانت على صليبك لا تلام
اقام رجالك الاشقون كلا   وهل جسد بلا رأس ينام
رفعنا هامهم في كل جذع   كما ارتفعت على الايك الحمام
سيعبد بعدها الظلماء لما   اتيح له بجانبها اكتتام
ولا ينفك كالخفاش يفضي   اذا ما لم يباشره الظلام
نضا اذراعه واجتاب ليلاً   يولول ان طول الليل عام
سيبقى حسرة ويبيد ان لم   ابادتنا القناة او الحسام

كل هذه المعلومات سمعتها من زائدة ، يا روبرت ، جمعتنا صداقة قوية فكنا نجلس معاً وتروي عليّ حكايات واساطير تطيب لها نفسي ورويت لي قصة زوجها واهله مع المرابطين ، ومن بعض ما قالت لي :

انه لما قضى امير المسلمين يوسف بن تاشفين من معركة الزلاقة ما قضى امر عسكره بالمقام وان تشن الغارات على بلاد الفرنج وامر عليهم «سير بن ابي بكر» وطلب الرجوع في طريقه فتكرم به ابن عباد فعرج به الى بلاده وسأله ان ينزل عنده ، فاجابه ابن تاشفين الى ذلك . فلما انتهى الى اشبيلية مدينة المعتمد وكانت من اجمل المدن منظراً ، ونظر الى موضعها على نهر عظيم مستبحر تجري فيه السفن بالبضائع جالبة من بلاد المغرب وحاملة اليه . في غربيه رستاق عظيم مسيرة عشرين فرسخاً يشتمل على آلاف من الضياع كلها تين وعنب وزيتون ، وهذا الموضع هو المسمى «شَرَف اشبيلية» وتتمول بلاد المغرب كلها من هذه الاصناف وفي جانب هذه المدينة قصور

المعتمد وابيه المعتضد في غاية الحسن والبهاء وفيها انواع ما يحتاج اليه من الطعام والشراب والملبوس والمفروش وغير ذلك . فانزل المعتمد يوسف بن تاشفين في احدها وتولى على اكرامه وخدمته ما اوسع شكر ابن تاشفين .

وكان مع ابن تاشفين اصحاب له ينبهونه على تأمل تلك الحال وما هو عليه من النعمة والترف ويغرونه باتخاذ مثلها لنفسه ويقولون : ان فائدة الملك قطع العيش فيه بالتنعم واللذة كما هو المعتمد واصحابه .

وكان يوسف بن تاشفين مقتصداً في اموره غير متطاول ولا مبذر وكان قد ذهب صدر عمره في بلاده في شظف العيش فانكر على مغريه بذلك الاسراف وقال :

«الذي يلوح من امر هذا الرجل يعني المعتمد ، انه مضيع لما في يده من الملك ، لأن هذه الاموال التي تعينه على هذه الاحوال لا بد ان يكون لها ارباب لا يمكن اخذ هذا القدر منهم على وجه العدل ابداً ، فاخذه بالظلم ، وانفقه في هذه الترهات ، وهذا من افحش الاستهتار ، ومن كانت همته في هذا الحد من التصرف فيما لا يغذو الا جوفين متى تستنجد همته في حفظ بلاده وضبطها وحفظ رعيته والتوفر على مصالحها» .

ثم ان يوسف بن تاشفين سأل عن احوال المعتمد في لذته : هل تختلف فتنقص عما هي عليه في بعض الاوقات ؟ فقيل : لا ، بل كل زمانه على هذا .

قال : افكل اصحابه وانصاره على عدوه ومنجديه على الملك ينال حظاً من ذلك ؟

قالو : لا . فقال : كيف ترون رضاهم عنه ؟ قالوا : لا رضا لهم عنه .

فاطرق يوسف وسكت . واقام يوسف عند المعتمد على تلك الحال اياماً . وفي بعض تلك الايام استأذن رجل على المعتمد فدخل وهو ذو هيئة رثة وكان من اهل البصر . فلما دخل عليه قال له : اصلحك الله ايها الملك ان من واجب الواجبات شكر النعمة ، وان من شكر النعمة اهداء النصائح واني رجل من رعيتك حالي في دولتك الى الاختلال ، اقرب منها الى الاعتدال لكني ملتزم لك من النصيحة ما يستوجبه الملك على رعيته فمن ذلك خبر وقع في اذني من بعض اصحاب ضيفك

هذا يوسف بن تاشفين يدل على انهم يرون انفسهم وملكهم احق بهذه النعمة منك ، وقد رأيت رأياً فان آثرت الاصغاء اليّ قلته .

قال له المعتمد : قله . قال رأيت ان هذا الرجل الذي اطلعته على ملكك رجل مستأسد على الملوك قد حطم ببر العدوة زناتة واخذ الملك من ايديهم ولم يبق على احد منهم ولا يؤمن ان يطمح الى الطماعية في ملكك بل في ملك جزيرة الاندلس كلها بما قد عاينه من بلهنية عيشك وانه لمتخيل في مثل حالك سائر ملوك الاندلس وان له من الولد والاقارب ممن يؤثر مسرتهم من يود له الحلول بما انت فيه من خصب الجناب وقد اودى الاذفونش وجيشه واستأصل شافتهم واعدمك من اقوى ناصر عليه لو احتجت اليه ، فقد كان لك منه اقوى عضد واوقى مجن ، وبعد ان فات الأمر على الاذفونش لا يفتك الحزم فيما هو ممكن اليوم .

قال له المعتمد : وما هو الحزم اليوم ؟

قال : ان تجمع امرك على قبض ضيفك هذا واعتقاله في قصرك وتجزم انك لا تطلقه حتى يأمر كل من هو بالجزيرة من عسكره ان يرجع من حيث جاء حتى لا يبقى منهم بالجزيرة طفل . ثم تتفق انت وملوك الجزيرة على حراسة هذا البحر من سفينة تجري فيه بغزاة له ثم بعد ذلك تستحلفه باغلظ الايمان الا يضمر في نفسه عوداً الى هذه الجزيرة الا باتفاق منكم ومنه وتأخذ منه على ذلك رهائن فانه يعطيك من ذلك ما تشاء ، فنفسه اعز عليه من جميع ما تلتمس منه . فعند ذلك يقنع هذا الرجل ببلاده التي لا تصلح الا له وتكون قد استرحت منه بعدما استرحت من الاذفونش وتقيم في موضعك على خير حال ، ويرتفع ذكرك عند ملوك الاندلس واهل الجزيرة ويتسع ملكك وتهابك الملوك ، واعلم انه قد تهيأ لك من هذا امر سماوي تتفانى الأمم وتجري بحار من الدم دون حصول مثله .

فلما سمع المعتمد كلام الرجل استصوبه وجعل يفكر في انتهاز هذه الفرصة . وكان للمعتمد ندماء قد انهمكوا معه في اللذات . فقال احدهم لهذا الرجل الناصح : ما كان المعتمد على الله وهو امام اهل المكرمات مما يعامل بالحيف ويغدر بالضيف . فقال له الرجل : انما الغدر اخذ الحق من يد صاحبه لا دفع الرجل عن نفسه المحذور اذا ضاق به . فقال ذلك النديم : لضيم مع وفاء خير من حزم مع جفاء .

ثم ان ذلك الناصح استدرك الامر وتلافاه ، فشكر به المعتمد ووصله بصلة وانصرف .

واتصل هذا الخبر بيوسف بن تاشفين فاصبح غادياً فقدم له المعتمد الهدايا السنيّة والتحف الفاخرة فقبلها .

وتوقفت آورَّاكَة عند هذا الحد والراهب ما زال يتشوق الى المزيد من المعلومات والملابسات التي رافقت ظهور المرابطين في الاندلس وافساد خطط الاذفونش في القضاء عليهم واحداً بعد واحد او على جميعهم في الوقت ذاته : على المعتمد بن عباد وعلى عبد الله ملك غرناطة وعلى بن صمادح وابن الافطس وغيرهم . عندنا شاهد عيان هو عبد الله ملك غرناطة كان اول من صب عليه يوسف بن تاشفين جام سخطه فخلعه عن ملكه وارسله الى افريقية . اتريد ايها الراهب ان تعلم قصته كما سمعتها من زائدة ومن غيرها من الذين هربوا من المرابطين والتجأوا الى والدي وكثير منهم تنصر ؟ انا اعلم تشوقك الى استماع مثل هذه الاخبار .

مذكرات عبد الله :

عبد الله هذا كتب مذكراته عن تلك الاحداث يقول فيها :

«لما رأينا كَلَب النصراني يعني به والدي الفونسه السادس امبراطور الملتين ، واخذه لطليطلة وقلة رفقه بعدما كان يقنع منا بالجزية صار يروم اخذ القواعد وان اخذه لطليطلة للضعف المتوالي عليها عاماً بعد عام وكذلك كان من شأنه في اخذ البلاد اذ كان مذهبه الا ينازل معقلاً ولا يفسد اجناده على مدينة لبعد مرامها ومن فيها من مخالفي ملته وانما كان يأخذ منها الجزية عاماً بعد عام الى ان تضعف وتلقي بيدها كما فعلت طليطلة فوقع من ذلك في الاندلس رجة عظيمة واشرب اهلها خوفاً وقطع رجاء من استيطانها . وجرت بين المعتمد والفونس مخالفات كثيرة وسأله ان يتخلى له عن معاقل كان الموت عنده اولى من اعطائها فوجست نفسه منه بالجملة ورام كسره بطوائف المرابطين :

«اذا لم يكن عون من الله للفتى فاكثر ما يجني عليه اجتهاده»

وقد كان اخونا صاحب مالقة ، للفتنة التي كانت بيننا وبينه قد داخلهم قبلُ ،

يستغيث بهم ويرجو الانتقام منا بهم وان يدركوه ما فاته من مملكة جده وظن انه عند ظهورهم يقسم الاموال بيني وبينه . وكان هذا الخلاف كله من سعادة امير المسلمين . ورأى من تشتتنا انه لا مشقة تكون عليه في اخذ بعضنا ببعض متى شاء ، فلم يجبه الامير الى شيء .

وقد كان رسل المعتمد قبل هذا قد وردت عليه تعلمه ان يتأهب للجهاد وتعده باخلاء الجزيرة الخضراء وانه لا يصل الى سبتة الا ويضعها بين يديه . فلما وصل متأهباً لذلك بمن احتفل به من جيشه قدم رسله الى المعتمد ومنهم عبد الملك القاضي وابن الاحسن . فامسكهم المعتمد باشبيلية مدة طويلة وامير المسلمين في ذلك متقلق فارسل معهم المعتمد من شيوخ اشبيلية من يقول له :

«تربص في سبتة مدة من ثلاثين يوماً الى ان يخلي لك الجزيرة» .

فاجابهم الى هذا . وقيل له : لم يجعلك ابن عباد في هذا الالتواء الا لأنه يريد مراسلة الاذفونش يعلمه بقدومك ولعله يتأتى له منه ما يرغب ويهدده بك ويسأله ان يعاقده على ان يهبه الجزية اعواماً فان فعل استجاش عسكره الى الجزيرة ومنعك من الجواز فاسبقه اليها وان كان النصراني لا يتأتى له ارسل اليك في الجواز .

ولما انفصل الرسل عنه بنية التربص في اخلاء الجزيرة ثلاثين يوماً جهز عسكراً مقدماً من نحو خمسمائة فارس وارسلهم في اثرهم فلم تصل الرسل الى الجزيرة آخر النهار الا والعسكر في اثرهم ، نزلوا بدار الصناعة فالتفت القوم الى خيل قد ضربت محلتها لم يدر متى اقبلت ولم يصبح لهم الا وطائفة اخرى بعدها يزيدون حتى انكمل العسكر كله على الجزيرة مع داود بن عائشة واحدقوا حواليها يحرسونها ونادى داود القائد المرابطي بالراضي بن المعتمد بن عباد حاكم الجزيرة وقال له : وعدتمونا بالجزيرة ونحن لم نأت لأخذ بلدة ولا ضرر سلطان وانما اتينا للجهاد فاما ان تخليها من هنا الى وقت الظهر من يومنا هذا والا فالذي تقدر عليه اصنعه .

وخاطب امير المسلمين ابن عباد يعلمه بما صنع ويقول له : كفيناك مؤونة القطائع وارسال الاقوات لاجنادنا كما وعدت فارسل المعتمد لابنه الراضي في اخلائها لهم وحصل فيها داود بن عائشة وامر بالتقدم الى اشبيلية .

فاستولت العساكر على اشبيلية ، وعاقدنا امير المسلمين على ان تتصل الايدي

على غزو الروم بمعونته وارسل عند حلوله باشبيلية الى جميع الرؤساء بالاندلس فاما ابن صمادح صاحب المرية فابى عليه متربصاً ليرى كيفية الأمر ومخرجه مع الاذفونش واعتذر بكبر السن مع الضعف وارسل ابنه .

وبادرنا نحن اي ملك غرناطة ، الى الخروج وسرنا بذلك واعددنا ما استطعنا عليه للجهاد باموالنا ورجالنا وقدمنا الهدية الى امير المسلمين وامرنا بضرب الطبل وما يستعد به للفرح عند مخاطبته لنا بدخول الجزيرة وظننا ان اقباله الى الاندلس منّة من الله عظيمة لدينا لا سيما من اجل القرابة وللذي شاع من خيرهم واقبالهم على طلب الآخرة وحكمهم بالحق فنعمل انفسنا واموالنا معه في الجهاد كل عام فمن عاش منا كان عزيزاً تحت ستر وحماية ومن مات كان شهيداً والعجب في تلك السفرة من حسن النيات واخلاص الضمائر كأنما القلوب جمعت على ذلك . ولقينا امير المسلمين بطريقه الى بطليوس بجريشة ورأينا من اكرامه لنا ما زادنا ذلك رغبة فيه لو استطعنا ان نمنحه لحومنا فضلاً عن اموالنا . ولقينا المتوكل ابن الافطس محتفلاً بعسكره . كل يرغب في الجهاد قد اعمل جهده ووطن على الموت نفسه .

انتظرنا ببطليوس اياماً حتى صح عندنا اقبال الفونس في حفلة يروم الملاقاة ويظن انه يهزم الجيش لقلة معرفته به . وساقه القدر الى ان توغل في بلاد المسلمين ونحن بازاء المدينة متربصين .

ثم ارسل الاذفونش على يدي ابن الافطس الى امير المسلمين يقول له : «ها انا قد اقبلت اريد ملاقاتك وانت تتربص وتختبىء لأهل المدينة ، فلم يكن ان ينتقل اليه ليكون الجيش على مقربة منه . وتواعدوا اللقاء في يوم سمياه ولم يكن بين المحلتين الا نحو ثلاثة اميال ففاجأهم عسكر الرومي وهم على غير استعداد وكان مختلساً ، ودارت المعركة حامية ولو ان تلك الوقيعة تكون على اعداد من وقوف الفئتين ومناطحتهم في اللقاء لفقد من العسكرين الاكثر الذي توجبه الرتبة ولكن الله لطف بعباده ولم يفقد من المسلمين الا الاقل وانصرف ابن تاشفين راجعاً الى اشبيلية على حال سلامة ونصر .

ولما انقضت غزوته تلك جمعنا في مجلسه اعني رؤساء الاندلس وامرنا بالاتفاق والائتلاف وان تكون الكلمة واحدة وان النصارى لم تفترصنا الا للذي كان من تشتتنا واستعانة البعض بهم على البعض .

فاجابه الكل ان وصيته مقبولة وان ظهوره مما يجمع الكل على الطاعة والجري الى الحقيقة .

وامر امير المسلمين بانصرافنا ولم يعد في ذلك بعدها مجلساً الا في سفرة لييط «ALEDO» الملعونة . واخذ امير المسلمين في الانصراف الى بلاده وهو قد اطلّع عياناً وسماعاً من اختلاف كلمتنا ما لم ير وجهاً لبقائنا في الجزيرة وأنّس الجميع فكل من شكا اليه يقول له : لم نأت لهذا والسلاطين اعلم بما يصنعون في بلادهم ، حتى ازداد بذلك محبة الى ما كان عليه في قلوبنا .

وبقيت الحال على ذلك قد اشرب الروم من تلك الوقيعة خوفاً وانكماشاً . ولم تزل الحال صالحة الى سفرة لييط وان المعتمد بن عباد لما رأى من خلاف ابن رشيق عليه وانه اراد ان يضع ابنه الراضي بمرسية عوضاً عن الجزيرة الخضراء التي صارت بيد المرابطين ، سار بنفسه الى امير المسلمين وعظّم له من شأن لييط وانها في قلب البلاد وان لا راحة للمسلمين الا بالاستيلاء عليها وعاقده على ان يأتي اليه بنفسه ورجاله .

ووصلت الينا كتب الامير يأمرنا عند جوازه بالاستعداد للقتال ، ففعلنا وبادرنا رغبة في الجهاد ومحبة فيه ، وخرجنا اليه ولقيناه في حيز بلدنا بما يطابق مثله من الهدايا والتحف واجمعنا على المسير الى لييط فنازلناها على اتم ما يمكن من الرجال والعدد كل رئيس يقاتل على حسب مجهوده وما تبلغ استطاعته حيلته ولييط امتلأت من النصارى واعدوا فيها جميع ما يحتاجون اليه من كل شيء وهم في ذلك يهددون بمجيء الفونس والقتال عليهم كل يوم لا يفتر مع نصب المنجنيق والعرادات حتى لم يبق عمل يرام به افتراص المعاقل الا وصنع ومع ذلك لا ينجح عمل ولا تظهر فيه للمسلمين فرصة لما شاء الله من اختلاف الكلمة .

وكانت تلك السفرة اخرج الله فيها اضغان السلاطين ، ورعيتهم في ذلك يأتون افواجاً شاكين لما وجدوا ، فالراضي منهم يلتمس الزيادة والساخط يرجو الانتقام وجعلوا في شكاويهم فقهاءهم وسائط يقصدون نحوهم . منهم الفقيه ابن القليعي قد صار خباؤه بتلك المحلة مغنطيساً لكل صادر ووارد وشاخت المحلة وطالت اقامتنا وملّ الناس الى ان ورد الخبر بقدوم الفونس اليها ، فساءت الظنون من اجل

ذلك ورأى امير المسلمين ان الرجوع عنها والانصراف اولى لطول مكث الناس وفشلهم .

ووقعت بين المعتمد بن عباد والمعتصم بن صمادح صاحب المرية مشاجرات وانفصلا على غير موافقة ومثل ذلك جرى لنا مع اخينا صاحب مالقة .

ولما رأى امير المسلمين كثرة طلب اخينا لنا ارسل الينا «قروراً» يقول : «لا يربك شكوى اخيك فان السلطان لا يسعه ان يقول له : اسكت عن طلبك ولا يغطيه يداً غير ان نلوي القصة مرحلة بعد مرحلة حتى يقع الانفصال» . فشكرته على ذلك وقال : «ان غرناطة اعز عليه اكثر من مالقة لاحتياجه الى الاجتياز اليها في غزواته . فتقدم انت الآن واعدّ جهدك ما يجب من ضيافة السلطان» .

فسرني ذلك وتقدمت الى وادي آش واعددت له ما كان جديراً به .

ولما وصلت وادي آش وقد كان ظهر لي قبل في لييط من جفاء «قرور» وتخويفه لي وتهديدي على لسان الامير والامير عن ذلك غافل غير اني حسبت ذلك من قبل «قرور» لما رأيت من مكانته عنده فادركني من ذلك رعب شديد وعاينت مع هذا ما حل بابن رشيق وسمعت وعيد «القليعي» لي وجفاءه عني مما زاد فيّ ذلك جزعاً لا سيما ان الجزع والسوداء متمكنة من نفسي واجدها في طباعي ، كدت ان اموت غماً . و «قرور» يناصبني العداوة . ثم اراد اصلاح ما افسد معي فعلمت ان ذلك ليس لنية صلحت بل لحاجة عرضت ودفعت اليها ضرورة ولأجل ذلك قال لي على لسان الامير في خبر اخي ما قال ، وتبيّن لي انه لو كان ذلك من عند الامير لم يطلب «قرور» مني عليها رشوة وعمل لي حاجة في دفع ضرر اخي عني واخذ مني عليها الف دينار مرابطية لم اتجرأ قط على ذكرها مدة حياته لئلا يطلبني عند الامير .

نحن بحال لا يرضى عنا فيها لا رعية ولا جند وقال لي القليعي : ان تستغن عن الجند استنجدت من العدوة من يغنيك عنهم فرأيت امراً معمىً لا ينطبق على قاعدة مع ما كان ينطبق به لسانه ابداً من الوعيد والتهديد عند اصدقائه وقد نقل اليّ عنه قوله : والله لابلغن من حفيد باديس ما كان يبلغ جده مني ومن غيري فلما ابصرت هذه الحالة قلت في نفسي ان استفسدت الى الجند وهم جناحي بقيت وحدي مع من يروم خلعي فالاولى على كل حال استصلاح ما فسد من انفسهم فجمعتهم بمحضر

واعلمتهم اني راجع عن ذلك المذهب وراد اليهم انزالاتهم . فقام الكل على القليعي وهموا باختطافه من بين يدي لولا امساكي لهم وخشيت مع هذا عليه ان يقتلوه فقلت لهم : انا اكفيكم امره وامرت بثقافه على اجمل الوجوه في بيت يقرب من القصر وكان تحت بر واكرام وانا في ذلك اعتذر اليه من قيام العامة واعده باطلاق سراحه عند اطفاء هذه الثائرة .

فلما توطدت الاحوال امرت باخراجه وانهيت اليه ان يكف لسانه ويدع فضول القول والعمل الا فيما يعنيه . فقال لي : نعم انا التزم الروابط واسلك سبيل العافية ان شاء الله .

فلم يكن الا انه انطلق وصار الى امير المسلمين بالشكوى وزاد في الطين بلة . فقال لي الجند : لو انك امسكته لم يهيج عليك النار . فسررت لهذه الحالة وقلت هؤلاء امة لا تريد الا انصافي لهم ورغد عيشي معهم وهم قد رأوا جند العدوة وان اقل عبد لهم اغنى من غيرهم واصلح حالة من جنود الافارقة ، فلا يمكن استبدال الادنى بالافضل .

وحست نفسي من الرعية رغبة منهم في حط المغارم والذي شاع من الزكاة والعشر على المرابطين فقلت : ان الجيش القادم لا يستطيع ان يعم جميع البلاد ، ومحاولة احتلال معقل واحد منها يطول ويحدث في خلافه احوال . فصرفت وجهي الى تشييد الحصون وبنيانها واعداد ما يصلح للحصار ان كان ، فلم ادع وجهاً من وجوه الحزم الا فعلته من اعداد المطاحين وانواع العدد من التراس والنبل والعادات وجميع الاقوات وقلعتها من القرى واعددت لكل حصن قوته وقلت : ليس يتعرض امير المسلمين لأحد من سلاطين الاندلس الا بعد ابرامه لأمر الرومي (الفونسه السادس) ولا بد عند مناظرتهم من فرجي ان غلب المرابط لم يفتنا الدخول في طاعته ، فلا الحمار سقط ولا الزق انخرق . وان غلب الرومي كنا منه على حذر قد نفعنا ما ابرمناه من هذا البنيان والتشييد واتخاذ العدد فسيكون بذلك للمسلمين حماية . واعددنا «المنكب» ان تغلب الرومي فاكون على البحر متصلاً بالمسلمين ندافع منها جهدنا الى ان نضطر الى الجواز وطلب السلامة بحشاشة انفسنا .

يعلم الله اننا لم نتظافر مع احد ضد المرابطين ولا نتلكأ عن جهاد ولا اردت بهم مساءة نسبت الينا اكثر من انني جزعت الجزع الشديد مما تقدم ذكره من تلك

المعاني التي ابصرتها مع هلعي وتمكن السوداء مني وسوء الظن مع معاينة اليقين فقلت : متى دعاني امير المسلمين الى اعطاء عسكر او مال او ما شابه ذلك مما يجب في مشاركته وانجاده لم نتأخر عنه فنقيم على نفسي الحجة وتجلب اليّ المضرة ان فعلت غيره ، غير انه متى دعاني الى الخروج اليه بنفسي نعتذر ونداقع ذلك جهدي فعسى يتركني ويقبل عذري ، الا ان يكون حظي منه مثل حظ انسان دخل على احد الملوك وقد اعد لكلامه جواباً . فلما خرج الى الثقاف سئل عن اعداده الجواب وزعمه ان ذلك نافع له فقال : لكل كلمة وجدت جواباً الا لقوله «خذوه» فلم أدْرِ ما اقول فيها . فوكلت الامور الى الاقدار . وكانت ايامي تلك بين الرجاء والخوف الا اني واثق بكل من معي من رجالي وخدمي انهم لا يغدرونني فقويت نفسي بعض القوة .

ولما حان انصرافنا من «لييط» «ALEDO» كلمنا امير المسلمين في عسكر يتركه عندنا بالاندلس خوفاً من الاذفونش ان يكلب عليها ويطلبنا بثأر تلك السفرة وغيرها فلا يكون عندنا بما نداقع .

فقال : اصلحوا نياتكم تكفوا عدوكم .

ولم يعطنا عسكراً فايقنا ان الرومي سيأتي طالباً للمال متجنياً على من خالفه ان يفسد بلاده وهذا صاحب سرقسطة وما يليه من الشرق دافعوا شره ودفعوا اليه ما سلف له عندهم وبلغني الخبر وزاد ذلك في غمي .

وكان البرهانس زعيم جهات غرناطة والمرية . وكان الفونس قد وكله امر الجهتين من انفاد امره فيها . فارسل اليّ اولاً عن نفسه ينذر بدخول وادي آش وانه لا يرده عن ذلك الا الفداء لها .

فقلت في نفسي : مع من اتقي رأيه ؟ اي مقدرة بنا على مدافعته ؟ لا عساكر ترك لنا ندافع بها فكم يؤخذ في هذه المرة من اسرى المسلمين كم يفسد فيها من الاموال .

اجتمع رأينا على ارضائه باليسير مع معاقدته الا يقرب لنا بلداً بعد اخذ هذه الدفعة فارتبط الى ذلك . فلما حصلت عنده قال : ها انا قد صلح جانبي والاوكد عليكم امر الفونس الذي هو على الحركة اليكم والى غيركم فمن انصفه نجا ومن حاد عنه سلطني عليه انما انا عبده ولا بد من اتيان مرغوبه والوقوف عند امره ولا ينصفكم هذا الذي اعطيتموني ان خالفتموه وليس بنافع الا فيما يخصني دون

رئيسي . فعلمنا ان قوله حق يقبله العقل فقلنا له : لا يمكن ان نوجه نحن اليه ونبدأه ، فنوقظه لَأَكَلَنَا ولكن متى ارسل يأذن بذلك سنعتذر اليه فعسى يقبل رغبتنا ولم نفتح له باباً في اعطاء شيء لكي لا يزيد طمعه عسى من هنا الى ذلك الوقت يأتي عسكر يكسر به فلا يعبأ بقوله وان لم يأت احد لم نكن نقدم اليه قبيحاً فنشقى عند ذلك .

ودافعنا الامر عند البرهانس وانه لا سبيل الى ان نعطيه شيئاً واعتذرنا بالمرابطين وغير ذلك مما لزمنا من النفقات عليهم . فسكت عنا الخنزير وارسل الى صاحبه وسأله ان يوجه اليه رسولاً يطلب جزيته فان انصرف دون شيء كان هو المنتقم من جهاتنا . وتأهب الفونس الى الحركة وقدم رسوله فلما صحت عندنا اتانا منها المقيم المقعد ولم ندر اين الخيرة ان كان في رفض البلد وتركه يعبث فيه او مداراته بما تيسر ووقعت من ذلك هيبة في الناس ورجة حتى بلغ من الجزع اننا لم نصدق ان يقبل منا المال .

وطمعنا ان يقنع رسوله باليسير فقال لي : لم آت عن ذلك كله الا ان تعطيه ما فاته عنك من جزية ثلاثة اعوام بثلاثين الف لا ينقص منها شيء والا فها هو مقبل والذي تقدر عليه فاصنع .

فرويت الأمر في نفسي وقلت : ان اخذت من الرعية ضجة وشكت الى مراكش : اخذ اموالنا واعطاها النصارى ، وانا جدير اعطاء ذلك من بيت مالي بحيث يسلم البلد وبحيث تشكر الرعية بمدافعة عدوها دون تكليفها شيئاً ففعلت ذلك وارسلت اليه الثلاثين الفاً لم ارزأ احداً فيها درهماً .

ورأيت ان اجدد معه عقداً لئلا يعترض لي بلداً ولا يعذرني بعدها فاجاب الى العقد وقلت في نفسي : اذ لا بد من دفعها فبالعقد اولى . فاجاب الى تلك المعاهدة حرصاً على اخذ المال ونحن لا نشك انه يغدر وقال لي عندئذ رسوله : يقول لك الفونس ان كنت تريد استعانة به على شيء من بلادك التي عند ابن عباد فهو يساعدك . فاجبته : اني لا اعين على مسلم احداً وان الذي دعاني الى هذه المعاهدة المدافعة عن بلادي واهل ملتي فان وفيتم بذلك فهو المراد الذي فيه قصدنا .

وكان من نيته ان يخلق الفتنة بيننا وبين ابن عباد ليجد السبيل بذلك الى بلاده ويقوى عليها باموالنا وقلنا له : اننا مغرورون في هذه الفعلة معك وستدركنا تباعها عند المرابطين ونطالب بذلك .

فقال تسهيلاً لأخذ ماله : متى ادرككم في ذلك منه طلب فعليّ الذب عن مدينتكم .

فاجبناه : بل هو يرى عذرنا ، وقبوله وعطفه ارجى عندنا من معونتكم .

فانفصلت الحال على ذلك وقال : لا بد له من تدويخ سائر البلاد من نظر ابن عباد وغيره ان لم يعطه . فقلت : هذا امر لا يسألنا الله عنه يوم القيامة ، كل احد مسؤول عن رعيته .

ثم خاطبنا امير المسلمين ننص عليه جميع ما وقع وما دفعت الضرورة اليه وان الحاضر ابصر من الغائب .

ولم نشك في ان الجواب يردنا بالشكر على ما نظرناه وسددناه لا سيما اذا كان الفداء من عندي ولا اكلف فيه مسلماً درهماً . فوردني جوابه مع ما امليت نفسه من الطلب وصورت عنده الامور على غير حقائقها بما زاد في جزعي يقول :

«اما مداهنتك وقولك الباطل قد علمناه ، وسنعلم عن قريب كيف ترضى الرعية وما تصنع اذ زعمت انك نظرت لها ، ولا تسوف فان هذا قريب غير بعيد» .

فلم اقنط مع هذا وقلت : عند الحقائق وتبيان ما وقع على لسان رسول يزيل عن باله كلام الاعادي ، وهذا من بغي القليعي وابي بكر بن مسكّن فانهم لا ينقلون الا على شهواتهم .

وساء ظن المعتمد بي في دخول النصراني الى بلاده وكفه عن بلادنا واعتقد ان ذلك على اتفاق ولو كان عن اتفاق لأديت عليه مالاً فوق الجزية ، ولم يأت عسكر المرابطين الى اشبيلية الا والبلد قد افسد ، فاتفقت الاقاويل عند امير المسلمين بكثرة الطلب ولو اني اريد ذلك والانحياز الى النصارى كالذي قيل لم يصل المرابطون الى سبتة الا ومدينة غرناطة مملوءة منهم . وكنت استطيع على ذلك وكانت لي في المدة برهة وفسحة طويلة الا ان الاعمال بالنيات ، وكيف يصح هذا منا واول سيف سُلّ على الروم انما كان من قبلنا .

وتوقفت اوراكة عن الكلام ، ولمست من الراهب رغبة في معرفة المزيد فاعتذرت انها تعبة وتترك النهاية الى فرصة اخرى .

والمعتمد ارسل وزيره هذا الى ابي فعقد معه حلفاً يقضي بمساعدته على احتلال

غرناطة وتصبح المدينة للمعتمد وذخائر قلعة الحمراء لأبي ولقاء هذا دفع المعتمد خمسين الف دينار .

غير ان والدي لم يحسن السياسة مع المعتمد فاضطر هذا الى طلب مساعدة المرابطين الذين يدخلون الرعب في قلبك ، فاستولوا على بلاده وخلقوا لوالدي مشاكل لا اول لها ولا آخر .

انا مثلهم ، ايها الراهب ، اعتليت ظهر الحصان وبيض الغبار ثيابي وبللها العرق ولم تبللها الروائح العطرية وليس الله الذي حرك سيفي بيدي ، وقد لهوت كثيراً بشؤون الدولة وصرفت جل اوقاتي في تدبيرها ، والآن عندما اشاهد يديك واصابعك الطويلة اتصور ابن عمار والمعتمد في ساعات لذاتهما يمارسان حباً اثيماً ، لم يتورع ابن عمار عن البوح به .

وهذه قصيدته معروفة يقول فيها :

«الا حي بالغرب حياً حلالا	اناخوا جمالا وحازوا جمالا
وعرج بيومين ام القرى	ونم فعسى ان تراها خيالا
تخيرتها من بنات الهجان	رميكية ما تساوى عقالا
فجاءت بكل قصير العذار	لئيم النجارين عما وخالا
قصار القدود ولكنهم	اقاموا عليها قرونا طوالا
اتذكر ايامنا بالصبا	وانت اذا لحت كنت الهلالا ؟
اعانق منك القضيب الرطيب	وارشف من فيك ماء زلالا
واقنع منك بدون الحرام	فتقسم جهدك ان لا حلالا
ساهتك عرضك شيئاً فشيئاً	واكشف سترك حالا فحالا
فيا عامر الخيل يا زيدها	منعت القرى وابحت العيالا

وقال الوزير ابو جعفر احمد بن حرج وزير ابن عمار لما ثار بمرسية من شعر :

ساروا فودعهم طرفي واودعهم	قلبي فما بعدوا عني ولا قربُوا
هم الشموس ففي عيني اذا طلعوا	في القادمين وفي قلبي اذا غربوا

وقال في رثاء ابن عمار :

قد طالما حمّر المرء ابن عمار	مستدرجاً باماني واخطار
يملي له ويملي كل ما وطر	وللمقادير فيه اي اوطار

استدرجته لما قد ادرجته به حتى اتى لمناياه بمقدار
مكاره خفيت عنه مصادرها والحين ما بين ايراد واصدار
مستوزر لم يؤل منها الى وزر وكم تحمل من اعباء اوزار
تأتي الامور اذا اقبلن مشكلة لكن تفاسيرها تغري بادبار

وقال الشاعر العجل لما باع عتاد الدولة ابن عمار للمعتمد بن عباد :

بُعِثَ ابن عمار بمال وهلْ مثلُ ابنِ عمّار بمال يباعْ
لعمري لقد تابعت فيه الذي قد جاءه من قبل اهل الطماعْ
فوطَنِ النفس على سنّة ينبو ــ اذا تُذْكَر ــ عنها السماعْ

«المعرب في حلى المغرب» جزء ٢ ص ٦٨

ابن المصيصي :

كان هو وابن عمار وابن الملح في شلب اترابا متمازجين فلما سمت الحال بابن عمار انف ابن الملح من خدمته ورضيها ابن المصيصي فقرّبه من المعتمد بن عباد واستكتبه المأمون بن المعتمد لما ولاه ابوه مملكة قرطبة . قال من قصيدة في المعتمد بن عباد :

من استطال بغير السيف لم يطل ولم يخب من نجاح سائل الاسل
اعدتك صحبتك الارماح شيمتها فانفذ نفوذ القنا في الامر واعتدل
وان اتتك امور لم تعّد لها فانهض برايك بين الريث والعجل
اقدم على حذر وارغب على زهد واغلظ على رقة واسفر على خجل
جرّ الذيول ولكن من جحافله على القتاد ولكن من شبا الاسل

ما ابعد زنزانتي هذه عن الحدائق عن الحجرات والمجالس المفروشة بالطنافس كما حدثتني عنها زيدة تستطيع الجلوس باسترخاء والتمدد اذا شئت وجسدك يضم جسداً آخر تشعر بحرارته وبسرعة نبضات قلبه وتصغي الى القصائد التي ينشدها ابن عمار وغيره من شعراء البلاط وتستمع الى اغاني القيان والجواري هذه تقدم لك من يدها خمراً ومن فمها خمراً فتسكر سكرتين . واظنها قريبة الشبه من الاغاني الفها لي غومس غنصالس . الذي يتهمونني به عن صواب .

لا اريد ان اكلمك عن القند عشيقي ، اشعر ببعض التعب وشعرك هذا

الاحمر يذكرني بالمهر الصغير الاحمر الذي كنت اركبه في طفولتي .

عليّ ان اجمع افكاري لكي لا يفقد التسلسل في الاحداث انها تتجمع في خاطرة مبعثرة لا رابط يجمعها . حدثتك عن زيدة وعن شانجه وما سأقوله سيورث فيك الدهشة والاستغراب .

انا ملكتك وانت تنظر اليّ باحترام واجلال انا بحاجة اليه فهو ضروري لي كي اتمكن من مواصلة سرد الاحداث انها شهادة للمستقبل .

عبث المعتمد :

فمن حكايات مجالس انسه ايام ملكه قبل ان يقلب له الدهر ظهر المجن ما رواه الفتح بن خاقان عن ذخر الدولة انه دخل عليه في دار المزينة والزهر يحسد اشراق مجلسه والدر يحكي اتساق انسه وقد رددت الطير شدوها وجودت طربها ولهوها وجددت كلفها وشجوها والغصون قد التحفت بسندسها والازهار تحيي طيب تنفسها والنسيم يلم بها فتصفعه بين اجفانها وتودعه احاديث آذارها ونيسانها ، وبين يديه فتى من فتيانه ينثني تثني القضيب ويحمل الكأس في راحة ابهى من الكف الخضيب وقد توشح وكأن الثريا وشاحه وانار فكأن الصبح من محياه . فلما ناوله الكأس خامرته سوره وتخيل ان الشمس تهديه نوره فقال المعتمد :

لله ساق مهفهـــف غنـــج	قد قام يسقي فجاء بالعجب
اهدى لنا من لطيف حكمته	في جامد الماء ذائب الــذهب

(المقرى جزء ٢/٤٨٧)

وقال المعتمد بن عباد :

مولاي اشكــو الــيك داء	اصبــح قلبـــي به قريحا
شخصك قد زادني سقمـــا	فابعث اليّ الــرضا مسيحـا

وكتب الى وزيره ابن عمار :

لما نات نأى الكرى عن خاطري	ورددتـــه لما انصرفت اليــه
طلب الــبشير بشارة يجزى لها	فوهبت قلبي واعتـذرت اليــه

وقال المعتمد في جارية كا يحبها ، بينما تسقيه اذ لمع البرق فارتاعت :

يروعهـــا البرق وفي كفهـــا	برق من القهـــوة لمّـــاع

يا ليت شعري وهي شمس الضحى كيف من الانوار ترتاع

وقال في جارية اسمها جوهرة :

سرورنا بعدكم ناقص والعيش لا صاف ولا خالص
والسعد ان طالعنا نجمه وغيث فهو الافل الناكص
سموك بالجوهر مظلومة مثلك لا يدركه غائص

وقال فيها ايضاً :

جوهرة عذبني منك تمادى الغضب
فزفرتي في صعد وعبرتي في صبب
يا كوكب الحسن الذي زرى بزهر الشهب
مسكنك القلب فلا ترضي له بالوصب

وقال في جارية اسمها وداد :

اشرب الكأس من وداد ودادك وتناسى بذكرها في انفرادك
قمر غاب عن جفونك مرآ ه وسكناه في سواد فؤادك

وقال المعتمد :

وليل بسد النهر انسا قطعته بذات سوار مثل منعطف النهر
نضت بردها من غصن بان منعم فيا حسن ما انشف الكمام عن الزهر

وكما ترى ان المعتمد كان يتغزل بالجواري والغلمان على حد سواء .

ويقول بطره لغومس غنصالس لكي يثير غضبه : «انت الغزال الذي يرغب في مغازلته المعتمد لكي يوقعك في حبه» .

ويجيبه غومس غنصالس : وانت الاسد الذي يبغى افتراسي فلم يدر في خلدي الاستقرار في غابتك .

انا هي الغابة التي يريد الاثنان التمتع بها ، انا الغزالة والارنب والاسد والنمر والافعى في نظرهما . انا هنا الآن وحيدة اخترع تاريخي ولولاهما لما كان له طعم ولا ذوق ولا معنى .

ولكن انا لا اكتب لهما بل لشعبي لكي يعرف التفاصيل والملابسات : لماذا تركوا غومس غنصالس وحده في ساحة القتال عندما احاطت به جيوش الفونسه زوجي الذي ذهب اليه غومس غنصالس ليقابله ويحدثه بشأن الزواج .

توجه غومس في تلك الليلة للاجتماع بالفونسه وانا اجتمعت بانشورش لكي يدعمني في مجلس «القورت» ، اذ ان مشيئة والدي مشيئته .

ودهش بدره انشورش من عزمي على الزواج لأنه يعتبر هذا الزواج بركة من السماء يشل ايدي الذين يطمعون في الاطاحة به والقضاء على نفوذه في البلاط ولظنه ان الفونسه سيواصل الحروب ضد المسلمين وليس عن عبث سموه «المقاتل» وانا المرأة اتحول الى ان العب الدور الذي لعبته امي ، فهذا الزواج يضمن لبدره انشورش البقاء في البلاط الذي تعود عليه وبات من الصعب التخلي عنه ومن ناحية ثانية يشل يد الاسقف جلميرز وطرابة عدويه اللدودين .

انشورش هذا وكيلي شيد الى جانب والدي الامبراطورية التي نعيش بظلها ، رجل ثقة والدي ، صبور عنيد ربط مصيره بمصير والدي عندما رافقه في منفاه الى طليطلة مدينة المأمون بن ذي النون واصبح اتبع له من ظله ، يعقد الاحلاف ويخطط للحروب ولا عجب بعد وفاة ولي نعمته ان يعتبر ذاته جديراً بتدبير المملكة التي شارك والدي في تشييدها .

انشورش رجل تخشى سطوته سليط اللسان ويده سريعة الى البطش ، هذا في اوج فتوته ولما رزحت السنون على صدره ظلت خشيته عالقة في النفوس فهو لبق في ابعاد كل من يرى فيه ازعاجاً له وعرقلة لمشاريعه .

ظن الكثيرون ان والدي العوبة في يد هذا الرجل والحقيقة ليست على هذا الشكل ، ابي يثق بانشورش لأنه وجد فيه الرجل المخلص الامين والخادم المطيع ولا خوف منه ولا مزاحمة ، بل مولى لبق صاحب مشورة ورأي ، اصاب حيث اخطأ الكثيرون وليس من السهل التخلص منه فهو يعرف الكثير من الاسرار وخفايا الامور في المملكة .

يصعب عليّ مواصلة سرد الاحداث بنظام لأن الاسماء تنهال على خاطري ولا ادري كيف اربط بعضها ببعض كما تترابط الذكريات .

امي كونستانس الفرنسية كرهت انشورش طوال حياتها كما كرهت عمتي اوراكة . كم من مرة سمعتها تردد امامي : عمتك وانشورش صيّرا والدك العوبة بين ايديهما ، عمتك اوراكة استمالت بدره انشورش بالتملق ، وبواسطته نالت جميع ما تصبو اليه من اخيها ابيك وزوجي .

عمتي اوراكة وانشورش اقنعا عمي شانجه الثاني القوي عندما نفى والدي الى طليطلة ان يرافقه انشورش ليكون قربه بين المسلمين وهما اللذان حرضا الناس في سمورة وليون على اثارة العداوة والتمرد ضد شانجه عمي الآخر لصالح والدي .

قصة جميلة : اخت تتغرض وتقف الى جانب اخ دون الآخر . كانوا ثلاثة : اوراكة ووالدي وانشورش ، اخ واخت وخادم امين يشق عليّ ترديد ما ينطوي عليه هذا المثلث ، والفضيحة التي اثيرت في ذلك الحين ، لما سمعت ، وانا طفلة ما لا يحق لي ان اسمعه . قالت لي والدتي : انت تحملين اسم عمتك .

واكمد وجهها .

لأن امي تغار من عمتي وتتخيل روابط اثيمة تربط الاخ بالاخت وانا في طفولتي لم افهمها كما قالت لي :

هي وابوك ... على هوى مقيم ، اخت تعشق اخاها ... ورددت على مسمعي اغنية تتناقلها الافواه ويغنى بها الشعراء المتجولون .

«اوراكة والفونسه على وشك الزواج
ان ذا لخطيئة مميتة .

الناس ينسون الاغاني ولكن اغنية مثل هذه لا تنسى بسهولة ، حفظناها صغاراً وترددت على افواه الصبيان وتداولها الخاص والعام ، ويرن في اذني صوت «آوْرَّاكة» ، اسمي ، انا ابنة الملك انا الحاملة اسم عمتي .

قد تكون تلك الاغنية تقصدني انا بالذات ، اوراكة وزوجي الفونسه وهو قريبي . ان زواجنا هو زنى الاقارب ، هذا على الاقل ما تذرع به اخصامي الراغبين في فسخ زواجي .

قصتي اقل تشوقاً من قصتهما واغنيتي اقل اثارة من اغنيتهما : «انها اميرة ابنة ملك احبت اخاها وحرضته على الاستيلاء على جميع الممالك» .

ما زال صوت امي كونستانس يرن في اذني : «انها المسؤولة عن جميع الاخطاء التي يرتكبها والدك انه كلب صغير يتمرغ عند قدميها» .

«اوراكة والفونسه على وشك الزواج» . نحن حفيدا شانجه النباري ، كثيرون يرغبون في كشف هذه الحقيقة وهذه القرابة . اجل كثيرون اعرف منهم المطران

جلميرز والقند طرابة والآباتي برنار ، وانشورش يعرف وانا اعرف انهم سيتقدمون من البابا طالبين لنا الحرم الكنسي .

طلب المطران برنار الصلاة عن نفس والدي قبل ان يموت . وضع هذا الاسقف برنار كل آماله في زوجي ريمون وعندما توفي هذا الزوج حرص على ان تظل مصالح رهبانيته كلوني بمعزل وبنجوة من كل خطر .

وقال لي انشورش : اذا توفقنا وخرجت الامور على مرامنا عليك بعزل المطران لست بحاجة الى الرهبان بل الى رجال يقاتلون .

وعلى هذا الامر تم الاتفاق .

انشورش يغادر البلاط ونتأخر خمسة ايام في اعلان وفاة والدي وهي كافية لعودة القند غومس غنصالس ، ثم نعلن الوفاة والحداد والتقشفات في جميع انحاء المملكة ، والبس المسوح تكفيراً عن خطاياي وخطايا ابناء رعيتي . ثم اعلن على رؤوس الاشهاد عن رغبتي بعدم ارتباطي باحد حتى تظهر مشيئة الله فيّ . وفي هذه الاثناء كانت مراسم الزواج وحفلات الاكليل تتهيأ بسرية تامة ، وفي ايلول من السنة نفسها التقيت بالفونسه في قلعة «مونيه» «MUNIO» القريبة من برغش .

اقيم مأتم حافل لوالدي كما يجب ، ملك يموت وعلى مملكته ان تودعه كما يليق به . لم يدهش احد من حزني الذي له ما يبرره . الصيف كان حاراً جداً في تلك السنة وعمّ الجفاف ، ثم جاء شهر ايلول وهبطت درجة الحرارة بسرعة ووقع الجليد فانعزلت في دير ساهاغون حيث ترقد رفاة امي وهناك ظللت بعيدة عن عيون الناس وصامة آذاني عن مطالب ليون وجليقية وقشتالة . واحترم الجميع صمتي وعزلتي وتبين لي اني لا استطيع الركون الى احد . ومكثت في دير ساهاغون حتى ١٧ ايلول يوم الاكليل فاقبل الفونسه الى قلعة مونيه حيث جرى القران سراً بدون ابهة وبحضور شاهدين لاثبات عقد الزواج .

اعددت في ذلك الصيف الحار شروطاً بموجبها يتحقق الزواج . في الدرجة الاولى : اظل انا اوراكة ملكة على قشتالة وليون وجليقية . انا ملكة في بلادي والفونسه ملك في بلاده اراغون .

غير ان ذلك المشروع تبدل في تلك الشهور الثلاثة . انا والفونسه ندبر شؤون

تلك المملكة المترامية الاطراف واذا توفي احدنا يصبح الآخر سيداً على جميع الاراضي واذا توفيت دون ان اترك عقباً من الفونسه ينتقل الملك الى ولدي الاذفونس ريموندس من زوجي الاول .

وتباطأ زوجي في التوقيع على هذا الاتفاق لأن الفكرة لم تكن قد اختمرت في رأسه .

سياسة آورَّاكَة :

لم اشته الحرب مثلما احبها والدي وبحث عنها زوجي الفونسه ولكني احتقرت المرتزق الذي يغتني بسبب الحرب ويقول انه ينفذ القانون باسم الله .

والآن مع مرور الزمن الذي يصقل الحواس ادرك ان القنبطور لم يختلف عن ابي وعني . كيف اجسر على الجهر باني لم احب الحرب وانا طيلة عشرين عاماً لم انزل عن ظهر الجواد . انا التي كافحت ضد زوجي وضد اختي وضد البورجوازية الجليقية وضد المطران جلميرز وضد «طرابة» وضد والدي ، انا لم ابحث عن المال بل سرت وراء فكرة الامبراطورية التي جرتني الى الكفاح بدون هوادة .

انا ايضاً داهنت وراوغت وخدعت لكي احصل على ما اعتبرته ملكي الشرعي ، انا لم اكتحل بالاثمد ولم اتقلد الحلى في عنقي بل لبست درع الزرد وكنت السبب في موت الكثيرين بحجة اني ادافع عن ملكي .

روبرت ان ملكتك خادعة ماكرة عن وعي وتصميم . وثق بي اولئك الرجال وانا دنست المكان المقدس ودخل جنودي الى معبده في سانتيقوب لأجبرهم على الطاعة والخضوع مع اني وعدتهم باحترام حقوقهم والدفاع عن حياتهم لأنه تخيل لي من مصلحتي التحالف من جديد مع المطران جلميرز ضدهم الذين مهدوا لي طريق الدخول الى المدينة . كذبت عليهم وقلت لهم : يجب تسليم اسلحتهم لأن الكاتدرائية هي مكان للصلاة والعبادة والاعتكاف وصدقوا كلامي .

اندفع رجالي في معبدهم الذي تحول الى فخ لأني هكذا قررت ووطأت جميع المواثيق .

ركضت كثيراً حتى اعياني الركض عندما شاع في المدينة ان رجالي دخلوا الكنيسة فاشتد غضب الجماعة وفقدوا الاحترام والهيبة لشخصي الملكي واضطررت

مع المطران جلميرز للالتجاء في برج من ابراج الكنيسة التي دخلناها خلسة ، والشعب الناقم اضرم النار في البرج فاضطررت الى الفرار منه اتدحرج على الدرج نصف عارية ، وشتموني وضربوني واهانوني ورجموني . رجمت مثل المرأة الزانية بينما المطران من البرج المضطرم بالنار متستر بزي امرأة .

وتمكنت من الفرار وهدأت الخواطر واقنعت الناس ببراءتي وحبي لشعبي . اجتمعت بابني ودخلت جنودي الى مدينة سانتيقوب لمعاقبة البورجوازيين والمتمردين واخضاعهم .

لم اتعشق الحرب ولكن تعشقت السلطان مثلما تعشقه لذريق القنبطور ولكن الفرق بيننا هو ان لذريق مرتزق وانا ملكة بالوراثة وبالتالي حقي لا جدال فيه .

الفونسه بحث عن القتال فهو لا يستطيع الحياة بدونه ، بدون ثقل السيف على جنبه دون امتطاء صهوة الجواد يرفسه بالمهماز . وبعدما انفصلنا نهائياً بالطلاق في مدينة صورية اذ لا امكانية في العيش بالخطيئة ، ازداد فيه شعوره الديني القتالي والذين هم على شاكلة كستان وبرمند احتلوا المكان الذي شغلته انا . الحرب هي الحياة في نظر الفونسه ، لم يذهب الى فلسطين لانقاذ بيت المقدس ولكنه خلق فلسطين في بلاده على صورتها وقياسها ، ففي استيلائه على سرقسطة استعمل المنجنيق والابراج المتنقلة والرعادات والمنصات على الطريقة التي استعملها الصليبيون في احتلال بيت المقدس.

انا لم اعجن ولم اخبز ولم اقشر الخضار والحمص ولم ارقع اثوابي بل اعتادت يداي على حمل السيف واطلاق السهام وقرع الطبول لايقاظ الحماسة في صدور المقاتلين . شاءت امي ان تعلمني التطريز وهي بدروها طرزت الزهور على القماش .

ملكتك لم تتضمخ بالمسك والعنبر مثلما فعلته زائدة . عطور اوراكة العرق المتصبب من جبينها وجسمها والغبار المتصاعد من وقع حوافر الخيل لو تعلمت التطريز لصرفت اوقاتي في هذه الصومعة اطرز مثل امي كونستانس بينما يلعب والدي بالشطرنج ويوسع حدود مملكته .

ترملت ثم تزوجت وطلقني زوجي . تضايق زوجي من علاقاتي مع بدره دي لارا ، وفي احد الايام لما عدنا الى اللقاء بعد الفراق طلب مني ما يطلب الرجال من

النساء ومانعت لأني في ذلك اليوم كنت مع بدره فغضب الفونسه ونعتني بالزنا والفجور .

في طرويل يسمون المرأة بغيا اذا رقدت مع خمسة رجال وزنت معهم ، كنت اعلم ذلك . وغادر الفونسه الحجرة لأنه بالحقيقة توجهت انظاره الى فتى آخر غير كستان انه رئيس كهنة في جاقة لا يكاد يبلغ السابعة عشرة من سنه اعتاد على الحياة مع الجماعة كما نصت قوانين القديس اغسطينوس اسمه غرسية دي ماغونس يبدي حماساً غريباً في مقاتلة المسلمين فنال لقب «غيّرة» «GUERRA» .

القند سيسنند «SISNANDO»

في تلك المنطقة من غربي الاندلس بقي عدد كبير من النصارى تعاهدوا مع موسى بن نصير ، وخرج من هذه الجالية المستعربة شخصية هامة جداً ، نصحت الملك فرنده باحتلال قلمرية ، هي القند سيسننده فسلمه الملك الولاية عليها .

هذا القند من الزعماء المستعربين . اسمه الكامل «سيسننده دافيديس بن داود» ، ويلقب بابي عامر . ولد في المقاطعة المسماة اليوم «بيرة» غربي قلمرية ، عاش حياة مضطربة مليئة بالمغامرات .

في السنة الاولى من ميلاده وقعت غارة موفقة على البرتغال القديمة من قبل ابي القاسم محمد بن اسماعيل القاضي (١٠٢٣ــ١٠٤٢) مؤسس مملكة بني عباد في اشبيلية . وقعت بينه وبين المنصور بن الافطس صاحب بطليوس خصومة بسبب الاستيلاء على مدينة «باجة» البرتغالية بعد ان وقع الخلاف بين اهلها على الرئاسة فبعث ابن عباد لقتال ابن الافطس ولده اسماعيل ، واشترك معه البرزالي البربري صاحب قرمونة فاستولوا على باجة . وعادت الحرب واضطرمت بعد اربعة اعوام ، وابن الافطس بربري يعتمد ايضاً على فريق من البربر .

سارت قوات اشبيلية بقيادة اسماعيل بن عباد شمالاً الى اراضي ابن الافطس وتوغلت فيها . وفي عودته فاجأته قوات ابن الافطس ومزقت عسكره ففر مع فلوله الى مدينة اشبونة وامتنع بها واحتل قلعتين في «الفوانس» «ALAFOENES» شمالي «بازو» «VISEU» يسكنها المستعربون الذين يزعمون انهم يتحدرون من «جبلة بن الايهم» بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة ، والحارث بن ابي شمر .

وهذان ملكان من ملوك الغساسنة ، فاقتاد منهم الى اشبيلية ثلاثمائة فتى لكي يقوّي بهم جيشه الناشىء لأجل الدفاع عن مملكته ، وسيستند بينهم . وكان هذا في عام ١٠٢٥ .

اعتنى ابو القاسم محمد بتربية هؤلاء النصارى مثلما كانوا بنو امية في قرطبة يعتنون بالصقالبة ، والتاريخ يعيد ذاته ولكن في السابق كان في قرطبة واليوم في اشبيلية ، فسلمهم قيادة الجيش والمراكز الحساسة .

انها صورة حقيقية عن سابق تصميم في الاقتداء بالخلفاء الامويين في قرطبة من حيث اعداد الرجال الاكفاء يوثق بهم لدعم هذه المملكة الصغيرة مملكة بني عباد ، انها عادة العصر ، سار عليها الخلف والسلف .

وكما قلنا يزعم هؤلاء النصارى انهم ينتسبون الى اعرق ملوك النصارى في الشام : بني غسان ، وبنو عباد الذين حكموا يسيطرون في اشبيلية يتحدرون بدورهم من المناذرة في العراق وقد اسسوا الحيرة على ضفاف الفرات . فاولئك في الشام وهؤلاء في العراق اجتمعوا في اشبيلية في مملكة بني عباد احدى دول الطوائف التي اسسها اسماعيل بن عباد . ويقول لنا لسان الدين بن الخطيب :

«وكان من تدبير اسماعيل بن عباد لما ضاق ذرعاً بمزاحمة بني حمود الفاطميين من كل جهة وهم في الناس النداء المسموع والحق المعلوم ، ان دعا الى تجديد بيعة هشام المؤيد بن الحكم المستنصر «وصبح» البَشْكُنْسِيّة المشكوك في موته ، المدعي كثير من الناس انه فر لوجهه وزعم انه عثر عليه سائحاً في الارض» .

ويقول ابن القطان : ان هشاماً فرّ من الفتنة ورفض الملك وكتم امره واستقر في قرية من قرى اشبيلية يؤذن في مسجدها ويعمره ويتقوت من العمل في الخفاء فخرج اليه القاضي محمد بن اسماعيل هذا وولده وجميع خاصته وعبيده ومعه اثواب الخلفاء وملابسهم وزيهم ومراكبهم ، ولم يشعر الرجل وهو خارج المسجد من القرية يعمل بيده في حلفاء اذا بالقوم قد غشوه واحاطوا به . وترجل القاضي وابنه ومن معهما وقبّلوا الارض بين يديه . فبهت الرجل لما عاين وجعل يقول : لست بالذي تعنون ولا بالذي تطلبون . وهم لا يردون عليه شيئاً سوى التضرع والرغبة الى ان اقاموه من مكانه وجردوه من حلفائه والبسوه الكسوة الخلافية ، ووضعوا القلانس على رأسه واركبوه ومشى القاضي وجميع من معه امامه .

وكان الرجل اشبه الناس بهشام ، ودخلوا به المدينة وصائح ينادي : «يا اهل اشبيلية ، اشكروا الله على ما انعم به عليكم ، فهذا مولاكم قد صرف الله الخلافة من قرطبة الى بلدكم» .

واستقر بالقصبة وحاجبه اسماعيل شأن المنصور مع هشام المؤيد بقرطبة (راجع كتابي صبح البشكنسية) وخاطب الناس بكل جهة في شأنه فوجّه الكثير منهم رسله وثقاته ليقفوا على حقيقة امره ، فادخلهم ابن عباد على الرجل وهو في بيت مظلم وذكر لهم انه يشكو مرض عينيه . كلموه وكلمهم غير انهم لم يثبتوا صفته فمنهم المقر والمنكر .

فهذا الرجل الذي مثّل دور هشام المؤيد بن الحكم المستنصر وجاريته صبح البشكنسية له تحت نظره احفاد ملوك الشام الغساسنة وملوك الحيرة المناذرة .

فتدرب سيسنند ورفاقه الاسرى المجلوبون من البرتغال على الحرب وادارة شؤون الدولة ، وهذا ما سهّل لسيسنند تبوء المراكز العالية والتدرج في الوظيفة فتميز بذكائه واصالته وشجاعته فبلغ على عهد المعتضد بن عباد (١٠٦٩ــ١٠٤٢) رتبة قائد في الجيش الى جانب وظيفة مستشار حتى اصبح من ابرز الشخصيات في اشبيلية . وقد يكون ذلك متاتياً من نصائحه وارشاداته السياسية للمعتضد محرضاً اياه على البربر ولا سيما بعد سنة ١٠٥٠ . ونراه نشيطاً في حروبه ضد النصارى لكي يسد افواه حساده الذين حاكوا المؤامرات ضده لعلو مكانته في القصر فرجال البلاط لا ينفكون عن اظهار العداء نحوه وسعايتهم به ، ولا شك انه خشيء سوء العاقبة من اشتداد جو هذه الوشايات وشعر بخطرها عليه ، فإذا به يغادر اشبيلية خلسة وينتقل الى الاراضي النصرانية في الشمال .

وصل الى بلاط الملك فرنده الاول ، شاء محو ذكريات الحروب التي خاضها ضد النصارى نصح الملك بمحاصرة قلمرية التابعة لمملكة بطليوس الاسلامية ، وهي اعظم مدينة في شمالي البرتغال ، افتتحها المنصور بن ابي عامر سنة ٩٨٥/٣٧٥ . وكانت يومئذ تحت حكم مولى من موالي ابن الافطس يدعى «راندة» ولديه للدفاع عن المدينة خمسة آلاف رجل .

سار الامبراطور فرنده بنفسه الى قلمرية بقوات كثيفة وضرب حولها الحصار الذي استمر زهاء ستة اشهر والضيق يشتد بالمدينة المحصورة يوماً بعد يوم . وفي

النهاية تفاهم راندة مع فرنده سراً على ان يخرج من المدينة آمناً على نفسه وآله ، فاعطاه الأمان وخرج سراً الى عسكر النصارى . واصبح اهل المدينة وقد اخذوا الأهبة للقتال . فقال لهم النصارى كيف تقاتلوننا واميركم عندنا ؟ ولم يعلم اهل المدينة بذلك فلما لم يجدوه عرضوا التسليم على ان يمنحوا الأمان ، فرفض القشتالي واستمر بالحصار حتى فتك الضيق ونفدت الاقوات عند الحامية واهل المدينة فاقتحمها عنوة فسلمت الحامية واخذ الجنود اسرى وسبيت المدينة وخرج من السكان من استطاع تاركين متاعهم واموالهم .

وقعت هذه الحادثة بالمسلمين سنة ١٠٦٤/٤٥٦ ... وانصرف راندة غلام ابن الافطس الى مولاه فوبخه على فعله الذميم ثم امر بضرب عنقه .

عيّن الملك فِرنَانْدُه مستشاره سيسنند حاكماً على قلمرية واعمالها ومنحه لقب «قند» (كونت) . لم يعتد الملك فرنده الأول على مملكة ابن عباد سوى مرة واحدة فرضي الاشبيلي بدفع الجزية ، وطلب الملك القشتالي من مستشاره سيسنند ان يطالب بجثمان القديسة «يوستة» لكي ينقل من الاراضي الاسلامية الى الاراضي النصرانية في ليون .

ويقول المطران لذريق في كتابه عن «ملوك اسبانية» باللاتينية انه لما طال الحصار على قلمرية ونفد الزاد عند الجيش النصراني وعوّل الملك على فك الحصار والعودة الى بلاده ، بادر رهبان دير «لربان» العريق في القدم وامدوهم بما يحتاجونه من زاد واقوات ، وفوجىء النصارى بهذه المساعدة لهم فاستأنفوا الحصار واحتلوا المدينة عنوة واخذوا منها خمسة آلاف اسير واضطر الباقون الى مغادرة المدينة تاركين فيها متاعهم .

وضمن احتلال قلمرية للقند سيسنند تدعيم موقفه في البلاط القشتالي وامتدت سيطرته على جميع تلك الاراضي التي انتزعت فيما بعد من العرب من نهر دويره حتى نهر منديجو ، باسم وزير قلمرية فصار يدعى هكذا «انا سيسنند قنصل قلمرية بنعمة الله» .

وعلى هذا النحو اصبحت كلمة «وزير» بالعربية تقابلها كلمة «قنصل» باللاتينية .

تصرفاته في المنطقة لا تتطلب منه جهوداً كبيرة ولا انتباهاً خاصاً ولا وقتاً

طويلاً . يلاحق تنقلات البلاط المتواصلة ، يشترك في الحملات العسكرية ، ينهض باعباء مهمات تدعوه للابتعاد عن ولايته ، فنشاطه متعدد الوجوه ومقدرته تخوله القيام باعمال مختلفة ، ولا عجب في ذلك فقد تلقن في بلاط بني عباد باشبيلية تربية بالغة العناية خولته ابراز مواهبه الشخصية وعبقريته الفذة .

بعد مرور بضعة اشهر على احتلال قلمرية نجده في مدينة سانتيقوب مع الملك فرنده وفي شهر آب من السنة نفسها (١٠٦٤) تعرف على «بطرنه» اسقف طرطوشة المستعرب ، يحمل كتاباً من المقتدر بن هود ملك سرقسطة ، فيعرض عليه سيسنند كرسي ابرشية قلمرية فيرفضها . ونلاحظ هنا كيف ان الذي يقترح كرسي الابرشية ليس الملك بل الوالي الذي يتجاسر ويتقدم بالعرض بحضور الملك ، وهذا يدلنا على الاستقلال الذي وصل اليه في تدبير المنطقة الموضوعة تحت ولايته ، وعلى الدالة التي له على الملك فرنده الاول ثم على ابنه الفونسه السادس اذ وصل الى نفوذ لم يسبقه اليه احد فهو يتصرف بحرية تامة واستقلال كامل ويوكل اليه جليل الامور فيصرفها بلباقة وذكاء . انه يفاجئنا بين فترة وفترة بمشروع جديد .

في سنة ١٠٧٥ عثرنا عليه في «اوفييده» التي قصدها الملك الفونسه السادس مع خاصته لكي يفتح التابوت المقدس الذي يضم رفات القديسين ومن جملة الحاضرين القند سيسنند . وكان لا بد من النظر في دعوى تتعلق بملكية دير المخلص في «طول» ودعوى اخرى بشأن استملاك عقارات امراء «لنغريه» «LANGREO» .

فعينه الملك قاضياً ليحكم في الدعوتين لتضلعه من القوانين القوطية التي عاش بظلها ثم فارقها سنين عديدة وتعلم شرائع اخرى مختلفة عنها وهي الشرائع الاسلامية التي فقه بها في بلاط بني عباد .

وتوارى القند عن العيان طيلة عشر سنوات اي من ١٠٧٦ ، ونشاهده في سرقسطة حوالي سنة ١٠٨٠ في مهمة دبلوماسية سفيراً في بلاط «المقتدر بن هود» .

نعرف ايضاً انه في سنة ١٠٨٨ ارسل سفيراً الى بلاط المقتدر بن هود بشأن الجزية وما شاكلها . وذلك بعد وفاة شانجه ملك نبارة ، روى لنا كيف انه في سرقسطة التقى للمرة الثانية بمطران طرطوشة المستعرب وعرض عليه من جديد كرسي مطرانية قلمرية البرتغالية . وفي اواخر سنة ١٠٨٠ كان «بطرنه» بالفعل اسقفاً على المدينة البرتغالية المستخلصة من ايدي العرب .

وفي هذه السنة نفسها نعرف عنه انه توجه ببعثة الى غرناطة على عهد الملك عبد الله بن بلقين وهذا الملك يقول في مذكراته : ان صنهاجة حين رأت تفكك الدولة واستقلال كل امير ببلده اعتزموا الرحيل عن الاندلس ، ولكن اهل البيرة لجأوا الى زاوى بن زيري بن مناد الصنهاجي ودعوه وقومه الى الاقامة بارضهم ومشاركتهم في خيراتهم ونعمائهم والدفاع عنهم .

قبل زيري وقومه دعوتهم واستبشروا بالنزول في تلك الاراضي المتسعة الرقعة المخصبة النامية وطابت لهم ربوعها واجمعوا على الدفاع عنها . وبعد ان نزلوا بارض البيرة وجدوا انها بموقعها الجغرافي لا تصلح للدفاع ، واتفق رأيهم على ان يبتنوا في الوسيط الواقع على مقربة منها مدينة جديدة ينزلون بها وتكون معقلهم فشرعوا في بنيانها . فقامت مدينة غرناطة على هذا النحو وقيامها نذير بخراب البيرة فعفت منازلها بسرعة واسبل عليها النسيان ذيله واخذت غرناطة تنمو بسرعة وتحتل مكانها .

وجرت بينهم وبين بني عباد في اشبيلية خصومات ومعارك في مالقة بعد ان تملكها باديس صاحب غرناطة وهاجمها المعتضد وارسل ولديه جابراً ومحمداً الظافر (المعتمد) فانهزما امام باديس . وخاطب المعتمد اباه عباداً بقصيدة يستعطفه ويسليه على مصابه في هزميته ، فمنها :

«سكّن فؤادك لا تذهب به الفكر ... ماذا يعيد عليك البث والحذر
فان يكن قدر قد عاق عن وطر ... فلا مرد لما يأتي به القدر
وان تكن خيبة في الدهر واحدة ... فكم غزوت ومن اشياعك الظفر
ان كنتّ في حيرة عن جرم مجترم ... فان عذرك في ظلمائها قمر
يا ضيغماً يقتل الفرسان مفترساً ... لا توهنني فاني الناب والظفر
قد اخلقتني صروف انت تعلمها ... وعاد مورد امالي بها كدر
وخلت لونا وما بالجسم من سقم ... وشبت رأساً ولم يبلغني الكبر
لم يأت عبدك ذنباً يستحق به ... عتباً وها هو قد وافاك يعتذر
ما الذنب الا على قوم ذوي دغل ... وفى لهم عهدك المعهود اذ غدروا
لم اوت من زمني شيئاً الذ به ... فلست اعرف لا كأس ولا وتر
رضاك راحة نفسي لا فجعت به ... فهو العتاد الذي للدهر يدّخر
ولا تملكني ذل ولا خفر ... ولا سبى جلدي غنج ولا حور

وهو المدام الذي اسلو بها فاذا عدمتها عبثت في قلبي الفكر

ويقال فلما بلغت الى والديهما عفا عنهما واستدعاهما الى حضرته وايس من ملك مالقة كما يقول البيان المغرب جزء ٣ ص ٢٧٤ــ٢٧٥ .

ولما توفي باديس بعد حكم دام سبعاً وثلاثين سنة واتفق رجال الدولة وشيوخ صنهاجة على تولية حفيده عبد الله بن بلقين مكانه وكان صبياً حدثاً وكان اخوه يتولى حكم مالقة منذ ايام جده .

وكان المعتمد يرقب سير الحوادث في غرناطة ادرك ان الفرصة سانحة لتوسيع رقعة ملكه على حساب مملكة غرناطة فاستولى على جيان سنة ١٠٧٤ ثم سار الى غرناطة في قوات كبيرة وابتنى الحصون على مقربة منها .

ورأى الامير عبد الله بتوجيه وزيره سماجة ان يعقد مع الفونسه السادس ملك قشتالة على نسق معظم ملوك الطوائف ، معاهدة صداقة يتعهد فيها بتأدية جزية قدرها عشرون الف دينار وعلى اثر ذلك سار عبد الله مع قوات صنهاجة ومعهما سرية من جند النصارى امده بها الفونسه السادس واغار على اراضي اشبيلية واستطاع ان يسترد حصن قبرة الواقع في جنوبي غربي جيان .

وفي العام التالي سار الفونسه الى اشبيلية وغرناطة ومعه وزيره ومستشاره النصراني المستعرب سيسنند ليطالب باداء الجزية المفروضة ويقول لنا الأمير عبد الله في مذكراته انه ابى ان يدفع تلك الجزية وانه لم يخش يومئذ ضرراً من الفونسه .

هذه المذكرات كتبها عبد الله في منفاه بعد ان خلعه امير المسلمين يوسف بن تاشفين وارسله الى افريقية يقول الامير عبد الله :

لما تيقن الفونس من الفتن القائمة بين ملوك الطوائف علم ان ذلك من اكبر سعادته واعظم فرصة في طلب الاموال ، فارسل الينا رسوله اول مداخلة نشأت بيننا وبينه فأتى باطر شولش يطلب منا ضريبته فابينا عليه وان ضرر الفونس لا يخشى واجتمع رأينا على ان لا نفعل وان ضرر الفونس لا يخشى فليس من احد يعاقده على مسلم فانصرف عنا بلا عمل وان ابن عمار وزير المعتمد بن عباد انتهز هذه الفرصة وكان منتظراً لها «بباغة» مترقباً لما يصنع معنا ، فلما رأى انه لم يتم له عمل القى يده فيه على المقام (اي في الحال) ، وقال له : ان كان منعتم عشرين الف دينار (وهي التي

سأل عن ضريبته) فنحن نعطيكم خمسين الفاً على ان نعاقدكم على غرناطة ، تعطونا القاعدة ولكم ما فيها من الاموال .

فعاقدوه على ذلك واتفق رأيهم على ان يبنوا على غرناطة معقلاً عليها حتى تلقي بيدها . وكان «ابن اضحى» قبل هذا وهو المخرّج على يد «النابة» قد انحاش اليهم يدلهم على عورات البلدة ويريهم اشد ما يكون عليها من المواضع ان بني فاراهم حصن بليش . واكرى «ابن عمار» من عسكر الفونس ما قوى به البنيان وجعل المعتمد يماطل ويخادع حتى تمّ البنيان فقواه واتخذ فيه جميع الاقوات وامرهم بالتضييق وكانت الحال شديدة ونسي بها امر القلعة .

وعند انصراف المعتمد عنه وعساكر الروم عبّينا عسكراً كبيراً ونهضنا اليه فلم نقدر فيه على شيء وانقطع رجاء الناس من دولتنا لاجماع المطالبين عليها مع الرومي وندمنا على التفريط اولاً في معاقدته حسب ما سأل . وكان من احسن شيء على السلاطين اخذ معقل بالسيف فانه متى اعترض لم يستطع على دخوله لمنعته ولا على حصاره حتى ينفد ما فيه لقوة تأتيه فيقلع عنه الا من كان اقوى ولم نكن نحن الا متكافئين في ذلك . فكانت بليش قد افسدت وضيقت على فحص غرناطة ولم يَكْفِ ما حلّ من اجلها حتى جَعَلَنا الفونس ان نغرم ما فاته منا لرفضنا اياه واستدفاعاً لما يتقي من تماديه على الطلب . وابن ذي النون في هذا يتوسط له في الامر ويسعى في تصيير المال اليه يرضيه بذلك وينتظر فساد مملكتنا فيفترصها هو او يأخذ منها حصته ، فكان على ما قدمنا ذكره عدواً في الباطن وصديقاً في الظاهر وهو مع ذلك لا يزال يداخل قرطبة ويسعى جهده فيها الى ان قدّر الله وافترصها غدراً بمداخلة بعض اهلها ممن لا خطر له واستشهد فيها ابنه عباد وقائده ابن مرتين . فلما انقضت لقرطبة هذه الدائرة وسمع بالخبر اهل بليش اخلوها على المقام (في الحال) ودخلها رجالنا وصارت في ملكنا مشيدة مبينة فنظرنا منها كالذي نصنعه بقصبة غرناطة وتروّح مخنقها من حيث لم يحتسب .

وكان قائد مدينة بسطة «ابن ملحان» رجلاً معجباً قد شرهت نفسه الى رتب الملوك وكان المظفر رحمه الله قد فوّض اليه امر البلدة عوضاً عن ابيه . فلما صارت لنا الدولة وكثر فيها آراء الوزراء جعل كل واحد منهم يطالبه بمال ويسأله متاحفات فمن لم يعطه طالبه واذاه مع صغر سننا فلم يجد سبيلاً الى الدفاع عن نفسه ولا شكوى لمن

يذب عنه ويحميه فترامى على ابن صمادح وقبله وصارت البلدة اليه . وعلم انه لا يقاتل طول مدة الفتنة مع ابن عباد . ثم انه غدر حصن شليش ونحن في ذلك كله لا نفتر عن مجازاته بالاضرار ببلده وصار الينا مع حصن «شنت افلج» من معاقله ما وقعت المعارضة به من شليش وصالحناه مهادنة وانجراراً للحال حتى نرى ما نصنعه مع ابن عباد .

وبقي ابن عمار مرتهناً بما جعل على نفسه للنصراني من كراء بليش في تبعات كثيرة وجرايات جسيمة يقطعها له ويعده بها وادخل المعتمد في تشغيل لأنه كان لا يريد ان يجعله يخلد الى الراحة لكي يحتاج اليه في تلك الفتنة ، فلا يكف عن ادخال ضرر الى المسلمين ومتى ما كان المعتمد يسعى في تهدين الأمر ونروم معه الصلح او تنشأ مهادنة لا ينام النصراني حتى ينقضها ويشعل نار الفتنة .

عاد ثانية الى النصراني الفونس وزين له امر غرناطة وصورنا عنده في صورة من لا يقدر على شيء من اجل الضعف وسن الصبا وانه ضامن له اموال غرناطة لتصير اليه بأسرها على ان يعاقده اذا تمكن من البلدة ان يجعلها ملكه وما لقي من اموالنا .

والقى يده في يد الفونس عازماً عليه في الاقبال اليها واعطى على ذلك اموالاً جسيمة ووعده بخمسين الف مثقال اذا تمت القضية ، فادرك الرومّيَ من ذلك طمعٌ كثير وقال : «هذه نصبة لا اخلو فيها من فائدة وان لم تحصل البلدة واي فائدة لي في اعطاء بلدة من واحد لآخر الا تقويته على نفسي وكلما كثر الثوار ووقع بينهم التنافس كان لي فائدة ، فنيته اخذ مال الفريقين وتكسير رؤوس بعضهم ببعض ولا كان في امله ان يأخذ البلاد لنفسه فانه عمل في ذلك حساباً ان قال : انا من غير الملة وكل الناس ينشأني فبأي وجه اطمع في اخذها ؟ ان كان من باب الطاعة فامر لا يمكن وان كان من وجه القتال فيهلك فيها رجالي وتذهب اموالي وتكون الخسارة عليّ اكثر مما نرجوه ان صارت اليّ ، وان صارت اليّ ليس من الممكن ان نستبيح اهلها ونعمرها باهل امتي ، ولكن الرأي كل الرأي تهديد بعضهم ببعض واخذ اموالهم حتى ترق وتضعف ثم هي تلقي بيدها اذا ضعفت وتأتي عفواً كالذي جرى بطليطلة ، انما كان من فقر اهلها وتشتتهم مع ادبار سلطانها وصارت اليّ بلا مشقة .

وكنا نعلم هذا من مذهبه على ما كان يخبر به وزراءه ولقد قال ذلك

«ششنند» في حال هذه السفرة وشافهنا بذلك وقال : «انما كانت الاندلس للروم في اول الامر حتى غلبهم العرب والحقوهم بانحس البقع «جليقية» فهم الآن عند التمكن طامعين باخذ ظلامتهم ولا يصح ذلك الا بضعف الحال والمطاولة حتى اذا لم يبق مال ولا رجال اخذناها بلا كلف . فكان الجميع يساير الامور ويدافع الايام ويقول : من هنا الى ان تتم الاموال وتهلك الرعايا بزعمهم يأتي الله بالفرج وينصر المسلمين . فورد علينا من اقبال الفونس مع ابن عمار هول عظيم وصحّ عندنا انه لم يأت الا طالباً لملكنا قد استوثق من الفونس .

ثم ارسل الينا ينذرنا باقباله ويأمرنا بالخروج اليه ، يرى انه يريد تجديد العهد والاجتماع بنا على ما يفعله مع السلاطين ، فاجتمع الينا اهل الرأي والمشورة وقالوا : ما الذي نذهب اليه ؟ وهذا عدو قد جاء لطلبك ولا قدرة لك على مناوئته وسواء عليك خرجت ام بقيت ، فان انت بقيت حلت بك الداهية العظمى وتكون هذه اشد من الاولى وقت رفضنا «بطرة شولش» والقى ابن عمار يده فيه حتى بنى علينا بليش والآن لم يتروح مخنقنا حتى نعود الى ما هو ادهى وامرّ . فالخروج اليه ايسر الامرين : فان كانت سلامة شكرت رأيك وثبت ملكك ، وان كانت الأخرى كان خروجك على امان وصرت حيّزاً في العافية فاعزم على لقاه ، وقل له قولاً ليناً والله ينفذ قضاءه .

استعددنا لذلك جهدنا وجمعنا حوالينا من نثق به من رجالنا واخذنا اهبة ولقيناه على مقربة من المدينة وبالغنا بالضرورة في اكرامه فعرض علينا وجهاً بسيطاً وخلقاً حسناً ووعدنا انه يحامي عنا كما يحامي عن بلده .

ثم وقعت المعاملة ومشت الرسل منا اليه ومنه الينا يبين ما عوقد عليه وانه سيق سوقاً ويقول : «اني قد نشبت في الأمر ولم نعجل حتى نسمع ما عندكم فان جاملتموني ورأيتم لقصدي وجهاً انصرفت عنكم على خير والا فها انا معي من عاقدني» .

وطلب خمسين الف مثقال فشكونا اليه قلة البلاد وان ذلك لا يقدر عليه ويفترصنا به ابن عباد فلو اخذ غرناطة قوي عنصره وتمرد عليك فخذ ما نقدر عليه واترك رمقاً وما تركت تجده عندنا متى ما طلبت .

فقبل العذر بعد جهد عظيم وقاطعناه لقصده بخمسة وعشرين الفاً ، نصف

العدد ، ثم اعددنا له من الفرش والثياب الفاخرة والآنية الكثيرة استدفاعاً لشره وجمعنا ذلك كله في خباء كبير ودعوناه اليه .

ولما رأى الثياب استحقرها ، ووقع الاتفاق معه على زيادة خمسة آلاف مثقال لتتم بها ثلاثون الفاً فاكملناها له فشكر على ذلك كله وطابت عليه نفسه ورجع على ابن عمار يقول له :

«كذبت لي في قولك ان غرناطة في ضعف وان صاحبها من صغر سنه لا يعقل ورأيت من رتبتها واحوالها ما خالف قولك» .

فرجع ابن عمار يستميله على اخذ «بسطة» من عندنا . وكان معقلاً عظيماً مما يلي جهات اشبيلية اخذه قائدنا «كبّاب» في الفتنة فوقع الاتفاق على ان تكون قلعة «اسطلير» عوضاً من «اسطبة» .

وكانت «قشتره» و «مرتش» المعقلين اللذين هما على جيان ولم يكن لجيان معنى الا بهما ، فترامى ابن عمار في امرهما على الفونس ووعده على مرتش انه يشتريهما باموال فعزم علينا فيها للطمع في المال ووعدنا نحن على «قاشتره» «بالمطمر» (كان ايضاً حصناً) فضمن انه يعطيه إيّانا عوضاً منها فدافعنا الأمر جهدنا فلم نقدر على اكثر . فعل القوي مع الضعيف .

ثم انه عقد العقد بين يديه على ذلك وان لا يتعدى منا احد على صاحبه ، وذكر فيه ما نعطي كل عام من الضريبة فجعل علينا عشرة آلاف مثقال في العام وطيّب الكلام بأن قال : طمع ابن عمار ان نغدر بك ومعاذ الله من ذلك ان يشيع في الدنيا ان مثلي كبير الروم يقصدك وانت كبير في جنسك ثم نغدر بك فابق على امان لا اكلفك الا الضريبة توجّه اليّ بها في كل عام دون مطل وان تأخرت بها اتاك رسولي عنها وتلزمك عليه نفقات فبادر بها .

فقبلنا قوله ورأينا اعطاء عشرة آلاف في العام ندفع بها مضرته خيراً من هلاك المسلمين وفساد البلاد اذ لم تكن بنا قدرة على ملاقاته ومكابرته ولا وجدنا من سلاطين الاندلس عوناً عليه الا من يسوقه الينا لهلاكنا . فبقيت الامور على مصالحة ومهادنة ورفاهية لا يسمع فيها بفتنة .

ومما هيأه الله ان فقدنا وسائط السوء بعد ذلك بفقد ابن عمار وشغله في

مرسية وبزوال «سماجة» عنا واشياعه وتوفي قبل ذلك ابن ذي النون عند بلوغه آماله بقرطبة . وكانت الاندلس قد ارتجت له وخافه الرؤساء فلم يلبث بها الا يسيراً حتى مات وكذلك الاشياء اذا تمت . وكان اهل العلم يخبرون بذلك انه اذا حصل على قرطبة فقد تمت ايامه . ثم خلع من بعده حفيده وقام عليه اهل بلده ولجأ الى الفونس فصرفه الى طليطلة وجعل عليه اموالاً جسيمة اشدها ارغامه على شراء حصن من الفونس على مقربة من طليطلة بمائة وخمسين الف مثقال طيبة وخمسمائة مد من طعام ضيافة كل ليلة مقامه عليه ، اخذها من اهل بلده حتى ضعفوا ولازمها الفونس حتى صارت اليه وعوّض صاحبها ببلنسية .

ولعل تدبير سقوط طليطلة سنة ١٠٨٥ كان من القند سيسنند فهو لولب حركة الاستيلاء على المدينة لكي تستسلم بشرف بعد حصار طويل ، فعمل الفونسه بالنصيحة وحاصر طليطلة ونصب خيامه عند اسوار المدينة في حدائق الملك ثقة منه ان المدينة ستسقط بين يديه آجلاً او عاجلاً . وفي الوقت نفسه قام بحملة ضد سرقسطة وكان في ذلك الاثناء السيد الكمبطور موجوداً في المدينة لمساعدة المؤتمن بن هود ضد اعدائه ولكن لم يشأ السيد مقاتلة مليكه الفونسه ، وكما نرى ان الملك القشتالي امبراطور الملتين هاجم مدينتين عربيتين في الوقت ذاته «سرقسطة» و «طليطلة» وانضم اليه بعض رجال السيِّد مثل «البارفانيس» و «بطره برمند» وقرر انهاء قضية طليطلة فقصد محلته «حديقة الملك» وما طال ان استسلمت طليطلة بشروط الامان على الارواح والارزاق والاحتفاظ بالجامع الاكبر واقام حاكماً عليها المستعرب سيسنند دافيديس قند قلمرية .

وفي هذه المدة كان القادر راسباً في يأسه ولكنه واثق من ان الامبراطور لا يخونه وانه يفي بوعده تجاهه بان يجعله ملكاً على بلنسية ، فقصد قلعة قونكة ووجه من هناك خديمه ابن الفرج لكي يجس النبض فيما اذا كان يقبل ملكاً على المدينة . وساعدته في مهمته وفاة ابن عبد العزيز ملك بلنسية وانقسم الشعب قسمين قسم يريد الخضوع لملك سرقسطة «المؤتمن» والقسم الآخر يؤدي الطاعة لحفيد المأمون «يحيى القادر» .

وفي السنة نفسها توفي «المؤتمن» ملك سرقسطة .

وكان لسقوط طليطلة تأثير عسكري وسياسي من الدرجة الاولى وخلق في

نفوس ملوك الطوائف شعوراً مريراً بقطع الرجاء وفي الوقت نفسه بعث فيهم ردة فعل تجلت بالطعن المر ضد الملك الذي سلّم المدينة .

هذا عند المسلمين ، والانطباع عند النصارى لم يكن اقل وقعاً فقد وجدوا الامبراطور قادراً على طرد المسلمين جميعاً من كل اسبانية فبسقوط طليطلة ازدادت رقعة المملكة النصرانية اذ استولى معها على «مدريد» و «وادي الحجارة» و «طلبيرة» وكل الاراضي الواقعة شمال نهر التاجه .

لم تنفذ الشروط التي بموجبها سلم المسلمون مدينتهم . الفونسه ينوي الحفاظ على تعهداته ولا يريد ان ينسى تصرف المأمون حياله لما كان في المنفى عنده فلذلك سلّم المدينة الى المستعرب سيسنند دافيديس الذي اعتاد على الحياة مع المسلمين وهو قادر ان ينهج سياسة تسامح فتقيد القند المستعرب بشروط الميثاق ولهذه السياسة اثرها الحسن في نفوس المسلمين فاعتنق بعضهم الديانة المسيحية .

ولكن اذا كان الاسبان قد اعتادوا على الحياة مع المسلمين وعاداتهم لم يجر الامر على هذا الشكل مع الفرنسيين الذين عجَّ بهم بلاط الفونسه السادس لأن امرأته الفرنسية جاءت بهم الى اسبانيا فقد هالهم ما عاينوه من ان المسلمين ما زالوا ينعمون بجامعهم الاكبر ويقدمون صلواتهم فيه بينما بقية الكنائس قديمة البنيان وضيقة ليس من مبنى واحد يصلح لتحويله الى كاتدرائية .

وكان قد انتخب برنار رئيساً لاساقفة طليطلة فاقنعته الملكة بالاستيلاء على المسجد الجامع وتحويله الى كاتدرائية فعارض سيسنند ولكن عبثاً ، واغتنمت الملكة والمطران برنار الفرنسي من رهبان جمعية كلوني التي قدمت الى اسبانيا لاصلاح الكنيسة المستعربة وابدالها بالكنيسة الرومانية على الطقس اللاتيني بدل الطقس المستعرب ، فرصة تغيب الملك الفونسه السادس عن المدينة فهجم برنار مع جماعة من الفرسان على المسجد وطردوا المسلمين منه وتم تحويله الى كاتدرائية .

سقوط طليطلة :

ولنصف سقوط طليطلة كما تذكرها المصادر العربية :

قام بالامر بعد اسماعيل بن ذي النون حفيده يحيى ولقب بالقادر . وكان ضعيف المنة قليل المعرفة ربي في احجار النساء والدايات ونشأ بين الخصيان والغانيات

فملك امره العبيد وحكم عليه كل خصي ومولود . كل يدبر ملكه على ارادته وينفرد بوزارته فطمع في بلاده الرؤساء واحتقره القرناء والغرباء . فاول من استهدف لمطالبته ابن عباد لما كان بينه وبين جده المأمون من العداوة والبغضاء فحصل له قرطبة وسائر اعماله «كطلبيرة» و«غافق» وما بينهما . وجعل صاحب سرقسطة ابن هود اي محمد بن سليمان المقتدر بالله المتوفي سنة ١٠٨١/٤٧٤ يطالبه اشد مطالبة ويحاربه انكى محاربة . واستعان عليه بالطاغية ابن ردمير الفونسه المقتل ملك اراغون فاخذ له شقبرية «سانتفير» وكانت تقع شمال شرقي طليطلة بالقرب من منابع نهر «التاجه» و «مولينة» وهو حصن شمالي شرقي طليطلة يعرف «بمولينا دي اراغون» «MOLINA DE ARAGON» فضعف الحفيد في الدفاع عن نفسه لما عنده من قلة التدبير واستنصر بالفونس وكانت بلنسية لجده المأمون بن ذي النون وكان هذا قد استولى عليها من يد اميرها زوج ابنته عبد الملك المظفر بن عبد العزيز العامري حفيد المنصور ابن ابي عامر بحجة انه يسيء معاملة ابنته وبذلك ضمت بلنسية الى مملكة طليطلة في سنة ١٠٦٥ .

وكان له فيها قائد يسمى «ابا بكر بن عبد العزيز» فداخله ابن هود حتى قام على القادر واستبد بنفسه دون امره فخطب اليه ابن هود اذ ذاك ابنته طمعاً منه ان يمتلك بلنسية فملكه اياها وزفها اليه .

وقامت بطليطلة في احدى الليالي فتنة وضجة للعامة منكرة مات فيها الفقيه «ابو بكر بن الحديدي» وجماعة من امثاله وانتهبت دار الاعيان فكتب القادر الى الفونس يعلمه بما جرى ويرغب ان يوجه اليه عسكراً فراجعه ان وجّه اليّ مالاً اذا كنت تريد الدفاع عن انحائك والا سلمتك لاعدائك . وكان اسرّ شيء عند الفونس فتنة تقع بين المسلمين فيعين هذا على هذا وهذا على هذا فيستجلب بذلك اموالهم طمعاً منه ان يعجزوا فيظفر هو بملك الجزيرة كلها .

فلما لم يقم القادر بما رسم عليه من المال جمع الرعية واهل الحضر وجميع العمال وقال لهم : اقسم لئن لم تحضروني هذا المال الذي طلب في الحين لاجعلن عنده رهناً جميع ما عندكم من المال والعيال والبنين ، فلم يجبه احد بحرف غير القائد «ابي شجاع بن لبون» فانه قال له : لقد خلعت نفسك بما قلت ، وربما ازمعت عليه وعولّت . ففسدت نفوس الجماعة ورأوا انهم لا تجب عليهم له طاعة فانفذوا في السر

الى ابن الافطس . فلما شعر بذلك القادر فرّ ليلاً بعماله وجملة ماله فقصد وبذة «HUETE» فناوأه صاحبها «ابن وهب» ، ودخل ابن الافطس طليطلة ولم يكن للقادر ناصر ولا ملجأ غير الفونس فكتب اليه واستنصر به فجاء بنفسه في اسرع وقت فتلقاه القادر واتفقا على محاصرة طليطلة حتى يخرج عنها ابن الافطس ويصرفها اليه على ان يجعل جميع اموالها في يده . فقال له الفونس : «اعطيني حصن «سرية» «SORIA» وحصن «قورية» «CORA» رهناً فاعطاهما اياه فادخل فيهما اللعين ثقاته في الحين وحصنهما اشد تحصين .

ثم حاصر طليطلة اشد حصار فلما رأى ابن الافطس ضيق الحال عليه وهو لا يرجو انتصاراً من احد خرج فاراً فدخلها القادر واستأصل جميع اموالها فلم يقبلها الفونس منه فاحضر جميع ما كان عنده من نفيس الذخائر الموروثة عن ابيه وجده فلم يف بما قاطعه عليه ، فسأله ان ينظر فيه ويجعله بين يديه فقال اعطني حصن «قنالش» رهناً فاعطاه اياه . فلما ظفر به جعل فيه ثقاته وحصل فيه اقواته وانصرف الى قشتالة غانماً مملوء الحقائب سالماً فتغيرت نفوس الناس على القادر ففروا سراً الى نظر ابن هود فجاد عليهم واحسن اليهم .

وزحف كل ثائر الى بلاد القادر طمعاً في تملكها والحصول على قطب فلكها فابن عباد يشن عليه الغارات من الغرب وابن هود يذيقه من الشراب غصص الكروب فلما تحقق القادر انه لا طاقة له على الدفاع كتب الى الفونس وتخلى له عن طليطلة وانظارها ليعينه على اخذ بلنسية واقطارها . فطار اليها الفونسه بجناح فحين وافاه اخلى له البلد وحصل فيها بالاهل والولد بعد ان شرط عليه من فيها من المسلمين ان يؤمنهم في انفسهم واموالهم وبنيهم ومن احب المقام لم يلزمه سوى اداء الجزية على عدد ما عنده من الاشخاص وان رجع بعد رحيله نزل على ما كان بيده من عقار دون تعرض عليه لا في كثيرة ولا في قليلة فعاهدهم على ذلك واعطاهم صفقة يمين واقسم انه لا يغدر في ذلك ولا يمين .

الفقيه ابو القاسم ابن الخياط :

اقام خمسين سنة على العفاف والخير لا تعرف له زلة . فلما اخذ النصارى طليطلة حلق وسط رأسه وشدّ الزنار . فقال له احد اصحابه : اين عقلك ؟ فقال

ما فعلت هذا الا بعد ما كمل عقلي . وقال شعراً منه :

تلوّن كالحرباء حين تلون وابصر دنياه بملء جفونه
وكل الى الرحمن يومي بوجهه ويذكره في جهره ويقينه
ولو ان دينا كان نفيا لخالقي لما كنت يوماً داخلاً في فنونه

وذكر له ابن اليسع رسالة كتبها عن اذفونش ملك النصارى الى المعتمد بن عباد بالارهاب .

ولما حصل الطاغية الفونس بطليطلة شمخ بانفه ورأى ان زمام الاندلس قد حصل في كفه فشن غاراته على جميع اعمالها حتى فاز باستخلاص جميع اقطار ابن ذي النون واستئصالها وذلك ثمانون منبراً سوى البنايات والقرى المعمورات وحاز من وادي الحجارة الى «طلبيرة» و «فحص اللج» واعمال «شنتمرية» كلها ، فلم يكن بالجزيرة من يلقي اقل كلب من كلابه . فعند ذلك وجّه كل رئيس بالاندلس رسالة الى الفونس مهنئين وباموالهم وانفسهم مفتدين وفي ان يشركهم في بلادهم له عاملين ولاموالهم اليه جابين حتى ان «سنتمرية» حسام الدولة ابن رزين نهض اليه بنفسه وتحمل هدية عظيمة القدر سنية متقرباً اليه وراغباً ان يقره في بلده عاملاً بين يديه فجازاه علي هديته بقرد وهبه اياه فجعل «ابن رزين» يفخر به على سائر الرؤساء ويعتقد انه جنته مما كان يحذر من الفونس من وقوع الباسا (اسم للحرب) .

وانتحى الفونس انتحاء الجبابرة وانزل نفسه منازل القياصرة وداخله من الاعجاب ما احتقر به كل ماش على التراب وتسمى بالامبراطور وهو بلغتهم امير المؤمنين وجعل يكتب في كتبه الصادرة عنه من الامبراطور ذي الملتين واقسم انه لا يترك في الجزيرة من الثوار احداً ولا يبقي لهم ملتحداً سوى من اكتنفته رعايتي وشملته عنايتي . وانتشر الروم على جميع الاقطار وعاثوا في جميع الامصار وصارت لهم بلاد الاسلام مرتعاً ولقد بلغ الروم ان اغاروا في ثمانين فارساً ممن لا اخلاق لهم على نظر المرية فاخرج ابن صمادح قائداً من قواده ومعه من خيار جنده اربعمائة فارس فلما التقوا بالعدو وانهزموا وما وقفوا ولا اقدموا .

وقد اوكل اليه مهمات اخرى غير سرقسطة وغرناطة في تلك الآونة الصعبة المتقلبة المتمخضة عن تغييرات سياسية وجغرافية في المنطقة اسفرت عن تسليم طليطلة الى النصارى . ويؤكد لنا ابن بسام ان سيسنند اول حاكم تولى امر طليطلة بعد

استسلامها ولا شك ان هذا الاعتقاد من قبل المؤرخ العربي عائد الى الدور الهام الذي لعبه سيسنند بعد سقوط المدينة وعلى كل حال اذا اصبح الحاكم لها فلم يطل حكمه فيها اذ انه ظل يمارس وظيفته وزير قلمرية فعندنا وثيقة تثبت ان دير القديس سرفندس في طليطلة الكائن على باب مدينة طليطلة قد وهبه الملك الفونسه لكنيسة القديس فيكتور المرسيلي ١١ آذار ١٠٨٨ وتثبت هذه الوثيقة ان سيسنند قنصل قلمرية.

وقبل هذه المدة بسنة كتب القند المستعرب وصيته مستعداً للاستمرار الى جانب ملكه ويسير معه الى محاربة «الاوثان» وهؤلاء الاوثان طبعاً هم المسلمون الذين ولد بينهم وتربى معهم وتعلم منهم فنون الحرب والسياسة وتدبير الامور. والوصية تكشف لنا عن اعمال اخرى قام بها القند المستعرب منها انه بنى كنيسة جديدة في قلمرية وفي سنة ١٠٨٨ منح القند الاسقف «بطرنه» اراضي لاستثمارها في قلمرية والمأذونية للذهاب للاستشفاء عند النصارى او المسلمين ولكن مرض الاسقف عضال لم يمهله طويلاً فتوفي في السنة نفسها. عاش القند المستعرب بعده ثلاث سنوات وتوفي سنة ١٠٩١ عن عمر طويل وخلفه في حكم قلمرية الفارس البرتغالي مرتين مونيوس من «منتميور» صهر سيسنند، فقد تزوج ابنته الوحيدة البيرة.

بعد ثلاث سنوات اي في سنة ١٠٩٤ زالت النعمة عن القند الجديد اذ ان الملك الفونسه السادس عزله عن الولاية وعيّن مكانه الكونت او القند ريمون البورغوني صهر الملك اي زوج ابنته «تريز» اخت آورَّاكَة من ابيها وقد لعبت دوراً خطيراً وكان لها اموراً كثيرة مع اختها، وعلى هذا الاساس قامت مملكة البرتغال.

حياة سيسنند المضطربة مثل حياة رجال آخرين لا نعرفهم تبين لنا بوضوح العلاقات المكثفة بين المسلمين والنصارى في ذلك العهد والاهمية التي ادركها المستعربون نظراً لمعرفتهم اللغتين وثقافتهم. المزدوجة في مرحلة الاسترداد المسيحية فالمستعربون في كل مكان حظوا بامتيازات ، فبنوا في اشبيلية وعلى عهد المعتمد، كان في بلاطه شاعر مستعرب اسمه ابن المرعزي وشاعر آخر اسمه ابن مرتين، وابن المرعزي هذا من نصارى اشبيلية كان من مداحي المعتمد بن عباد وقد اهداه كلبة صيد وصفها في هذه الابيات التالية :

«لم ار ملهى لذي اقتناص ومقنع الكاسب الحريص

كمثل خطلاء ذات جيد		اغيد تبرية القميص
كالقوس في شكلها ولكن		تنفذ كالسهم للقنيص
ان اتخذت انفها دليلاً		دلّ على الكامن العويص
او ارسلوها وراء برق		لم يجد البرق من محيص
يشفع تنويله بود		شفع القياسات بالنصوص»

وقال ايضاً يمدح المعتمد بن عبّاد :

«الله اكبر انت بدر طالع		والنقع دجن والكماة نجوم
والجود افلاك وانت مديرها		وعدوك الغاوي وهنّ رجوم

وقال :

نزلت في آل مكعول وضيفهم		كنازل بين سمع الارض والبصر
لا تستضيء بضوء في بيوتهم		ما لم يكن لك تطفيل على القمر

القنبطور :

الحرب ؟ لا تهمني الحروب لم اركب غزوة ولم اشن غارة ولم اهتم بتوسيع رقعة مملكتي على حساب الغير . كافحت للحفاظ على ما هو لي لم اشغل وقتي في البحث عن وسيلة استولي بها على بلاد الناس ولم اسع للحصول على جزية بينما جميع من هم حولي يتكالبون على جمع الثروات واقتناء الاراضي .

عاش والدي محاطاً برجال اشداء مثل البرهانس المدين له بالكثير من الفتوحات ، ولم يحاول البرهانس ان يكون اكثر من جندي ، لم يكن مثل لذريق «السيد» مرتزقاً لا ضمير له ولا رادع مستعد لأن يتذرع بالعدل وكلمة الله ليزيد في ثروته وليعوض عما فاته من ابتعاده عن بلاط والدي .

لذريق القنبطور مقاتل مثل اولئك الذين يورثون التعاسة والظلم ، انه جندي مع رغبة في السلطة والتسلط .

لو كنت قربي يا روبرت لاغمضت عينيك مكذباً اقوالي لأنك تفضل انقاذ سمعة التنبطور ، واتصورك معجباً به لأنه المقاتل الذي لا يكل ولا يمل وانت غير قادر عليه . انه تجاسر على محاكمة والدي واختار المنفى ، بطل في نظرك مثلما هو بطل في نظر شعبي .

اسمه على كل شفة ولسان ويتغنون به مثلما انت تتغنى بترديد صلواتك اليومية والذين يشيدون ببطولته يحاولون ان يبصقوا الاهانة في وجهي لأنهم لم يتمكنوا من بصقها في وجه والدي .

نشأت مثل الآخرين وترعرت ولم يقع في اذنك سوى كلمات الاعجاب بالقنبطور . اتعلم ان المحارب الحقيقي هو الذي يواجه خصمه في الميدان المفتوح يكر او يفر ولكنه يصبح مقاتلاً خطراً عندما يحاول ان يبرر استيلاءه بالقوة على ما ليس له بلجوئه الى كلام الله وقضائه لكي يدعم حججه مثلما حصل له مع ابن جحاف واعلاق زبيدة .

اتخيلك يا روبرت قربي بشعرك الاحمر اتصور نظراتك الفاحصة عند ورود هذا الاسم الجديد ، واتخيل عينيك منفتحتين . ارغب واتمنى ان اشد الى وسطي اعلاق زبيدة لكي تفكها باللطافة والخفة التي بهما تخلق نمنماتك .

يريد الفونسه ان اشد الى وسطي زناراً من الصوف عندما اخلع لباسي عني . لان اعلاق زبيدة تثير فيه الطمع والجشع اكثر مما تثير فيه اللذة .

اتذكر يحيى القادر ؟ حدثتك عنه لما سلمه والدي بلنسية لكي يعوض له عن خسارته طليطلة ، القادر هذا احتفظ بعلائق زبيدة ثم انتزعت منه .

شعرك الأحمر ايها الراهب يذكرني بنيران الجحيم الذي اريد ان ادفن ذاتي في هوته ، وبما انك لست معي وليس بقربي جسد رجل اجيل عليه اصابعي اتحدث بصوت عال عن القنبطور واتذكر اعلاق زبيدة ، لارى ما اذا كنت تسرع اليّ مدفوعاً برغبة الاطلاع على هذه القصة المثيرة . قصة القنبطور وابن جحاف وبلنسية والمرابطين ...

لا شك انك تسألني ماذا جرى آنذاك ؟

ــ جريمة عادية ، ايها الراهب . الضحية هو يحيى القادر لأجل الحصول على علائق زبيدة واموال اخرى . ووقف لذريق القنبطور قاضياً وديّاناً عادلاً . لا اثق بالقاضي الذي يستفيد مادياً من معاقبة المجرم . لا ادري ما اذا كان ابن جحاف قتل يحيى القادر ولا ادري من سرق علائق زبيدة ولكن اعرف من خرج رابحاً من تلك المحاكمة .

شاء القنبطور الاستيلاء على مملكة بلنسية او على الاقل اخضاعها لسلطته ، وجاءت تلك القضية ، مقتل يحيى القادر حجة يتذرع بها القنبطور لكي يزحزح ابن جحاف القاضي عن مركزه لأن هذا القاضي يحظى بعطف الشعب وثقته ، وتلك السرقة حجة . اتعلم كيف استولى القنبطور على بلنسية ؟ انه حاصرها برجاله وضيق عليها الخناق حتى بلغ رطل القمح بمثقال ونصف ورطل الشعير بمثقال ورطل زريعة الكتان بستة اثمان مثقال كما قال محمد بن علقمة وهو شاهد عيان يتحدث ، واوقية الجبن ثلاثة دراهم واوقية البصل بدرهم ورطل البقل بخمسة دراهم وبيضة دجاجة بثلاثة دراهم ورطل اللحم البغلي بستة دنانير ورطل الجلد البقري بخمسة دراهم .

ومضى شهر على هذه الحالة وتضاعف الغلاء واستوى في عدم القوت الفقراء والاغنياء ، فأمر ابن جحاف باقتحام الدور فحصاً عن القوت ، كما انه وجّه من جديد النداء الى ابن هود واستصراخه ورغبه في المال والبلد مع الاجر في استنقاذ المسلمين من القتل والاسر .

وانسلخ شهر ورطل القمح بثلاث مثاقيل غير ربع وما سواه تابع له ولا يصل الى ادراك شيء من الموجود الا اهل الجاه ، وسد سائر الناس رمقهم بالجلود والاصماغ وعرق السوس ومن دون هؤلاء بالقشرة والقطط وجيف بني آدم وهجم على نصراني وقع في الحفير فاخذ باليد ووزع لحمه .

وعمل لذريق على حرق من خرج من المدينة الى المحلة لئلا يخرج الضعفاء ويتوفر القوت على الاغنياء فهان على الناس الاحراق بالنار فعبث فيهم بالقتل وعلقت جثثهم في صوامع الارباض وبواسق الاشجار .

ودخل الشهر الثالث وكان جمادي الاولى كما يقول ابن علقمة وعدمت الاقوات بالجملة وهلك الناس وتوالى اليبس واستحكم الوباء . وبينما الرجل يمشي سقط ميتاً ولم يبق ما يدب على اربع الا اتان لأبن جحاف وابنه واتان لأبن رتبير وباع ابن رتبير فرسه من الجزارين بمائتي مثقال واستثنى منه عشرة ارطال فبيع الرطل منه اول بعشرة دنانير واخره باثني عشر ديناراً ورأسه بخمسة عشر مثقالاً .

ولما بلغ الامر الى هذا القدر وابن هود يخاطب بالتسويف والمطل ، اجتمع الناس الى الفقيه ابن الوليد الوقشي في التكلم لأبن جحاف ، فأخذوا الأمان بشرط

التوقف ريثما يستصرخ من بمرسية وصاحب سرقسطة وعلى بقاء ابن جحاف على حاله آمناً في نفسه وماله وجميع اهله ويخلي للقنبطور عن المدينة بعدما قدم عليها ابن عديس مشرفاً وتكون الابواب بايدي الروم البلدين الى آخر الشهر المؤجل.

وخرج الارسال في منتصف الشهر وهو جمادي الاولى، وفي هذا اليوم وصل القمح ثلاثة مثاقيل للرطل ورطل الشعير مثقالين ونصف واوقية الجبن بعشرة دراهم وبيضة دجاجة بثلاثة دراهم.

وبعدما نفذت الارسال ارتفعت الحرب ولان السعر والحمد لله. وذلك لما انصرم الاجل. خرج القاضي الى القنبطور يوم الخميس منسلخ الشهر المذكور.

ثم صار وفتح الباب ودخل القنبطور الى المدينة مع جملة من رجاله وصعد جماعة منهم فملكوا الابراج والابواب وتسابق الباعة من موضع المحلة بالخبز والفاكهة الى المدينة، وخرج اهل البلد اليها لابتياع القوت منها، فتهللت الوجوه وانبسطت النفوس الا اهل العقول والنظر في العواقب.

واستمرت المحنة عليهم الى ان دخل شهر شعبان فاتصلت الانباء ان عساكر المسلمين بمرسية فاشاع الروم: «انه متى نزلت علينا محلة المسلمين امضينا السيف على اهل بلنسية، من وجد عنده شيء من آلات الحديد فما له ودمه حلال».

فبرىء الناس منه حتى من الابر والمسامير ووضعوا ذلك بباب القصر، وقد تضاعف الجزع والخوف. ثم امر الناس بالخروج الى البحر لجر القطع التي فيه. فلما تكامل الناس لحق بهم المترجم مع زعماء الروم فميزهم فمن كان من اهل اليسار صرف الى المدينة، ومن كان من اهل النجدة جرد ونفي، وغلب على الظن انهم قتلوا فكان الحزن بدورهم.

استمرت الحال على ذلك شهر رمضان ومحلة الامير محمد بن تاشفين ابن اخي امير المسلمين بقرب المدينة. واجتمع على الامير محمد بن تاشفين جميع عساكر المرابطين المغربية الصحراوية وجميع عساكر الاندلس فلحق به تأييد الدولة صاحب لاردة وسيد الدولة من طرطوشة وحسام الدولة من شنت برية ونظام الدولة من البونت. فكانت افعالهم ضد القابهم. ولحق الشنياطي من الثغر وابن ياسين صاحب «شبرب» «SOBRARBE» و «ابن يملول» صاحب «حصن الاشرف» وغير هؤلاء المذكورين.

واستهل هلال شوال وصلى الناس بمنزل عطاء على ساقية هوارة . ومن كان بالمدينة من النصارى يتصنع لمن بها من المسلمين ولا شك عندهم في غلبتهم لهم .

وفي الثامن من شوال اشاع لذريق ان ابن رذمير ملك اراغون لحق بجملته لنصرته ، فاعمل الحيلة واخرج جمعاً من الروم وامرهم ان يشغلوا المسلمين بالتناوش ليظنوا انه القنبطور . وخرج هو من حومة اخرى فاجفلوا امامه فاخذ الى المحلة فدوخها خيله واتصل الصراخ بالامير محمد فكر اليها وانفض الناس عنه والمحلة تنهب فتوقف العدو عن الاتباع واقبل على النهب .

ثم رجع الى المدينة واجتمع بالمسلمين في القصر ونظر اليهم وعرض بذكر المرابطين وكثرتهم وان ذلك لم يغنهم شيئاً وجعل ينظر في عطفه ويشمخ بانفه ثم قال : «انظروا اليّ في سبعمائة الف مثقال والا هلكتم واحلت السيوف عليكم» .

ثم خرج وبقي المسلمون في القصر اغلق عليهم الابواب فصاروا في سجن والروم تحثهم بالاسلحة فرأوا الموت ووقع البهت وخرست الالسنة .

ورجع اليهودي وزيره اليهم وقال لهم : «لم ازل الاطفه حتى قاطعته عليكم بمائتي الف مثقال فبادروا بتوزيعها وفدوا انفسهم منه فتوزع العدد على الاحوال واشتد خصام الاغنياء .

وبلغ اليهودي من المسلمين مبلغ الغاية من العذاب وسلط اليهود على الاسلام فبلغوا النهاية في النكال والنكاية ، ومنهم الامناء الموكلون والمتصرفون واصحاب الرسوم وخدام البر والبحر .

وجلس اليهود للقبض بصاحب المدينة من الضرب بالعصا والسوط فان جاء بشيء والا اخذ بالسوط والعذاب وتمادت هذه المحنة مدة .

(البيان المغرب لأبن عذارى المراكشي الجزء الرابع ص ٣٨ــ٤١)

القاضي بن جحاف :

كان قاضي حضرة بلنسية وله فيها الاصالة الماجدة الناطقة بالقدم الشاهدة ، وكان قد سئم اضافة عدو الله القنبطور ببلنسية وسومه اهلها خطة الخسف وسئم الذل وضاق صدره بحفيد ابن ذنون المنتقل اليه بعد تمكين النصارى من طليطلة فقوى بمكان دولة اللمتونيين وانتثل على ايديهم كشف المحنة والخروج من ذل القنبطور متعبد

اهل بلنسية وحالب ضروع جباياتها بصرامته ، فاستدعى محمد بن عائشة قائد يوسف بن تاشفين فوجّه اليه جمعاً من المرابطين ، وبرز الناس الى لقائه وفر عند ذلك حفيد ابن ذي النون من قصره ، وثار البلد به ، وعثر عليه فقتل بامر القاضي ابن جحاف وتمت بمقتله الرئاسة في البلد لأبن جحاف فرتب الاجناد والخدمة واستشعر ابهة الملك ، وعين الالقاب وحذا حذو ابن عبّاد باشبيلية فلم تساعده الايام .

وخاطبه عدو الله القنبطور يهنيه على ما تهيأ له وفي قلبه من استظهاره بسلطان لمتونة النار المضرمة ، واخذ يعرض له بالحسنة التي اكتسبها في شهر صومه من قتل سلطانه ويطلبه بالاطعمة التي كانت له بحصون بلنسية انتهبها رجاله في حال الحادثة ، فراجعه ان البلد لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين والاطعمة قد انتهبت . فكتب اليه القنبطور يقسم بمحرمات ايمان دينه الا يبرح عن بلنسية حتى يظفر بها ويأخذ ثأر ابن ذي النون .

وخاطب من يجاوره من اهل الحصون التي لا طاقة لها به يستمد الاقوات .

ثم كاد القنبطور عدو الله ابن جحاف وخدعه وداخله في اقامة اوده وتوطيد ملكه اذا صرف اللمتونيين وازعجهم انه يسوغ استبداده بالملك ويقيمه مقام ابن ذي النون ويقاتل عنه من يريده .

وكان استثقل القوم وضاق بمؤونتهم ففعل وصرف اللمتونيين .

عند ذلك استبصر في التضييق عليه فعظم الغلاء وتضاعف البلاء .

واستصرخ بامير المسلمين يوسف بن تاشفين فبعث اليهم جيشاً عظيماً اتيح للقنبطور عليه الظهور ، فايقن الناس بالهلكة واشتد عليه كلب العدو الى ان استأمنوه لانفسهم ، وخرج اليه ابن جحاف واحكم معه العقد ودخل العدو المدينة في جمادي الاولى من سنة ٤٨٧ .

تجهزت اليه جيوش المسلمين ثانية ، فما اغنت وفازت بها اقداحه .. ولما تمكن فيها سام اهلها سوء العذاب واستخلص اموالهم واذاقهم وبال امرهم بما هو معروف .

واشتد جزع المسلمين بدانية وما اتصل بها من ذلك الصقع من القلاع والقواعد وكثر شر الغارات من بلنسية عليها وتوالى الضرب وعظم الضرر وانقطعت السابلة وخافت الطرق وصار اهل تلك الجهات من اضيق من العزق وقد حميت

الفتنة . فخاطب الناس امير المسلمين مستصرخين معلمين بفساد الشرق واشراف الامة على الهلكة . فتحرك الى مدينة سبتة وتقدم امره الى القبائل باللحاق بها ، واقام هناك يجند الاجناد ويسرب الامداد وجعل تلك الجيوش وامرها الى نظر ابن اخيه الامير ابي عبد الله بن اخي يوسف لامه والامير ابو بكر هو ايضاً ابن اخي يوسف بن تاشفين لأمه وابن عمه واوعز امير المسلمين الى صاحب غرناطة وما والاها ان يمدوه بانفسهم ورجالهم . وكتب الى صاحب شنت برية ابن رزين الملقب بالحاجب والى الشنياطي وكان من انجاد الفرسان ودهاة الحرب ليجتمعوا مع ابن اخيه لاجتماع الكلمة واتصال المعاضدة والمظاهرة على منازلة العدو ببلنسية .

ولحق الجيش بالاندلس عقب شعبان المكرم ما ينيف على اربعة آلاف فارس واضعافها مرات من الرجال وتحرك من امر بالحركة الى الاجتماع به واقبلت دواب الميرة من كل صقع ونزلت المحلات على فرسخ من بلنسية فصارت مصراً عظيماً . ورأى الروم بحراً محيطاً وهموا بالفرار واخلاء بلنسية الا اللعين زعيمهم القنبطور فلم يرعه في ظاهر الأمر ذلك الجمع ولا عبأ به وكانت له في الطير عيافة وزجر يضيف الى ذلك مخرقة من كذبه يقوي بها نفوس اصحابه وفي ذلك يقول احد اهل بلنسية :

«قولوا للذريق ان الحق قد ظهرا او نقدّوه اذا ما طيره زجرا
سيوف صنهاجة في كل معترك تأبى لاطياره ان تصدق الخبرا

وعمد القنبطور عند نزول المحلات عليه الى الضعفة من النساء والولدان من المسلمين فازعجهم الى المحلة : وقال : الحقوا باهل ملتكم ، فوقعن الى ايدي السودان وخدمة الدواب والسفلة من الباعة فغلبوا عليهم وفسقوا بهن ولم يرفع ذلك الى صاحب الجيش فيقع النهي عن المنكر .

ثم رحلت المحلة الى دانية وغيرها فضاع العزم وانتفض الحزم وظهر العجز واختل الجيش وصاحبه في غفلة عنه مغتر بكثرته يقدر ان الجيش بوفره وتهاون بعدوه ويحسب انه مثله غلى مثله ، فبدت العورة وامكنت الفرصة وكان القنبطور قد ضاقت نفسه من مقاومة هذا الجمع فاستجاش الاذفونش وشاع ذلك في محلات المسلمين فتوجست النفوس واشربت خوفه القلوب وكانت هذه الامور دواعي لما جره المقدور .

ولما رأى لذريق القنبطور ضياع المحلة وتفرق الناس عنها في كل وجهة اعتبر الغرة واعمل الحيلة ولم ينتظر النصرة فركب في بعض خيله وكمن البعض ليلاً على مقربة من المحلة وخرج صبح تلك الليلة بمن معه في اهبة وعلى تعبئة والناس في طمأنينة وغفلة .. فلما اشتهر من في المحلة ، وقعت الرجة وعلت الصيحة . وركب من بقي من المرتزقة والمطوعة ولم يبق في المحلة الا الغلمة ومن لا يدفع عن نفسه وصممت الخيل الى لذريق المذكور فاستطرد لهم الى المدينة ونشطوا في اثره فاستدرأ بالسور ولازمته الجيوش تصيب منه وتظهر عليه . فخرجت كتابه الى المحلة فدوختها .

وكان الامير محمد ابن اخي امير المسلمين شاكياً متخلفاً بها ، فبادر بالخروج عنها واتصلت بالمسلمين الصيحة بدخول المحلة فبهت الناس ولم يشكوا لما كان في انفسهم ان الاذفونش طرقها فهام كل على وجهه واخذوا في غير طريق ومن صمد الى المحلة فرأى النهب فيها والخيل تخترقها تنكب عنها فلم يرجع احد اليها . واقبل العدو على النهب ولم يتبع الفل ورفه عن الخيل لسقوطها من عنده بالضيعة لما لحقها ببلنسية فلم يعمل سيف ولا أريق دم الا افذاذ رزقهم الله الشهادة .

واتصل النبأ باذفونش وقد تجاوز في نصف طريقه لنصرة لذريق القنبطور وبلغته هديته من نهب المحلة فكره ان يغرق جمعه ويخفق جيشه فقصد ارض وادي آش من نظر غرناطة فتردد في جهاتها واكتسح ما الفاه بها وحمل جملة من رعيتها لعمارة ارض طليطلة .

واتصل النبأ ايضاً بامير المسلمين يوسف فبلغ منه كل مبلغ واشتد غضبه على ابن اخيه لتضييع الحزم واسلام المحلة دون حرب يقوم به عذر .

وانتقلت جيوش المسلمين الى دانية ثم الى شاطبة فابتدروا بمخاطبة امير المسلمين معتذرين ، فاعرض عن كتبهم واضرب عن جوابهم .

ولما طال اعراض امير المسلمين عن ابن اخيه ومن معه استلطفه ورجع في امره الى القضاء والقدر وقطع الطريق الى بلنسية وحضه على الضرب عليها ، فبلغ من ذلك ما في وسعه وبذل غاية جهده .

ولم يزل امير المسلمين يمد ابن اخيه بالاموال والرجال الى ان عظم الجيش وكثف وضخم ايضاً امر الفتنة والتعب . وبعد ذلك كتب اليه يأمره بالقدوم عليه .

وبعث عوضه ابا الحسن علي بن الحاج فلحق بشاطبة وانضمت الجيوش عليه .

وكانت هدنة على دخن .

ولما تمهدت بلنسية للقنبطور بدأ بثقاف قاضيها ابن جحاف وثقاف اهله وقرابته فعمهم الثقاف وبلغتهم المحنة وجعل يطلبهم بمال حفيد ابن ذي النون ، ولم يزل يستخرج ما عندهم حتى استصفى اموالهم واستنفد احوالهم فلما لم يترك لهم ظاهراً ولا باطناً ، امر باضرام النار ، وسيق القاضي ابو المطرف يرسف في قيوده واهله وبنوه حوله وقد حشر الناس من المسلمين والروم . ثم قال لملأ من المسلمين : «ما جزاء من قتل اميره عندكم في شرعكم ؟ فصمتوا . فقال لهم : جزاؤه عندنا الاحراق بالنار .

وامر به وبجملته الى ذلك الضرم وقد لفح الوجوه على المسافة البعيدة فضج المسلمون والروم وتضرعوا اليه في ترك الاطفال اذ لا ذنب لهم ولا علم بتلك الامور عندهم فاسعف الرعية في رغبتهم بعد جهد ومدة وترك النساء والصبية وحفر للقاضي حفرة وادخل فيها الى حجزته وسوى التراب حوله وضمت النار اليه فلما دنت منه ولفحت وجهه قال : «باسم الله الرحمن الرحيم» .

ثم ضمها الى جسده فاحترق .

يوسف بن تاشفين :

البرد القارس وهذه الجدران السميكة المشبعة بالرطوبة وكانون الجمر هذا لا يكفي لتدفئة هذا المكان . روبرت لم يأت اليوم الى الموعد خشي توبيخ ضميره او العقاب . هذا ثوبي قد تهرأ وليس لي ما اغطي جسدي بسوى هذه السترة من الفرو التي كنت سألبسها في تتويجي ملكة بكنيسة سانتيقوب : هذه الثياب من الصوف ليست لباس ملكة ، عليّ ان البس الثياب الحريرية الناعمة مثل التي لبستها زائدة مطرزة بخيوط ذهبية تشف ما تحتها وتغذي الخيال الخصيب .

ردد والدي في اكثر الاحيان لا تبدل المرأة البسة الحرير بدرع من الزرد ومع ذلك لست آسفة على الالبسة الحريرية بل على خشونة الدرع على جسدي يشد على نهدي وعلى كفلي والسيف معلق في وسطي سيف ذو حدين تعودت على استعماله في حلبات المبارزة .

انا لم احب الحرب رغم ان المغنين المتجولين يجمعون في غنائهم كلمات بذيئة الى جانب كلمات اطراء واعجاب فانا في نظرهم لم انزل عن ظهر الحصان واتلذذ عندما السلاح يلامس جسدي واشاهد الدم القاني . يتهمونني بانني سبب بلائهم طيلة عشرين عاماً .

الحرب . احبها ريمون زوجي الاول واحبها والدي وبحث عنها الفونسه زوجي الثاني . انا اتشوق اليها ؟ انا ؟

ابي اهداني طبلاً اثر عودته من معركة الزلاقة فتحول ذلك الطبل الى دميتي المفضلة التي تبعث الهول في نفس امي كونستانس ويوقعها في حالة غضب وتنتهرني :

ــ لا احتمل هذه الاصوات ، حدثيني عن العيدان والمزامير . اضرب ذلك الطبل رمز الانحدار المبين .

بالغ والدي في الافاضة بجيش يوسف بن تاشفين المرابطي ، فانه عبر البحر بجيش عرمرم ولما أبصر ملوك الاندلس عبور اهل العدوة يطلبون الجهاد استعدوا ايضاً للخروج . ورأى والدي اجتماع العزائم على مناجزته علم انه عام نطاح فاستنفر الفرنجة للخروج في عدد لا يحصيه الا الله تعالى . ولم تزل الجموع تتآلف وتتدارك الى ان امتلأت الجزيرة خيلاً ورجلاً من الفريقين ، كل اناس التفوا على ملكهم . وعندما عبرت جيوش يوسف بن تاشفين عبر في آخرها فامر بعبور الجمال فعبر منها ما غطى الجزيرة وارتفع رغاؤها الى عنان السماء ولم يكن اهل الجزيرة رأوا قط جملاً ولا كانت خيلهم قد رأت صورها ولا سمعت اصواتها كانت تذعر منها وتقلق كأن ابن تاشفين يحدق بها عسكره وكان يحضرها للحرب فكانت خيل والدي تحجم منها .

واخبرني والدي ان ابن تاشفين كتب اليه يعرض عليه الدخول في الاسلام او الحرب او الجزية : بلغنا يا اذفونش انك دعوت في الاجتماع بي وتمنيت ان يكون لك فلك تعبر البحر عليه الينا ، فقد اجزناه اليك وجمع الله في هذه الفرصة بيننا وبينك وسترى عاقبة دعائك وما دعاء الكافرين الا في ضلال (البيان المغرب ــ المراكشي ص ١١٥ وما بعدها) .

وغدر ابي لما قرر يوم المعركة : قال انها ستكون يوم الاثنين ولكنه في فجر يوم

الجمعة والناس في طمأنينة فبادر ابن عباد للركوب واثبت الخبر في العساكر فماجت باهلها ووقع النهب ورجفت الارض وصار الناس فوضى على غير تعبئة ولا اهبة ودهمت خيل والدي الاذفونش فغمرت ابن عباد وحطمت ما تعرض لها وتركت الارض حصيداً خلفها وجرح ابن عباد واصابه جرح اشواه وفرّ رؤساء الاندلس واسلموا محلاتهم وظنوا انها داهية لا ترفع وظن والدي ان امير المسلمين يوسف بن تاشفين في المهزومين ، فركب امير المسلمين واحدق به انجاد خيله ورجاله من صنهاجة ورؤساء القبائل فعمدوا الى محلة والدي الاذفونش كما يسميه العرب ، فاقتحموها ودخلوها وقتلوا حاميتها وضربت الطبول فاهتزت الارض وتجاوبت الآفاق ، وتراجع جيش ابي الى محلتهم بعد ان علموا ان امير المسلمين هاجمها فقصدوه فافرج لهم عنها ثم كرّ فاخرجهم منها ثم كروا عليه فافرج لهم عنها ولم تزل الكرات بينهم تتوالى الى ان امر امير المسلمين حشمه السودان فترجل منهم زهاء اربعة آلاف رجل ودخلوا المعترك بدروق اللمط وسيوف الهند ومزاريق الران فطعنوا الخيل فرمحت بفرسانها واحجمت عن اقرانها وتلا حق والدي باسود فدق مزاريقه بالدف فاهوى ليضربه بالسيف فلصق به الاسود وقبض على اعنته وانتضى خنجراً كان متمنطقاً به فاثبته في فخذه فهتك حلق درعه وشك فخذه مع بداد سرجه وصدق المسلمون الحملة على ابي واصحابه فاخرجوهم عن محلتهم فولوا ظهورهم واعطوا اعناقهم والسيوف تصفعهم الى ان لحقوا بربوة لجأوا اليها واعتصموا بها واحدقت بهم الخيل فلما اظلم الليل انساب ابي واصحابه من الربوة وافلتوا بعدما نشب فيهم اظفار المنية واستولى المسلمون على ما كان في محلتهم من الاثاث والآنية والمضارب والاسلحة .

امر المعتمد بن عباد بضم رؤوس القتلى من جنود ابي فنشر منها امامه كالتل العظيم ثم كتب ابن عباد الى ولده الرشيد كتاباً واطار به الحمام يوم السبت سادس عشر محرم يخبره بالنصر .

وقال ابو بحر يوسف بن عبد الصمد يصف يوم الجمعة الذي بدد فيه شيعة الطاغية اذفونش :

خضعت لعزتك الملوك الصيد　　وعنت لك الابطال وهي اسود
رأى يفل الجيش وهو عرمرم　　ويعفر الجبار وهو عنيد

لم ترض الا والسيـــوف تمائم		والحرب ظهر والسروج مهود
ولقد شفقت على الطعان سعيرها		وحملت وطـأتها وانت وليـد
ولكل نصر من ظباك مخيلة		ولكـل فخر من قناك عمـود
هيهات لا يمضي لحقك شاهـد		يوم العروبـة شاهـد مشهـود
يوم تواصلت الترائب والقنـا		فيـه وعانـقت الاسود اسود
والشمس مرهاء الجفون كليلة		والجو مغبر الـــذرى مسدود
والمرهفات من النجيـع كأنها		صفحـات بيض بينها توريـد
والخيل قد نكصت على اعقابها		والروم زرع والـرؤوس حصيد
وكـأنما كانت هنـاك كنـائس		قد حان فيها للصليب سجود
لو زلت زال الدين وانتهب الهدى		ونبا اليقين ونافـق التوحيـد
لكن وقفت وملء درعك للعدا		درع يهد الراسيـات شديـد
والوجـه لا متغير والـرأي لا		متلبـد والعـزم لا مردود
نالتك في ذات الالـه شدائـد		تركت لك الاملاك وهي عبيد
والملك لا يحميـــه الا اروع		ثبت الجنان على الجلاد جليد
فاطعن ولـو ان الثريـا ثغـرة		واضرب ولو ان السماك وريد
وافتح ولـو ان السمـاء معاقل		واهزم ولـو ان النجوم جنود
واطلب بملك الارض حقاً انه		فرض على بعض السيوف وكيد
وطل ابن عباد على املاكها		فقـد ارتضاك الواحـد المعبـود
ان الرئاسة والنفاسة والعـلا		حرم تدافـع دونها وتـــزود

قال ابن القزار في ابن عباد وقد جرحت كفه يوم الزلاقة :

ثناؤك ليس تسبقه الريـاح		يطير ومن نداك له جَنَاحُ
لقد حسنت بك الدنيا وشبت		مفتت وهي ناعمة رداح
تطيب بذكرك الافواه حتى		كأن رضابها مسك وراح
ملكت عنان دهرك فهو جار		كما تهوى فليس له جماح
جلبت الى الاعادي اسد غاب		براثنها الاسنـــة والرمـــاح
وقفت وموقف الهيجاء ضنك		وفيه لباعك الرحب انفساح
والسنة الاسنـة قائـلات		اذا ظهر المؤيد لا براح

وقالوا كفه جرحت فقلنا اعاديه توافقها الجراح
وما اثر الجراحة ما رأيتم فتوهنها المناصل والرماح
ولكن فاض سيل الجود فيها فامسى في جوانبها انسياح
وقد صحت وسحت بالاماني وفاض الجود منها والسماح

كتب المعتمد بن عباد الحمايم الى ولده الرشيد عقب الفراغ من وقعة الزلاقة :

«يا بني ومن ابقاه الله وسمله ووقاه الاسوأ وعلمه واسبغ عليه آلاءه وانعمه . كتبته وقد اعز الله الدين واظهر المسلمين وفتح لهم على يدي مستدعيات الفتح المبين بما يسره الله في امسه وسنه وقدره سبحانه وقضاه من هزيمة اذفونش بن فردلند لعنه الله واصلاه وان كان طاح للجحيم ولا اعدمه وان كان اهل العيش الذميم كما قنعه الخزي العظيم واتى القتل على اكثر رجاله وحماته واتصل النهب سائر اليوم والليلة المتصلة به ، جميع محلاته وجمع من رؤوسهم بين يدي من مشهوري رجالهم ومذكوري ابطالهم ولم يختر منهم الا من شهر وقرب ، وامتلأت الايدي مما سلب ونهب والذي لا مرية فيه ان الناجي منهم قليل والمفلت من سيوف الجزع والبعد قتيل ولم يصبني بفضل الله الا جرح اشوى وحسن الحال عندنا ولا يشغل بذلك بال ولا يتوهم غير الحال اشرت اليها حال والاذفونش بن فردلند ان لم يصبح تحت السيوف سيموت لا محال كمداً ، واذا ورد كتابي هذا فمر بجمع الخاص والعام من اهل اشبيلية وجيرانها الاقربين واصفيائنا المحبين في المسجد الجامع اعزهم الله وليقرأ عليهم فيه ليأخذوا من المسرة ويضيفوا شكراً لله والحمد لله على ما صنع حقّ حمده والسلام» .

(الاحاطة في اخبار غرناطة جزء ٢ صفحة ١١٤ــ١١٥)

وقد وجه يوسف بن تاشفين كتاباً الى بلاد العدوة عقب موقعة الزلاقة . بعض ما جاء فيه :

«اما بعد حمد الله ، المتكفل بنصر اهل دينه الذي ارتضاه والصلاة على سيدنا محمد افضل رسله ، واكرم خلقه واسراه ، فان العدو الطاغية ، لعنه الله ، لما قربنا من حماه ، فاختار وتوافقنا بازائه ، بلغناه الدعوة وخيرناه بين الاسلام والجزية والحرب ، فاختار الحرب فوقع الاتفاق بيننا وبينه على الملاقاة في يوم الاثنين الخامس عشر لرجب . وقال الجمعة عيد المسلمين والسبت عيد اليهود وفي عسكرنا منهم خلق كثير ، والاحد عيدنا نحن ، فافترقنا على ذلك . واضمر اللعين

خلاف ما شرطناه وعلمنا اهل الخداع ونقض عهود فاخذنا اهبة الحرب وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا الينا احوالهم فاتتنا الانباء في سحر يوم الجمعة الثاني عشر من رجب المذكور ان العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين يرى انه قد اغتنم فرصته في ذلك الحين فنبذت اليه ابطال المسلمين وفرسان المجاهدين فتغشته قبل ان يتغشاها وتعدته قبل ان يتعداها وانقضت جيوش المسلمين في جيوشهم انقضاض العقاب على عقيرته ووثبت عليه وثوب الاسد على فريسته وقصدنا برايتنا السعيدة المنصورة في سائر المشهدة المنتثرة ، ونظروا الى جيوش لمتونة نحو الفُنش ، فلما ابصر النصارى رايتنا المشدة المنتشرة ونظروا الى مواكبنا المنتظمة المظفرة ، واغشتهم بروق الصفاح واضلتهم سحائب الرماح ونزلت بحوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفياح ، فالتحم النصارى بطاغيتهم الفُنْش وحملوا على المسلمين حملة منكرة فتلقاهم المرابطون بنيات خالصة وهمم عالية فعصفت ريح الحرب وركبت دائم السيوف والرماح بالطعن والضرب وطاحت المهج واقبل سيل الدماء في هرج ونزل من سماء الله على اوليائه النصر العزيز والفرج . وولى الفونش مطعوناً في احدى ركبتين طعنة افقدته احدى ساقيه في خمسمائة فارس من ثمانين الف فارس ومائتي الف راجل قادهم الله الى المصارع والحتف العاجل ، وتخلص ، لعنه الله الى جبل هناك ونظروا النهب والنيران في محلته من كل جانب وهو من اعلى الجبل ينظرها شزراً ويحيد عنها صبراً ، ولا يستطيع عنها دفعاً ولا لها نصراً ، فاخذ يدعو بالثبور والويل ويرجو النجاة في ظلام الليل وامير المسلمين بحمد الله قد ثبت في وسط مواكبه المظفرة تحت ظلال بنوده المنتشرة ، منصور الجهاد مرفوع الاعداد ، ويشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السؤال والمراد ، فقد سرح الغارات في محلاتهم تهدم بناءها وتصطلم ذخائرها واسبابها وتريه رأي العين دمارها ونهبها . والفنش ينظر اليها نظر المغشى عليه ويعض غيظاً واسفاً على انامل كفيه فتتابعت البهرجة الفرار رؤساء الاندلس المنهزمين نحو بطليوس والغار فتراجعوا حذراً من العار ، ولم يثبت منهم غير زعيم الرؤساء والقواد ابو القاسم المعتمد ابن عباد ، فاتى الى امير المؤمنين وهو مهيض الجناح ، مريض عنة وجراح ، فهنأه بالفتح الجليل والصنع الجميل وتسلسل الفنش تحت الظلام فاراً لا يهدى ولا ينام . ومات من الخمسمائة فارس الذين معه بالطريق اربع مائة فلم يدخل طليطلة الا في مائة فارس ، والحمد لله على ذلك كثيراً .

وكانت هذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة يوم الجمعة ثاني عشر لرجب سنة تسع وسبعين واربعمائة موافق الثالث والعشرين لشهر اكتوبر العجمي .

وهذه رسالة اخرى كتبها يوسف بن تاشفين الى الناصر بدين الله تميم بن المعز بن باديس بالمهدية يصف فيها معركة الزلاقة وهزيمة الاذفونش امير النصارى رجب سنة تسع وسبعين واربعمائة .

«الحمد لله الذي منّ علينا بالاسلام وفضلنا بمحمد عليه السلام ، احمده حمداً يوجب

المزيد من آلائه والسبوغ من سر الله ونعمائه . كان من قضاياه جل شاوه وتقدمت اسماؤه ، لما اراد قمع المردة الطغاة من زناتة وغيرهم في بلاد المغرب ، سبب لنا اليهم المطلب فقفرنا آثارهم واخلينا منهم ديارهم ، وكذلك نفعل بالقوم الظالمين ، فقوّمنا الدين ومهدنا بها المسلمين فصفت لنا ضمائرهم وخلصت الى الله تعالى نياتهم وسرائرهم حتى وصلنا طنجة الركاب واذقنا برغواطة سوم العذاب ففتح الله لنا وبها وهو خير الفاتحين ، واسرع الحاسبين ، لا اله غيره وهو ارحم الراحمين .

ولما بلغنا من استحواذ النصارى ، دمرهم الله ، على بلاد الاندلس ومعاقلها ، والزام الجزية لرؤسائهم واستئصال اقاليمها وايطالهم البلاد دار داراً ، لا يتخوفون عسكراً يخرج اليهم فيبدد جمعهم ، ويفل حدهم ، وهم مع ذلك كله يقتلون الشيب والشبان ، ويأسرون النساء والصبيان . فخوطبنا عن الجواز الى الاندلس مع جميع الاحواز ، المرة بعد المرة ، والوتنا الاعذار الى وقت الاقدار ، ولم نجد للجواز باباً ولا لدخول البحر اسباباً ، فانضم لنا منهم الريس الاجل المعتمد على الله ، المولا بنصر الله ، احسن الله في كل الامور عونه واقر بكل صالحة عينه ، فعزمنا على الغزو وجوزنا للعدو اسوداً ضاربة وسباعاً عادية شيباً وشباناً ، بسواعد قوية وقلوب في سبيل الله نقية ، قد عرفوا الحرب وجربوها فهي امهم وهم بنوها ، يتلمظون تلمظ الفهود ويزآرون اليها زآر الاسود فشحنا بهم القوارب واوسعناهم على ظهور المراكب ، فخرجنا في «مرسى» الجزيرة الخضراء ، من دياره ، وفقه الله ، ففزع الناس من كل افق اليهم ووفدوا من كل قطر عليهم متعجبين من هيأتهم محتقرين لزيهم ونغماتهم ، لا يروعهم منهم حاشى الخيل والدرق ، وهم مع ذلك لا ينالون الا بعد جف الريق ومسح العرق ، وقد رأوا انهم طعم السيوف وغرض للحتوف ، وسعد للارماح ونهب للسلاح ، فكل استصغرهم ، والجميع منهم احتقرهم ، وتبلغ الينا اخبارهم واقوالهم وتنتهي الينا افعالهم .

ثم اتبعناهم جيشاً بعد جيش بخيول كالفحول عليها الكهول وعدد من كل امردعلى اجرد ، يتسابقون الى اللقاء في الفضاء تسابق الحين والقضاء ، ومع هذا كله ان اهل الاندلس مستبشرون بنصرهم على ايدينا وازاحة غمتهم بسببنا ، وعساكرنا تزيد وجوازنا بتأكيد . وكان آخر من جاز معنا ومنا قطعة من صنهاجة بني عمي ، فعسر البحر حينئذ واضطربت فيه الامواج فاستصرخنا الباري تعالى جده وعظم اسمه ، ان كان في جوازنا خيرة للمسلمين ان يسهل علينا ، فما استكملت من كلامي حتى سهل الله المركب ، وقرب المطلب . فخرجنا من الحين في مرسي «الجزيرة الخضراء» المذكورة والتأم شعبنا مع من جاز من عسكرنا ، فعملنا على السير وكان قد تقدم الينا بالعدوة المراكب ونسلم من قبل الاذفونش امير النصارى رسالة يخاطبنا فيها بالجواز الينا اذا عجزنا عنه وفرقنا منه ، نعطيه المراكب ونسلم اليه الشواني والقوارب ليرد علينا ويقاتلنا في مأمننا ، فلم نلتفت ولا عرجنا عليه ، ووصلنا ايدينا بالرئيس الاجل المعتمد على الله المؤيد بنصر

الله واستوثقنا منه غاية الاستيثاق وبنينا معه على اللحاق بهم والورود عليهم ونحن في ذلك كله لما نقل الينا وورد علينا من رؤساء الاندلس مستبطئين سريرة المخبتين لابسين قسوة الصالحين وقلوبنا شتى ، حتى لحقنا اشبيلية حضرته عمرت ببقائه وقد تجمع له من جنوده اعداد ومن حشمه وعبيده وخيله ورجله اجناد ، فصرنا الى مدينة بطليوس واقمنا بها ايامنا منتظرين لوفود الرؤساء من جميع اقطار الاندلس ، فاخبرنا وصح عندنا ان كل واحد منهم مشتغل مع قطعة كثيرة من النصارى قد تغلبوهم على حصونهم واذلوهم في بلادهم واضعفوهم وشجعوهم على مرادهم ، فحمدنا الله تعالى ودعونا بتيسير المراد واستنقاذ العباد .

فجمعنا عساكرنا وسرنا اليه وصرنا الى قفل قورية من بلاد المسلمين صرفها الله ، فسمع بنا ، وقصد قصدنا وورد ورودنا واحتل بفنائها منتظراً لنا ، فبعثنا اليه نحضه على الاسلام ودخوله في ملة محمد عليه السلام او ضرب الجزية عليه واسلام ما كان من المال والبيوت لديه ، كما امرنا الله تعالى وبيّن لنا في كتابه من اعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون فأبى وتمرد وكفر ونخر ، وعمل على الاقبال علينا وحث في الورود الينا فلحقنا وبيننا وبينه فراسخ ، فلما كان بعد ذلك برزنا عليه اياماً فلم يجبنا فبقينا وبقوا ونحن نخرج الطلائع اليه ونتابع الوثوب عليه وبنينا على لقياه يوم الخميس لاحدى عشرة ليلة خلت لرجب سنة تسع وسبعين واربعمائة .

فلما كان يوم الجمعة ورد علينا بكتائب قد ملأت الآفاق وتقلبت الحتوف للاحداق قد استلموا الدروع للكفاح وربطوا في سوقهم الالواح وبطونهم ملأ من الخمور يقدرون ان الدائرة علينا تدور ونحن في اخبيتنا صبيحة اليوم المذكور ، كل منا ساه وجميعنا لاه ، فقصد اشدهم شوكة واصلبهم عوداً وانجدهم عديداً محلة المعتمد على الله المؤيد بنصر الله ، وفقه الله ، عماد رؤساء الاندلس وقطبهم لا يقدرون عسكراً الا عسكره ولا رجال الا رجاله ولا عديداً الا عديده «وداود» من اصحابنا منا ازاءه فهبطوا اليه لفيفاً واحداً كهبوط السيل بسوابق الخيل فلما كان معه من جنده ومن جميع الطبقات الذين كانوا يدخرون من قبله الاموال والضياع استكت اذانهم واضطربت اضلاعهم ودهشت ايديهم وزلزلت اقدامهم وطارت قلوبهم وصاروا كركب الحمير فروا يطلبون معقلاً يعصمهم ، ولا عاصم الا الله ولا هارباً منه الا اليه فلحقوا من بطليوس بالكرمات لما عاينوا من الامور المعضلات واسلموه ايده الله وحده في طرف الاخبية مع عدد كثير من الرجالة والرماة قد استسلموا للقضاء فوثبوا عليه وثب الاسد على الفرائس يعظمون الكنائس فحبسهم حيناً وحده مع من اليه ممن ذكرناه وبسطوا منهم الارض ولم يبق من الكل الا البعض ولجأ في الاخبية بعد ان عاين المنية ، وتخلصه الله بنيته في المسلمين وبلغه امنيته بعد ان وقف وقفة بطل مثله لا احد يرد عليه ولا فارس من فرسانه وعبيده يرجع اليه ، لا يروعه احد منهم فيهزم ولا يهابهم فيسام ، ثم قصدت كتيبته سوداً كالجبل العظيم او الليل البهيم عسكر داود واخبيته فجالوا فيها جولاناً وقتلوا من الخلق الواناً ، واستشهد الكل بحمد الله وصاروا الى رضوان

الله ونحن في ذلك كله غافلون حتى ورد علينا وارد وقصد الينا قاصد فخرجنا من وراء الشعب كقطع اللهب بجميع من معنا على الخيل المسومة العراب يتسابقن الطعن والضرب ، فلما رأونا ووقعت اعينهم علينا ظنوا ان الدائرة فينا ولدينا وانا طعم اسيافهم ولقاء رماحهم فكبرنا وكبر الكل معنا مبتهلين لله وحده لا شريك له ونهضنا للمنون الذي لا بد منه ولا محيص لاحد عنه ، وقلنا هذا آخر يومنا في الدنيا فلنمت شهداء ، فحملوا علينا كالسهام فثبّت الله اقدامنا وقوى افئدتنا والملائكة معنا والله تعالى ولي النصر لنا ،

فولوا هاربين وفروا ذاهبين وتساقط اكثرهم بقدر الله تعالى دون طعنة تلحقه ولا ضربة تثخنه واضعف الرعب ايديهم فطعناهم بالسمهرية دون الوخز بالابر ، وضاقت بهم الارض بما رحبت حتى ان هاربهم لا يرى غير شيء الا ظنه رجلاً ، وفتكت فيهم السيوف على رغم الانوف . فوالله لقد كانت تقع على الدروع فتفريها وعلى البيضات فتبريها وزرق الرجالة منا على خيلهم الرماح فشكوهم بها فرمحت بهم فما كنت ترى فيهم فارساً الا وفرسه واقف على رأسه لا يستطيع الفرار الكل يجر عنانه كأنه معقل بعقاله ونحن راكبون على الجواد الميمون العربي المصون ، السابق اللاحق المعد للحقائق ، وما منا الا من له جرناز فيه سيفان وبيدنا الثالث عسى ان يحدث من حادث ، فصاروا في الارض مجندلين موتى معفرين وقد تراجع الناس بعد الفرار وامنوا من العثار وتضافروا مع عسكرنا وغيرهم يقطعون رؤوسهم وينقلون بازاء المحلات حتى علت كالجبال الراسيات عدد لا يقدر ومدد لا يحزر والتجريد فيهم والايدي متعاودة لبطونهم واستأصلنا اكابرهم وحللنا دون اماطيهم وامانيهم وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون .

وانقطع من عسكرهم نحو الفي رجل او اقل والاذفونش فيهم على ما اخبرنا قد اثخنوا جراحاً بازاء محلاتهم يرتادون الظلام للهروب في المقام . ووالله لقد كان الفرسان والرجالة يدخلون محلتهم ويعثرون على اخبيتهم وينتهبون ازودتهم وهم ينظرون شزراً نظر التيوس الى شفار الجزارين ، الى ان جنّ الليل وارخى سدوله ، ولوا هاربين واسلموا رحائلهم صاغرين ، فكم من دلاص على البقاع ساقطة ، وخيول على البقاع رابضة ولقد ارتبط كل فارس منا الخمسة الافراس او ازيد واما البغال والحمير فاكثر من ذلك واما الثياب والمتاع فناهيك والاسرة باوطية الحرير والثياب والاوبار عدد ليلهم ولا يكلون في الانتقال ولا يسئمون من تشريط الاموال .

ولحقوا قورية ومنها حيث القت رحلها ام قشعم .

فصححنا ضمائرنا واخلصنا للمعتمد على الله نياتنا وسرائرنا ورجعنا بحمد الله غانمين منصورين . لم يستشهد منا الا الفرقة التي قدر الله عليها ذلك وقدرنا ان الكل منهم هلك لقلة معرفتهم وجهالتهم بقتال النصارى وترامیهم للشهادة قدس الله ارواحهم وكرم مثواهم وضريحهم وجعل الجنة ميعاداً بيننا وبينهم وفقدنا من اكابرنا نحو عشرين رجلاً ممن شهدت نجدته في المغرب وانقلب خير منقلب .

ولحقنا اشبيلية حضرته عمرت ببقائه واقمنا عنده اياماً ورفعنا عنه مودعين لا توديع قاطع ولا يمنعنا منه متى احب مانع وحقنا الجزيرة الخضراء ونحن نريد اشياء اسأل الله تمامها وانجازها وان يسهل المراد ويوفقنا للسداد ومتى تنفس منهم متنفس او رجع الى احدهم نفس يذكرون ما لقوا يذكرون ما لقوا ، ويتذاكرون ما بقوا وسنستدرجهم من حيث لا يعلمون واملي لهم ان كيدي متين حتى لا يبقى على اديم الارض منهم حي ولا يحس منهم انسي .

والحمد لله رب العالمين على ما قضى وحول ما اعطى ، وهذا كله منا منه علينا لا منا منا عليه ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، وقائد الغر المحجلين الى جنات الله النعيم ، وآله الطيبين وسلّم تسليماً .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

(مأخوذ عن مخطوط الاسكوريال رقم ٤٨٨)

ونرى في هذه الرسالة ان يوسف بن تاشفين اثنى كل الثناء على المعتمد بن عِباد واشاد بحسن مواقفه في معركة الزلاقة وفي جميع تصرفاته معه .

توفي يوسف بن تاشفين سنة ١١٠٦/٥٠٠ وقد رثاه ابو بكر بن سوار من قصيدة انشدها على قبره :

ملك الملوك وما تركت لعامل — عملاً من التقوى يشارك فيه
يا يوسف ما انت الا يوسف — والكل يعقوب بما يطويه
اسمع امير المؤمنين وناصر الدين — الذي بنفوسنا نفديه
جوزيت خيراً عن رعيتك التي — لم ترض فيها غير ما يرضيه
اما مساعيك الكرام فانها — خرجت عن التكييف والتشبيه
في كل عام غزوة مبرورة — تردي عديد الروم او تفنيه
تصل الجهاد الى الجهاد موفقاً — حتم القضاء بكل ما تقضيه
ويجيء ما دبرته كمجيئه — فكأن كل مغيّب تدريه
متواضعاً لله مظهر دينه — في كل ما تبديه او تخفيه
ولقد ملكت بحقك الدنيا وكم — ملك الملوك الامر بالتمويه
لو رامت الايام ان تحصي الذي — فعلت سيوفك لم تكد تحصيه
انّا لمفجوعون منك بواحد — جمعت خصال الخير اجمع فيه
واذا سمعت حمامة في ايكة — تبكي الهديل فانها ترثيه

ومض قد استرعى رعية امة فاقام فيهم حق مسترعيه
واذا هزبر الغاب صرّى شبله في الغاب كان الشبل شبه ابيه
واذا عليّ كان وارث ملكه فالسهم يلقى في يدي باريه

ويقصد الشاعر بعلي بن يوسف بن تاشفين وقد ورث فعلاً الملك بعد ابيه .

هذه القصيدة موجودة في كتاب : «الاحاطة بتاريخ غرناطة تأليف لسان الدين ابن الخطيب وتحقيق عبد الله عنان المجلد الرابع مكتبة الخانجي ص ٣٥٣ـ٣٥٤» .

خلع المعتمد بن عباد :

ورأى المعتمد بن عباد انه هالك ومصيره كمصير الامير عبد الله صاحب غرناطة وجزع جزعاً شديداً وخاف ان يأخذه يوسف اذا استصرخ بالفونسه ، ولم يكن ليوسف بن تاشفين ان يأخذه بغير ذنب فيقبح ذكره . واشار اليه المرابطون بثقافه فابى حتى يلوح قبله ذنب يؤخذ به واتبعه «قرور» يقول له : ان الامير يحتاج الى تذكارك بعض الامر . فابى ومضى لوجهته فاراً بنفسه واطوى المراحل حتى وصل قرطبة وقال في طريقه لأبن الافطس : انجُ بنفسك فقد ترى ما حل بصاحب غرناطة وغداً بنا .

ثم انه بعد ان ظهر للامير نفوره وجّه اليه يأمره بالقدوم اليه ويقول له : «نريد الاجتماع بك فيما نحن بسبيله ليقول : لا ، فيجد السبيل كما فعل» . فراجعه ابن عباد .

«ان ذلك كان وقت ان كنت ضيفاً وتريد الغزو فلزمتني معونتك بنفسي وجميع احوالي والآن انما انت لي جار مثل باديس وحفيده وانت اقدر مني على الشر بجنودك فلا يمكنني التغرير بنفسي عسى انك تريد اخذ بلدي اذ لا تصلح لك غرناطة الا بما يضاف اليها من الاندلس» .

فشرط عليه امير المسلمين ان يلتزم الرباط ويقطع القبالات وتحاملاً كثيراً علم انه لا يفعله وفي تركه او فعله قطعه . فامتنع ابن عباد جهده وبنى على الشر وبدأ بمداخلة معاقله فانتشرت كما جرى لغيرها وقامت عليه الرعايا بكل قطر وارسل اذ ذاك الى الفونسه السادس يستغيث به فقعد عنه خيفة التغرير وهي حجة امير المسلمين على ابن عباد ان قال له : «ظفرت بكتبك الى الرومي وارسالك عنه» .

فقال المعتمد : لو فعلته قبل ان تأخذ بلادي بطراً واشراً كنت أُلام فاما بعد ان رأيت طلبت في الروح اضطرتني الضرورة الى ذلك للمدافعة ولو يوماً واحداً .

وهي علة الجميع وبذلك هلك ابن الافطس .

فلما تبين للامير يوسف بن تاشفين خلافه وقعوده عنه شاور الفقهاء في امره فاشاروا عليه بغزوه . فكان غزوه بعد ابلاء غدر ولهذا ما وتّحر به ليهلك من هلك عن بينة ولتكون له الحجة على من يريد اخراجه .

فامر الامير سير بالخروج اليه ونهض ونحن بمكناسة (والذي يتكلم هو الامير عبد الله في مذكراته) ونازله مدة طويلة ومعاقله قد ذهب اكثرها بالطاعة .

فلما اخذت قرطبة انقطع الرجاء وضاقت اشبيلية ونفد ما كان بيده من اجل النفقات الى ان دخلها الامير سير عنوة بمداخلة من بعض اهلها وهلك فيها عالم وانكشف الحرم اذ للجيش معرة لا تملك بعد صبرهم على ملكهم .

ظهر لسير في اجتهادهم في القتال ما اعجبه ذلك وقال : «لو اني اقصد مدينة الشرك لما امتنعت عليّ هذا الامتناع» .

وكان دخولها من ناحية الوادي وهو اسهل الاماكن ولولا صبر اهلها وكثرة اقارب ابن عباد لم يستطع على شيء فكأنه غلب بالثقافات الذين كانت الابواب بايديهم ووكلهم بمن سواهم الى ان لم يكن مع القضاء مدفع . وكان دخلوها يوم الاحد في رجب في التاريخ الذي دخلت فيه غرناطة بعدها بعام كامل .

ودخلت قبلها قرمونة ومات فيها عالم كثير . ثم التوى امر رندة فنازلها قرور الى ان ظفر بالراضي وخدعه وحصل على امواله ثم قتله خوفاً من افتضاح تلك الاموال . وقيل ان ذلك لم يكن عن رأي السلطان . وامر بقتل كل من ظفر به في رندة المذكورة من الاحرار والجند المقاتلين وقتل فيها رجل من العرب يعرف «بابي الصمصام» جرأة على الله ليأخذ بنته ونكحها من بعده وحصل على ماله «وما ربك بغافل» . وامتسك بالعبيد وصيرهم الى السلطان .

ولما ظفر بابن عباد فيّاء الامير سير خدمه وعبيده وحاش امهات الاولاد . وامره امير المسلمين بارساله اليه فقدم علينا في مكناسة مع دخلته وبقي .

ويقال ان «سير» لما فرغ من ملوك الاندلس كتب الى يوسف بن تاشفين انه

لم يبق من ملوكها غير المعتمد بن عباد فارسم في امره ما تراه فامره بقصده وان يعرض عليه التحول الى بر العدوة باهله وماله فان فعل فبها ونعمت وان ابى فنازله فلما عرض عليه سير بن ابي بكر ذلك لم يعطه جواباً فنازله وحاصره ثم دخل البلد قهراً واستخرجه من قصره اسراً وارسل الى اغمات .

هؤلاء هم المرابطون الذين استدعاهم ملوك الطوائف لينقذوهم من سيطرة ابي.

المرابطون ! ولما سمع الراهب روبرت هذا الاسم رسم اشارة الصليب على وجهه كما لو ان الشيطان ذكر امامه .

— انهم مقاتلون شرسون وليسوا شياطين ، ايها الراهب ، انهم مثلك ومثل المطران جلميرز ومثل الآباتي برنار ومثل والدي ايضاً ، يقاتلون لاجل الههم ، وصلوا الينا باسم الله لأن اسم الله يكتب بصور كثيرة ، انها الحرب المقدسة التي يخوضونها ، انه الجهاد الذي يخوضه والدي وما زال يخوضه زوجي الفُونسه الاراغوني . الموت في سبيل الله . انها ميتة غريبة انها ميتة مرضية اكثر من اي ميتة اخرى . وانت تعتبر هذا العالم الارضي وادي الدموع وبئر مليئة بالاوبئة والادناس . ترسم في لوحاتك حياة اخرى وعوالم غير هذا العالم .

يوسف بن تاشفين كان مؤمناً مثلك وربما انت يا روبرت تشتاق الى امتطاء صهوة الجواد وامتشاق السيف فتغير ريشتك بالحديد الاخضر . ملكتك تنصح بوجوب اللجوء الى رجال الله والاستعانة بهم في الملمات الجسام وفشلت لأني لم احسن استخدامهم باسم الله وسع والدي وزوجي رقعة ممالكهما انا لم اتصرف مثلهما . ان مليكتك تناست قوة الايمان وارتكبت اخطاء كثيرة مثل التي ارتكبها المعتمد بن عباد ملك اشبيلية الذي خلعه المرابطون عن ملكه . انه احب الحياة وانزلق في الشهوات والاهواء والاخطاء . احب والدي زائدة ولكن حبه لها لم يصرفه عن النظر في شؤون الدولة ، بينما المعتمد ترك هذه الامور في يد وزيره ونديمه ابن عمار وانصرف الى مجالس اللهو وقرض الشعر ومجالسة الشعراء والاستماع الى المغنين والمغنيات والى شرب الراح . ابن عمار يشبهك يداه مثل يديك خلقتا لملامسة الجسد واضرام النار فيه . قامته طويلة ورشيقة مثل قامتك التي تعاقبها بالجلد بالسياط بينما هو يدلكهما بالزيوت الطيبة الرائحة .

ابن عمار كان من المعتمد بن عباد بالمحل المرموق تربية وخدمة وطول عشرة .

وكان نادرة وقته براعة وادباً وحسن مجالسة وشهامة نفس فأخذ بمجامع قلب المعتمد وحل منه المحل المحجور على سواه. عاونه في ادارة ولاية شلب ثم تولى وزارته باشبيلية وقد وجهه الى شلب ليتفقد اعمالها وخاطبه بهذه الابيات:

«الا حي اوطاني بشلب ابا بكر ... وسلهن هل عهد الوصال كما ادري؟
وسلّم على قصر الشراجيب من فتى ... له ابداً شوق الى ذلك القصر
منازل آساد وبيض نواعم ... فناهيك من غيل وناهيك من خدر
فكم ليلة قد بت انعم جنحها ... بمخصبة الارداف مجدبة الخصر
وبيض وسمر فاعلات بمهجتي ... فعال الصفاح البيض والاسل السمر
وليل بسد النهر ليلاً قطعته ... بذات سوار مثل منعطف البدر
نضت بردها عن غصن بان منعم ... نضير كما انشق الكمام عن الزهر»

تلك اشعار كانوا يتغنون بها في حضرة والدي ولم افهم منها شيئاً ولكن لكثرة ترددها ووقوعها في اذني جعلني احفظها.

اصطبح المعتمد يوم غيم عظيم مع ام الربيع واحتجب عن الندماء فكتب اليه ابن عمار:

تجهم وجه الافق واعتلّت النفس ... لأن لم تلح للعين انت ولا شمس
فان كان هذا منكما عن توافق ... وضمكما انس فيهنيكما الانس

فاجابه المعتمد بقوله:

خليلي قولاً هل عليّ ملامة ... اذا لم اغب الا لتحضرني الشمس
واهدي باكواس المدام كواكباً ... اذا ابصرتها العين هشت لها الشمس
سلام سلام انتما الانس كله ... وان غبتما ام الربيع هي الشمس

مرّ المعتمد مع وزيره ابن عمار ببعض ارجاء اشبيلية فلقيتهما امرأة ذات حسن مفرط فكشفت وجهها وتكلمت بكلام لا يقتضيه الحياء، وكان ذلك بموقع الجباسين الذين يصنعون الجبس والجيارين الصانعين للجير باشبيلية فالتفت المعتمد الى موقع الجيارين وقال: يا ابن عمار: الجيارين. ففهم مراده وقال في الحال: يا مولاي والجباسين، فلم يفهم الحاضرون وتحيروا فسألوا ابن عمار. فقال له المعتمد: لا تبعها منهم الا غالية. وتفسيرها ان ابن عباد صحّف «الحيازين» بقوله الجيارين اشارة الى ان تلك المرأة لو كان لها حياء لازدانت. فقال له والجباسين

وتصحيفه «والخنائين» اي هي وان كانت جميلة بديعة الحسن لكن الخنا شانها.

وذكر ابن بسام ان ابا العرب الصقلي حضر مجلس المعتمد يوماً وقد حمل اليه حمول وافرة من قراريط الفضة فامر له بكيسين منها. وكان بين يديه تماثيل عنبر من جملتها جمل مرصع بالذهب واللآلي فقال له ابو العرب معرضاً: ما يحمل هذين الكيسين الا جمل. فتبسم المعتمد وامر له به فقال ابو العرب بديهاً:

اجديتني جملاً جوناً شفعت به　　حملاً من الفضة البيضاء لو حملا
نتاج جودك في اغصان مكرمة　　لا قد تصرف من منع ولا عقلا
فاعجب لشاني فشاني كله عجب　　رفهتني فحملت الحمل والجملا

وذكر ان ذلك الجمل بيع بخمسمائة مثقال فسارت بهذا الخبر الركائب وتهادنته المشارق والمغارب.

الراضي:

وكان المعتمد كثيراً ما يرميه بملامه فربما استلطفه بمقال افصح من دمع المحزون فانه كان ينظم من بديع القول لآلىء وعقوداً تسلّ من النفوس فمن ذلك قوله:

اعيذك ان يكون بنا خمول　　ويطلع غيرنا ولنا قفول
حنانك ان يكن جرمي قبيحاً　　فان الصفح عن جرمي جميل
الست بفرعك الزاكي وماذا　　يرجّى الفرع خانته الاصول؟

ومرّت على الراضي هوادج وقباب فيها حبائب كنّ له واحباب الفهن ايام خلائه من الهم وجال معهن في ميدان المنى اعظم جولة ثم انتزعوا منه واودعوا الهوادج ووجهوا هدايا الى العدوة فقال:

مرّوا بنا اصلاً من غير ميعاد　　فاوقدوا نار قلبي اي ايقاد
واذكروني اياماً لهوت بهم　　فيها ففازوا بايثاري واحمادي
لا غرو ان زاد في وجدي مرورهم　　فرؤية الماء تذكي غلة الصادي

ولما وصل العدو لورقة اعلم ان العدو قد جيش لها واحتشد ونهد نحوها وقصد ليتركها خاوية. وامر الراضي بالخروج اليه وعسكر بصرده لمحاربته واعده لمصادمته ومضاربته فاظهر التمرض والتشكي واضمر التقاعس فراراً من المصادمة وجزعاً من منازلة الاقران ومقاسات الطعان، ورأى ان المطالعة ارجح من المقارعة ومعاناة العلوم

اربح من مداواة الكلوم فقد كان عاكفاً على تلاوة ديوان فعلم المعتمد ما نواه فاعرض عنه ونفض يده منه .

توجه المعتمد مع ذلك الجيش الذي لم تنشر بنوده ولا نصرت جنوده فعندما لاقوا العدو لاذوا بالفرار فاهتضم العدو ما بقي مع المعتمد وخضم ما في العسكر وهضمه وآب اخسر من بائع فانطبقت سماء المعتمد على ارضع فكتب اليه الراضي :

لا يكرثنك خطب الحادث الجاري ... فما عليك بذاك الخطب من عار
ماذا على ضيغم امضى عزيمته ... ان خانه حد انياب واظفار ؟
لئن اتوك فمن جبن ومن خور ... قد ينهض العير نحو الضيغم الضاري
عليك للناس ان تبقى لنصرتهم ... وما عليك لهم اسعاد اقدار
لو يعلم الناس فيما ان تدوم لهم ... بكوا لأنك من ثوب الصبا عاري
ولو اطاقوا انتقاصاً من حياتهم ... لم يتحفوك بشيء غير اعمار

فحجب عنه وجه رضاه وما استرضاه وكتب اليه المعتمد بهزل :

الملك في طي الدفاتـــر ... فتخلّ عن قول العساكر
طف بالسريـــر مسلمـــاً ... وارجـــع لتوديـــع المنابـــر
وازحـف الى جيش المعا ... رف تقهر الحبر المقامـــر
واطعـــن باطـــراف اليرا ... ع نصرت في ثغر المحابر
واضرب بسكين الـــدوا ... ة مكان ماضي الحد باتر
اولست اسطالـــيس ان ... ذكـر الفلاسفـة الاكابـــر
وابـــو حنيفـة ساقـــط ... في الرأي حين تكون حاضر
وكـذاك ان ذكـر الخليل ... فانت نحويّ وشاعـــر
من هرمس من سيبويـــه ... من ابن فورك اذ تناظر
هذه المكارم قد حويت ... فكـن لمن حابـاك شاكـر
واقعـــد فانك طاعـــم ... كاس وقل هل من مفاخر
حجبّت وجه رضاي عنك ... وكـنت قد تلقاه سافـــر
اولست تذكـر وقت لو ... رقة وقلبك ثم طائـــر
لا يستقـــر مكانـــه ... وابـوك كالضرغـام خادر
هلّا اقتـــديت بفعلـــه ... واطعتـــه اذ ذاك آمـــر
قد كان ابصر بالعـــوا ... قب والموارد والمصادر

فكتب اليه ابنه الراضي :

مولاي قد اصبحت كافر بجميع ما تحوي الدفاتر
وفلـلت سكين الـدوا ة وظللت للاقلام كاسر
وعلـمت ان الملك ما بين الاسنـة والبواتـر
والمجد والعليـاء في ضرب العساكر بالعساكر
لا ضرب اقوال باقـوال ضعيفـات مناكـر
قد كنت احسب من سفا ه انها اصل المفاخـر
فاذا بها فرع لها والجهـل للانسان عاذر
لا يدرك الشرف الفتـى الا بعسّال وباتـر
وهجـرت من سميتهم وجحـدت انهم اكابـر
لو كنت تهوى منيتـي لوجدتني للعيش هاجـر
ضحك الموالي بالعبيـد اذا تؤمـل غير ضائـر
ان كان لي فضل فمنك وهل لذاك النور ساتر ؟
او كان لي نقص فمني غير ان الـفضل غامـر
وذكـرت عبـدك ساعـة يبقى لها ما عاش ذاكر
يا ليتـه قد غيبتـه عندهـا احـدى المقابـر
اتريـد منـي ان اكـو ن كمن غدا في الدهر قادر
هيهات ذلك مطمـع يعيي الاوائـل والاواخـر
لا تنس يا مولاي قو له ضارع لا قول فاخر
ضبـط الجزيـرة عندمـا نزلت بقفـرتها العساكـر
ايـام ظلت بها فريـدا ليس غير الله ناصر
اذ كان يغشى ناظـري لمع الاسنـة والبواتـر
ويصم اسماعـي بها قرع الحجـارة بالحوافـر

فقربه وصفح عما جناه ولم تزل الحال آخذة بالبوار والامور معتلة حتى قضوا بين الصوارم والرماح الخطية .

المأمون بن المعتمد قتله المرابطون في قرطبة والراضي يزيد قتلوه برندة .

ثورة عبد الجبار بن المعتمد :

واقام المعتمد بالعدوة لا يروّع له سرب وان لم يكن آمناً ولا يثور له كرب وان كان في ضلوعه كامناً الى ان ثار احد ابنائه باركش معقل كان مجاوراً لاشبيلية مجاورة الانامل للراح ظاهر على بسائط وبطاح لا يمكن معه عيش ولا يتمكن من منازلته جيش فغدا على اهلها بالمكاره وراح وضيّق عليهم المتسع من جهاتها ، فسار نحوه الامير سير بن ابي بكر فوجده وشره قد تشمّر وصرده قد تنمّر وجمره مستعر فتدارك داءه قبل عضاله ونازله وانحشدت اليه الجيوش من كل قطر فبقي محصوراً وامتسك شهوراً حتى اصيب بسهم فهوى ونحرّ قتيلاً في موضعه فدفن الى جانب سريره وبقي اهله ممتنعين مع طائفة من وزرائه حتى اشتد عليهم الحصر وارتد عنهم النصر وعمهم الجوع فنزلت منهم طائفة متهافتة فتبعهم من بقي ورغب التنعم من شقي فوصلوا الى قبضة الملمات وحصلوا في غصة الممات فوسمهم الحيف وتقسمهم السيف . ولما زأر الشبل خيفة سورة الاسد ولم يرج صلاح الكل والبعض قد فسد ، فاعتقل المعتمد خلال تلك الحال واثناءها وقال :

غنتك اغماتيــة الالحان ... ثقلت على الارواح والابدان
قد كان كالثعبان قيدك في الورى ... فغدا عليك القيد كالثعبان
متمــدداً بحذاك كل تمدد ... متعطفاً لا رحمة للعــاني
قلبي الى الرحمن يشكو بثه ... ما خاب من يشكو الى الرحمان
يا سائلاً عن شأنه ومكانه ... ما كان اغنى شأنه عن شأن
هاتيك قينته وذلك قصره ... من بعد اي مقاصر وقيان

ولما امتدت مدته واشتدت عليه قسوة الكبل وتوالت عليه الشجون قال :

انباء اسرك قد طبقّن آفاقاً ... بل قد عممن جهات الارض اقلاقا
سرت من الغرب لا يطوى لها قدم ... حتى اتت شرقها تنعاك اشراقا
فاحرق الفجع اكباداً وافئدة ... واغرق الدمع آماقا واحداقا
قد ضاق صدر المعالي اذ نعيت لها ... وقيل ان عليك القيد قد ضاقا
اني غلبت وكنت الدهر ذا غلب ... للغالـبين وللسيــاق سباقــا
قلت الخطوب اذلتني طوارقها ... وكان غربي الى الاعداء طرّاقا
حتى رأيت صروف الدهر تاركة ... اذا انبرت لذوي الاخطار ارماقا

ويقال انه لما ثار ابنه حيث ثار واثار من حقد امير المسلمين عليه ما اثار جزع جزعاً شديداً وعلم انه صار في انشوطة الشر متورطاً وجعل يتشكى من فعله ويتظلم ويتوجع ويتألم ويقول : «عرّض بي للمحن ورضي لي ان امتحن» . ثم اطرق ورفع رأسه وقد تهللت اسرته ورايته قد استجمع وتشوق الى السماء وتطلع فعلمت انه قد رجا العودة الى سلطانه والاوبة الى اوطانه وقال :

كذا يهلك السيف في جفنه ... الى هز كف طويل الحنين
كذا يعطش الرمح لم اعتقله ... ولم تروه من نجيع يميني
كذا يمنع الطرف علك الشكيم ... مرتقبـاً غرة في كمين
كأن الفوارس فيـه ليوث ... تراعي فرائسها في عرين
الاشرف يرحـم المشرفي ... مما به من سمات الوتين
الاكرم ينعش السمهـري ... ويشفيه من كل داء دفين
الاحنـة لابـن محنيـة ... شديد الحنين ضعيف الانين

وكانت طائفة من اهل فاس قد عاثوا فيها وفسقوا وانتظموا في سلك الطغيان واخذوا البنين من حجور آبائهم وامهاتهم والبنات وتلقبوا بالامارة واركبوا السوء انفسهم الامارة حتى كادت ان يقفر على ايديهم وتدثر رسومها بافراط تعديهم الى ان تدارك امير المسلمين امرهم واطفأ جمرهم واوجعهم ضرباً وسجنهم باغمات والمعتمد اذ ذاك معتقل هناك . وكانت فيهم طائفة شعرية مدنية او برية فرغبوا الى سجانهم ان يستريحوا مع المعتمد من اشجانهم فخلّى ما بينهم وبينه وغمض لهم في ذلك عينه فكان المعتمد يتسلى بمجالستهم ويستريح اليهم بجواه ويبوح لهم بسره ونجواه الى ان شفع فيهم وانطلقوا من وثاقهم وبقي المعتمد يشتكي من ضيق الكبل ويبكي بدمع كالوبل فدخلوا عليه مودعين ومن بثه متوجعين فقال :

اما لانكساب الدمع في الخد راحة ... لقد آن ان يفنى ويفنى به الخد
هبوا دعوة يا آل فاس لمبتلى ... بما منه قد عافاكم الصمد الفرد
تخلصتم من سجن اغمات والتوت ... عليّ قيود لم يحن فكها بعد
فهنئتم النعما ودامت لكلكم ... سعادته ان كان قد خانني سعد
خرجتم جماعات وخلفت واحداً ... ولله في امري وامركم الحمد

المعتمد وابنته بثينة :

بثينة هذه بنت المعتمد بن عباد وامها الرميكية وكانت بثينة تفوق امها جمالاً وتجيد نظم الشعر . ولما احيط بابيها ووقع النهب في قصره كانت في جملة من سبي ولم يزل المعتمد والرميكية عليها في وله دائم لا يعلمان ما آل اليه امرها الى ان كتبت اليهما بالشعر المشهور بين الناس في المغرب وكان احد تجار اشبيلية اشتراها على انها جارية سرية ووهبها لابنه فنظر من شأنها وهيئت له فلما اراد الدخول عليها امتنعت واظهرت نسبها وقالت : لا احل لك الا بعقد النكاح ان رضي ابي بذلك واشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلها لابيها وانتظار جوابه فكان الذي كتبته بخطها من نظمها ما صورته :

اسمع كلامي واستمع لمقالتي ... فهي السلوك بدت من الاجياد
لا تنكروا اني سبيت وانني ... بنت لملك من بني عباد
ملك عظيم قد تولى عصره ... وكذا الزمان يؤول للافساد
لما اراد الله فرقة شملنا ... واذاقنا طعم الاسى من زاد
قام النقاق على ابي في ملكه ... فدنا الفراق ولم يكن بمراد
فخرجت هاربة فحازني امرؤ ... لم يأت في اعجاله بسداد
اذ باعني بيع العبيد فضمني ... من صانني الا من الانكاد
وارادني لنكاح نجل طاهر ... حسن الخلائق من بني الانجاد
ومضى اليك يسوم رأيك في الرضا ... ولانت تنظر في طريق رشادي
فعساك يا ابت تعرفني به ... ان كان ممن يرتجى لوداد
وعسى رُمَيكِيَةُ الملوك بفضلها ... تدعو لنا باليمن والاسعاد

فلما وصل شعرها لابيها وهو في اغمات واقع في شراك الكروب والازمات سرّ هو وامها بحياتها ورأيا ان ذلك للنفس من احسن امنياتها اذ علما ما آل امرها وجبر كسرها اذ ذاك اخف الضررين واشهد على نفسه بعقد نكاحها من الصبي المذكور وكتب اليها اثناء كتابه ما يدل على خشن صبره المشكور :

بنيتـــــي كوني به برة ... فقد قضى الدهر باسعافه

وقال ابن حمديس الصقلي في دار بناها المعتمد بن عباد :

ويا حبذا دار قضى الله انها ... يجدد فيها كل عز ولا يبلى

مقدسة لو ان موسى كليمه مشى قدما في ارضها خلع النعلا
وما هي الا خطة الملك الذي يخط اليه كل ذي امل رجلا
اذا فتحت ابوابها خلت انها تقول بترحيب لداخلها اهلا
وقد نقلت صناعها من صفاته اليها افانينا فاحسنت النقلا
فمن صدره رحبا ومن نوره سنى ومن صيته فرعا ومن حمله اصلا
فاعلت به في رتبة الملك ناديا وقلّ له فوق السماكين ان يعلى
نسيت به ايوان كسرى لأنني اراه له مولى من الحس لا مثلا
كأن سليمان بن داود لم تبح مخافته للجن في صنعه مهلا
ترى الشمس فيه ليقة تستمدها اكف اقامت من تصاويرها شكلا
لها حركات اودعت في سكونها فما اتبعت في نقلهن يد رجلا
ولما غشينا من توقد نورها تخذنا سناه في نواظرها كحلا

ابو الوليد حسن بن المصيصي

عن المعقل وأنهى الأثر عمن فر ونام النجم الغيهب عن الفل وعادت بهم

بقصبة المدينة فولجوها ثم بلغ العصور ويقوم العشر فأغلقوا

الأبواب واسدلوا الحجاب ونحن نطل الحرم ونوحد لا أول غرب ولا ملت

حرب نحت الحراب ونحمي العلج ونخرب الديار وبنيانها ونهدم البيع

وصلبانها ونتناحر بهرايا السبايا ونتكاشفوا عن بقايا الغبايا ونصرخوا

بنبأ تأصرعة الحتوف وعلبته السيوف فلا طلاء هدم وعلى رسومه

ردم حتى علا على الشرك الإيمان وبدل الناقوس بالأذان وزحزحت

الهبات عن موضعها وطرحت النواقيس عن بيعها ولاذ بنا من هنالك

من المسلمين عابرين مستسلمين لنا فناشدونا بالملة وذممها وكشفوا

لنا عن الخلة وسترتها وبين من الجملة إلى الجمهرة فأوينا شاردهم وأمنا

فاعرهم فانجاب كل بيتهم وعادت بعد البوار ومجاورة الكفار بشر

دار ملتهم وأنار لهم الإسلام على منار الإيمان المجدد واشتهر فيهم التوحيد

اشتهار الحسام المجرد وكشف الدين عن مضمره وخطب الحق المبين على

منبره وأقمنا فيه يومنا على ذلك إلى انتصاف النهار وحان من الشمس

الاصفرار فعند ذلك أخذنا البوادي وغيضت تلك الدماء الهوامي

وعدنا الخميس في الخميس مثبتا على ذلك التأسيس بعد إدبار الظهر
والغد الأوفر بتتبع الأوائل بالتوالي ونشهد العوالي بالعوالي
فأصبحنا في عز وأنس وأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كأن لم يغنوا بالأمس
وتضامت تلك العصبة إلى تلك العصبة والقوم في السجن والحصر
في الحصن كالواجد في العالم والإصبع في الخاتم والمحصور مأسور
وطاحت لغائبك مفهوم ولم نزل نوسعهم قتالا ونوجعهم ضربا ونكالا
مسابقة اليوم إلى أن خرج النهار من مده وبث الليل جنده فعدنا إلى محلتنا
وقد أطال الكلال أينه وغلبت الساهر عينه وكنت لم أزل أخبر أنها للمحلة
بطلائع تخرج من جهاتها وتبرز آفاتها وفي الفرس ما يشبه النزر ويفوت
أنغر لا من كفاية الله جل من توقينا وكان الطاغية زاده الله ذلا
فر حشر أقطاره وحشر أنصاره وأبعد في الاستصراخ مضماره وعبأ
جيشا فركبوا إلى الدمن وانطووا على غمر ما فرط وصمم وبين ما بهم
فما تشلمن جماعتهم على ابن الطاء إذ فونش وسخمهم وزعيم قومهم
غرمته أرذونش وطحنا منو كنتهم البرهان والقمط بقبرة وقواد
الأد لطبلة وطاحت واقعة السور ووقعه عن الفلاة وكافأ وداد

على القائم به آخر ابن زهره وهبات من ماله عن يد جنبشة المؤمنين ع
بيد وأجبت داعي الله بأعظم نية على أكمل صفة لعزمة بيمناه
رأسها وعلى تقواه أساسها وأطدها وسرنا عن حاضرة اغرناطة حرسها الله
في العشر الأواخر من شهر رمضان المعظم بجيش تصم صواهله وتطم
كواهله راياته خافقة وعزماته صادقة وبراته على ألسنة الشعر
ناطقة ومررنا من طاعة أمير المسلمين وناصر الدين على جهات سمعت
منادينا وتبعت هادينا وانقادت ورانا اغراد وامراد برزوا من كمون
وتحركوا عن سكون وأنشا بتغ ببشاشة وقرت أوامر الجمع وبلي البصر والسمع
وأخذت في الرأي أحزمه والعزم أصرمه والذيل أشمره وجردت
الاستخارة لله تعالى والاستجارة به وابتهلت إليه داعيا ضارعا وعولت
في جميع أموري على حكمه خاضعا متواضعا ولحقنا بطرف بلاد العدو
أعادها الله فوطئناها من هنالك وقربنا من عنوان الأهبة والتام بنيان
الرتبة وسرنا في بعض بيننا على أرض بعض غبطا ولسيول
الخيل الغزار وللبرق والقواتر إشراق وقد نطقت ألسنة الأعنة بقرام
قرام وأشرقت كواكب الأسنة في غمام القتام ومرت الهبوات كل نهج

وميز المشتغلة الرايات عن قبيل وقبيل وأفضت بنا الخبرة الى المدينة
الحصينة افليش فاغرة الفم وواسطة النظم ذات العدد العديد
والسور المشيد فبرز السابق وشفع اللاحق وغزونا يوم الاربعاء
لاربع عشرة ليلة خلت من شوال فبرزنا بهادور الحلقة بنفطها واكتنفنا ها
اكتناف الشبعة بسلكتها ونهد القوم واتسع الخرق عن الغيم وحاروا
وحاموا حين راموا وجئنا بكل ضرب من الحرب تسيب عالبها
ونسيف هاويها ونلزها بالرماح ونهزها هز الغصن في أيدي الرياح
حتى فض الختام وعض منهم الابهام وعجل الله بالنصر وفتحها بالقسر
ونفخ في صورهم ودارت دائرة السوء بدورهم وعمقتهم السيوف محق
الربا واذرتهم ريح النصر فطاروا هباء وبطحوا بطح زرع الحصيد وبسطوا
بسط كلب الوصيد واخذتهم فجاءتنا اخرة وبرزت بهم سطوتنا
نبرة فخر والان الاذقان وسيقوا الى الموت والاذعان فما كن نازل حتى
كرنا الى المنزل وما اغتنا حتى رضخنا ولا وطينا اليه حتى حططنا عليه
فوردنا ما اردنا ولما استحر فيهم القتل واجتث منهم الاصل وطاف
بهم الازدحام وغص ذلك المقام فض الوقت المبعث وشغل الاخبار

وعاجل وإن أخزى الله جميعهم وطل نجيعهم ولا أقام هم بعدهم دن
وهذا دعا الوسلت كعبنة لأني سألت الله ربي وقد فعل

وكانوا من ضرب مخيمهم ببروز الجرة وبطلهم وصلقا تحت القرة وتفرقوا
فتفرقوا ودنوا فهووا ووطئوا فحطوا وأرسل الله تعالى من جنده فتى كان
قد سبوه صغيرا واقتنوه أسيرا ولله تعالى فيه خبأة أعدها من عنده
وبعثه من جنده ونزع الفتى البنا من معسكرهم منتبا بنمر دا الأمر عليهم وكان سقا
بهم على النيل العظيم ومطلقا منه على المقعد المقيم وبعد ذلك ثارت
ثايرتنا ودارت على مركز التوحيد دايرتنا وقام الفاعل وأشار البنان
والشاعر ونطق القريب والمتباعد والليل قد هدأ والصبح قد بدا والرياح
ممدودة الشراد ومجموعة القياد ولا جار إلا الغاسق ولا مار إلا السما
والطارق وكنت قد استندت القايد بن الحجر بن د ويدا النصيحة والآراء
الصحيحة أبا عبد الله محمد بن عايشة وأبا محمد عبد الله بن فاطمة وليس أعزهما
فجائي ومضا وساع واضطلاع بذرع وذراع فاجتمعا على كلمة الله
متعاقدين وخضعا إلى حكمه مستسلمين وبعد ذلك دخل بنو المجنسني
وقيل يا خيل الله اركبي وعادت الآراء بالرايات وحكمت النهاية البطايا

والصفاح تسيل في أمادها والنصول تصول في أغمادها وثرنا كما ثار الشهم بفرصته وطار السهم لغرضه وأمرنا رجالا بلزوم المحلة فسدّوا فرج أبوابها ولاذوا بأوتادها وأسبابها فرازوا بها دور الأسوار وانتظموها انتظام الأسوار فشرعوا الأسنة من أطرافها وأجالوا الذوابل في أكنافها وأقاموا الأقنية وضربوا بين الأخبية وعبأنا الجيش بميمنته وميسرته وضربنا طبوله ونشرنا ألويته ونهضنا بجملتنا من محلتنا والصبر يفرغ علينا لامة والنصر يبلغ إلينا سلامه ونوجهنا إلى الله نبتغي سبيله ونتبع دليله فما رفع الفجر من عينه ولا انسلخ الصبح عن ثيابه حتى أرهقت الوثبة الزبن سامية الأعلام واتسعت أقضية المسلمين ماضية الأحكام وقبض الليل خمسه وفضح الصبح نفسه ولمن السنا لمعان ولشباب الفجر ارتعان ولا نعاق إلا إعلان ضراب أو طعان وعز ذلك أن نجم الفجر في سواد الليل وازداد السيل يقطعون إلى داعيهم ويهرعون إلى ناعيهم في دروع كالنوار ورماح كالصوارم كأنما سحرت بالألباب وتغنوا في الحرب بزجعور الجبن يحملهم ويركبون الحتف بأرجلهم يلمعون بلمظ الحـ ـت

فتحالفوا أن لا يتخاذلوا وتبايعوا أن يتتابعوا ووصلوا إلى مقر مثنا وثـ

هنالك القائد أبو عبد الله محمد بن ايد زنغي مع جماعة فصدمهم العدو

بصدور غزيرة وقلوب أشرة بما نحو بكيده ورموا بجندل وشرر

فما ردوا وصادروا فما صبروا وتفقد القائد أبو عبد الله غير موطن

وتراجع غير مجل إلى أن اشتد منا بطود وزحم من جيشنا بعود فتراءى الجمعان

وتدانا العسكران وأمسكنا ولا حذر ووقفنا والأناة بمن وعند ذلك ثار

النصر فبدر منا وانثنى الصبر فاشتهر منا ونزلت السكينة واحتجبت

القلوب السكينة واقتحمنا المجد من مابحة وهززت الشفاه شوقها بحدة

وبحثت العيون سببا وطلبت البوارق سببا وأذن الحديد بالجلاد

وبرزت السيوف عن الأغماد وتصهلت الخيول وتصاوت القبول

وعند ذلك توافق القوم كوقفة العير بين الورد والصدر فبرز فارس

من العرب فطعن فارسا منهم فأذراه من متنه ورماه بين يدي موكـ

فانشرح ما ارتج وانفتح المبهم وافصح المعجم وعند ذلك اختلطت الخيل

بن سقر السيل وأظلم الليل واعتنق الفرسان وأبرقت الخرصان ودجى

ثار القتام وضاق مجال الجيش اللهام واختلط الحسام بالأجسام والأرماح

بالاشتباك ودارت رحى الحرب تغري بأبطالها وثارت ثائرتها للطعن والضرب
تقتحم بأبطالها فتقتحم الصدور ابتدارا وتجزم القلوب انتهالا فما وضح
النهار ولا مسح الغبار حتى خضعت منهم الرقاب وقبلت رؤوسهم التراب
واتصل الهلاك بالشرك وعادت الضالة الى المالك وقلم ظفر الكفر
وطالت ايمان الايمان وقر الطبيب سليبا وعجم عود الاسلام وكان رطيبا
وغمرهم الحتف فبهروا وأصماهم الحين فخمدوا ومات جلهم بل
كلهم وما نجا الا أقلهم وخانوا بما نووا وقبل كانوا وكشفت الهبوات
انجلت تلك الهنات عن رسوم دثور فرقصت بها البواتر ووصفتها
لجوارح خاضعة الخدود عاثرة الجدود وأخذت ساقتنا في الطلب
ثم النهب الى السلب وملئت الايدي نيلا وامتد الكيل خيلا وبغالا
بيدا وجمالا ودروعا أكلهم حملها واثقلهم حملها فساءت ملبسا
طرحت محبسا فطرحوها كأنهم نحوها والقوها كأنهم اعطوها
اختاها نهبا واخذناها اذ لم تكن غصبا لقطة ولا ركزا وغنيمة ولغيرهم
لشهم ثم امرت بجمع الرؤوس فاجتنت الزابية وزهد في جمع النابية
ثم جمعها نيفا على ثلاثة الاف منهم عن سبيه ازدوبنر والقوم

وقواد بلاد طبنة وأكابر منهم لم يحمل الأرض البغي عنهم ودانت
لنا الحصون لجسيم بل القود العظيم وأذن علينا المودة نون يوحدون الله
ويكبرون فلما جاء نصر الله ووهب لنا فتح الله شكرنا مولى النعم
ومسديها ومعيد المنن ومعيدها وصرفت عنانا وأبت سالمة وبقي
القائد ابن غاصن لحصار البلد آخرين تحت مشغولين على رغمهم
فخاطبت أمير المسلمين أدام الله نصره ووطد سروره معلما بالأمر
مهنيا بالنصر فليحمد الله عز وجل على ما وهب ونشكره على ما أسنى وسبب
والله يدلكم بالمزيد ونسعى الفريم بالجزيل ونمن بالظفر والتأييد
فهو ولي الامتنان والملي بالفضل والإحسان لا رب غيره ولا معبود سواه

رسالة كتب بها قاضي قسنطينة والجمهور
فيها إلى الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين
حين حاصرها ابن ردمير واستعملها أعادها

من المستمسك بطاعة سلطانه ومستنصره على أعداء الله ثابت بن يبرا
وجماعة من قسنطينة من الجماعة هنا من عباد الله
أطال الله بقاء الأمير الأجل الأوحد الأفخر والحفل لحرم الإسلام

من كرب عظيم على المسلمين يزيحه عنهم ويرفعه

فإننا أنزل الله بقواه وقدره لا نشير إذا حسناه بحاضرة غزاة يوم

الثلاثاء السابع عشر من الشهر المبارك شعبان عن حال قد عظم بلاؤها

إذ همت ضراوتها فنحن في كرب عظيم وخطر أليم قد حل العز أ

الخطب وأظلنا الهلاك والعطب فاستغثناه ثم استغثناه إلى الله دعوة

من دعاه وأمله لرفع الضر ورجاه سبحانه المرجو عند الشدائد

الجميل الكرم والعوائد وبالله وبالإسلام نعرا انتهك حماه وفضت

عراه وقام أناس من يصونه عزاه وأحضرنا على حضرة قد شب

على شمع الهلاك طالما عمرت بالإيمان وازدهت بإقامة الصلوات وتلاوة

القرآن ترجع مرابع للشيطان ومشاهد مهمة لعبدة الأوثان وياويلاه

على مسجد جامعها الكريم وقد كان زمانا متلاوة القرآن المعظم تطوه الكفرة

الآن بين منبرهم أقدامها ويؤملون أن يدنسوه بخبيث أقدامها ويعمرونه بعبادة

أصنامها ويتخذونه مغاصا لغاراتها ومواطن لخماراتها ومواخيرها ثم

أحسرتاه على النسوة المؤمنات عذارى بعد أن كن ربات الأمان وعلى رجال القوم

حيارى بارضة بسيدان وهم في بيدان ولا أدري الذي دهمهم من بر والنعم

الفصل الثالث
معركة إقليش

في فاتح سنة ١١٠٨ عبر ابو الحسن علي الى الاندلس ، وكان ينوي قتال النصارى بكل ما اوتيه من عزم وقوة . عهد بالقيادة العليا الى اخيه الاكبر تميم ابي الطاهر الذي عيّن واليا لاشبيلية ، فخرج تميم من غرناطة على رأس جيش ضخم متجهاً نحو حدود النصارى وهو يضطرم رغبة في القتال وحالت دون تقدمه في قلب قشتالة قلعة «اقليش» فضرب حولها الحصار في الحال . ولما وقف الملك الفونسه السادس الهرم على ذلك وعلم بما حاق المدينة المحصورة من الضيق اشتد به الالم والحزن اذ ان ضعف الشيخوخة يحول دون سيره على رأس جيشه لمحاربة اعداء دينه ، ولكنه رأى نزولاً على رأي زوجته لكي يثير حماسة جنده ان يرسل الى ساحة الوغى ولده الوحيد شانجه الذي رزق به من زائدة كنة المعتمد بن عباد ملك اشبيلية السابق مع انه لم يكن تجاوز الحادية عشرة من عمرة وامر مؤدبه القند «غرسية دي قبرة» وجميع القادة ان يحرصوا كل الحرص على حياة الابن .

فلما رأى ابو طاهر تميم اقتراب قوات العدو من اقليش اراد رفع الحصار والنكوص على اعقابه ، ولكن اكابر قادة المرابطين استطاعوا بعد عناء اقناعه بخوض المعركة . وكانت حال الجيش المرابطي مع ذلك تدعو الى التوجس واليأس لأنه اذا لم يربح المعركة سدت في وجهه جميع سبل الفرار .

وعند الفجر هجم المسلمون على القشتاليين في فيض من الشجاعة والعنف ولم يتمكن النصارى من الصمود لهجوم يحدوه اليأس فاضطروا الى التراجع رغم شجاعتهم ورباطة جأشهم . ومن سوء الطالع ان ازدلف الامير الفتى شانجه الى قلب المعمعة فبادر اليه الاعداء متحمسين وتقدم القند غرسية يدرأ عنه الخطر بدرعه ويحاول انقاذه بكل ما في وسعه فلم يغن دفاعه شيئاً وسقط القند ضحية واجبه وسقط الى جانبه ولي عهد مملكة قشتالة .

ما كاد يذاع النبأ بين النصارى ان شانجه قتل حتى ولوا الادبار اشتاتاً وقتل المرابطون منهم مقتلة عظيمة وانتهزوا فرصة الروع السائد فاستولوا على اقليش عنوة وسقط في ميدان الوغى عشرون الفاً من النصارى وسبعة من «اقناد» قشتالة . والمسلمون بدورهم كانت خسائرهم ايضاً كبيرة ، وهذا ما يفسر توقفهم عن متابعة مطاردة العدو والتوغل في ولاية طليطلة ولم يستولوا الا على بعض المدن الواقعة على مقربة من اقليش مثل قونكة واوبذة وكنشرة واوريلية وامستريغو .

جرت المعركة في ٢٩ ايار ١١٠٨ .

هذا باختصار ما رواه مؤرخونا عن تلك المعركة ، اما المسلمون فقد اسهبوا في وصفها . **وهذه رسالة كتبها الوزير ابن شرف الى امير المسلمين علي بن تاشفين في فتح اقليش :**

«اطال الله بقاء امير المسلمين وناصر الدين عماد الانام وعتاد الاسلام السعيد الايام الحميد المقام كبيري بالقدر وظهيري على الدهر ، الذي اجله بحقه واقر له بسبقه وادام خلوده مؤيد الارادة ، مؤيد السعادة مجدد النمو والزيادة ، الحمد لله الجبار القهّار الذي شد الازر وامد النصر واعطى الفَلْج (بسكون اللام : الفوز والظفر) ، عن قسر ففلق عنه يد الماطل وفرّق فيه بين الحق والباطل . والحمد لله الذي اسعد بدولة امير المسلمين الايام ونصر بسيفه الاسلام وغاظ به الكفار وجعل عليهم الكرة فولوا الادبار . والله تعالى يشفع سعوده ويضمن مزيده وينصر جنوده بمنه .

ولما ان وضعني امير المسلمين ادام الله نصره حيث شاء من آلة التشريف والعز المنيف والحفني من النعماء سربالها واسحبني اذيالها ، وصرف اليّ من عدده وبلده ما اولاني نعمه ووالاني كرمه ، حفظت تلك الحرمة وشكرت لاستزيد من تلك النعمة واخذت بالاجتهاد في الجهاد عالقاً بسببه آخذاً بمذهبه . وهيأت من ماله عندي جيشه الموضوع بيدي ، واجبت داعي الله باعظم نية على اكرم طية ، لعزمة بيمناه رأسها وعلى تقواه اساسها واصلها ، وسرت عن

حاضرة غرناطة حرسها الله ، في العشر الاواخر من شهر رمضان المعظم ، بجيش تصم صواهله وتطم كواهله ، راياته خافقة ، وعزماته صادقة ، ونبراته على السنة السعد ناطقة . ومررنا من طاعة امير المسلمين وناصر الدين على جهات سمعت منادينا وتبعت هادينا وانقادت وراءنا اعداد وامداد برزوا من كمون وتحركوا عن سكون ، وانخنا بثغر «بياسة» وقد توافد الجمع وملء البصر والسمع واخذت في الرأي احمره والعزم اضمره والذيل اشمره ، وجددت الاستخارة بالله تعالى والاستجارة به وابتهلت اليه داعياً ضارعاً وعولت في جميع اموري على حكمه خاضعاً متواضعاً ، ولحقنا بطرف بلاد العدو ، اعادها الله ، فوطئناها من هنالك وقد بان عنوان الاهبة والأم بنيان الرتبة وسرنا بجيش يفيض فيضاً على ارض تفيض غيظاً ، ولسيول الخيل اغراق ولبروق البواتر اشراق ، وقد نطقت السنة الاعنة بقدام قدام واشرقت كواكب الاسنة في غمام القتام وسدت الهموات كل نهج وسبيل ، واستقلت الرايات عن قبيل فقبيل ، وافضت بنا الخيرة الى المدينة الحصينة «اقليش» قاعدة القطر وواسطة الصدر ، ذات العدد العديد والسور المشيد ، فبدر السابق وشفع اللاحق ، وغدونا يوم الاربعاء لاربع عشرة ليلة خلت من شوال فدرنا بها دور الحلقة بنقطتها واكتنفناها اكتناف السبحة ببسطتها . وبهت القوم واتسع البحر عن العوم وحاروا وخاموا (خام عن القتال : جبن وتراجع) حين راموا ، وجئنا بكل ضرب من الحرب نخسف عاليها وننسف هاويها ونلزها بالرماح ونهزها هز الغصن في ايدي الرياح ، حتى فض الختام وغص منهم الابهام وعجّل الله بالنصر وفتحها بالقسر ونفخ في صدورهم ودارت دائرة السوء بدورهم ومحقتهم السيوف محق الربا واذرتهم ريح النصر فصاروا هباً ، وبطحوا بطح زرع الحصيد وبسطوا بسط كلب الوصيد واخذتهم فجأتنا اخذة ونبذت بهم سطوتنا نبذة ، فخروا الى الاذقان وسيقوا الى الموت والاذعان ، فما كدنا ننزل حتى كندنا ذلك المنزل وما انخنا حتى رضخنا ولا وصلنا اليه حتى حصلنا عليه فوردنا ما اردنا .

ولما استحر فيهم القتل واجتث منهم الاصل وضاق بهم المزدحم وغصّ ذلك الملتحم قصر الوقت المبغت وشغل الاخيذ عن المفلت ، والهي الكثير عن من قلّ ونام الجم الغفير عن الفل وعادت بقاياهم بقصبة المدينة فولجوها كما يلج العصفور ويقوم العثور ، قد غلقوا الابواب واسدلوا الحجاب ونحن نصل الجد ونوحر لافل غرب ، ولا ملت حرب ، نجتث الجراثم ونحتز القلاصم ونخرب الديار وبنيانها ونهدم البيع وصلبانها ونتتاحف بهدايا السبايا ونتكاشف عن بقايا الحبايا ونصرح بنياناً صدعته الحتوف وغلبته السيوف فلا طلاله هدم وعلى رسومه هدم ، حتى علا على الشرك الايمان وبدل الناقوس بالايذان ، وزحزحت الهياكل عن موضعها وطرحت النواقيس عن بيعها ولاذ بنا من هنالك من المسلمين عائذين بنا مستسلمين لنا ، فناشدونا بالملة وحرمتها وكشفوا لنا عن الخلة وسرتها وفروا من الحملة الى الحمة فاوينا شاردهم واقمنا قاعدهم فانجابت كربتهم وعادت بعد البوار ومجاوبة الكفار بشر دار ملتهم . وانار لهم الاسلام على منار

الايمان المجدد واشتهر فيهم التوحيد اشتهار الحسام المجرد ، وكشف الدين عن مضمره ، وخطب الحق المبين على منبره . واقمنا بقية يومنا على ذلك الى ان خام النهار وحان من الشمس الاصفرار . فعند ذلك ارحنا البواتر وغيضت تلك الدماء الهوامر وغدا الخميس في الخميس مبنياً على ذلك التأسيس ، يجر اذيال الظفر في العدد الاوفر ويشفع الاوالي بالتوالي ويشتري العوالي بالعوالي فاصبحنا في عز وانس ، واصبحوا لا ترى الا مساكنهم كان لم يغنوا بالامس وتضامت تلك العصبة الى تلك القصبة والقوم في السجن والحصن في الحصن كالواحد في العالم والاصبع في الخاتم ، والمحصور مأسور وصاحب الحائط مقهور . ولم نزل نوسعهم قتالاً ونوجعهم ضراً ونكالاً مسافة اليوم الى ان جزر النهار مده وبث الليل جنده فعدنا الى محلنا . وكنت لم آل احتراساً للمحلة بطلائع تحرس جهاتها وتدرأ آفاتها وفي القدر ما يسبق النذر ويفوت الحذر لكن كفاية الله خير من توقينا .

وكان الطاغية زاده الله ذلاً ، قد حشد اقطاره وحشر انصاره وابعد في الاستصراخ مضماره وعبّأ جيشاً قد اسر الى ذمر وانطوى على غمر ، فاقدم وصمم وبؤس ما تيمم فاستلمت جماعتهم على ابن الطاغية اذفونش وشيخهم وزعيم فرسانهم «غرسية ارذونش» ، وصاحب شوكتهم «البرهانس» والقمط «بيقدره» وقواد بلاط طليطلة وصاحب قلعة النسور وقلعة عبد السلام ، وكل قاص ودان وعاجل ووان ، اخزى الله جميعهم ، وطل نجيعهم ولا اقام صريعهم .

«وهذا دعاء لو سلكت لقيته لأني سألت الله ربي وقد فعل»

وطرقوا من طرف مجتمعهم يريدون الغِرّة ويُظْهرون صَلفاً تحت الغرة وتقدموا فتندموا ودنوا فهووا ، ووصلوا فحصلوا ، وارسل الله تعالى من جنده فتى كان قد سبوه صغيراً واقتنوه اسيراً ولله تعالى فيه خبأة اعدها من عنده وبعثها من جنده . ونزع الفتى الينا من عسكرهم منبئاً بهم دالاً عليهم وكاشفاً بهم عل النبأ العظيم ومطلعاً منهم على المقعد المقيم ، فعند ذلك ثارت ثائرتنا ودارت على مركز التوفيق دائرتنا وقام القاعد واشار البنان والساعد وتضام القريب والمتباعد ، والليل قد هدأ والصبح قد بدأ ، والدياجير ممدودة السرادق مجموعة الفيالق ولا جار الا الفاسق ولا مار الا السما والطارق . وكنت قد استدنيت القائدين المجربين ذوي النصيحة والآراء الصحيحة : ابا عبد الله محمد بن عائشة وابا محمد عبد الله بن فاطمة متعاقدين وخضعنا الى حكمه مستسلمين ، فعند ذلك حلّ يده المحتبي وقيل يا خيل الله اركبي ، فعادت الاراء بالرايات وحكمت النهي في النهايات والاسنة تجول في آمادها والنصول تصول في اغمادها . وثرنا كما ثار الشهم بفوصته وطار السهم لفوضته وامرت رجالاً بلزوم فسدوا فرج ابوابها ولاذوا باوتادها واسبابها فداروا بها دور السوار وانتظموها انتظام الاسوار . قد شرعوا الاسنة من اطرافها واجالوا البواتر في اكنافها واضاقوا الافنية وقاربوا بين الاجبية . وعبأنا الجيش يمناه ويسراه وصدره ولهاه وساقته وادلاه . ونهضنا بجملتنا من محلتنا والصبر يفرع علينا لامه والنصر يبلغ الينا سلامه وتوجهنا الى الله نقتفي سبيله ونبتغي دليله ، فما رفع الفجر من حجابه ولا كشر الصبح عن نابه

حتى ارتفعت الوية الدين سامية الاعلام واتسعت اقضية المسلمين ماضية الاحكام ، وقيض الليل خمسه وفضح الصبح نفسه ولسّن السنان لمعان ولشباب العراك ريعان ولانفاق الاعلام ضراب او طعان وعند ذلك نجم «العجم في سواد الليل وازباد السيل ، يهبطون الى داعيهم ويهرعون الى ناعيهم في دروع كالبواري ورماح كالصواري كأنما شجروا باللديد وسجنوا في الحديد ، يزحفون والحين يعجلهم ويركبون والحتف يزحلهم ، يتلمظون تلمظ الحيات قد تحالفوا ان لا يتخالفوا وتبايعوا ان يتشايعوا ووصلوا الى مقدمتنا وكان هناك القائد ابو عبد الله بن ابي زنقي مع جماعة فصدمهم العدو بصدور غرة وقلوب اشرة ، فانحو بكلكل ورموا بجندل وشدوا فما ردوا وصادروا فما صدوا ، وتقهقر القائد ابو عبد الله غير مولّ وتراجع غير مخل الى ان اشتد منا بطود وزحم من جيشنا بعود فتراءى الجمعان وتدانا العسكران وامسكنا ولا جبن ووقفنا والقناة يمن فعند ذلك ثار النصر فمد يمناه وأناط الصبر فاشرق محياه ونزلت السكينة واخلصت القلوب المستكينة واهتزت الفيالق مائجة وهدرت الشقائق هائجة وجحظت العيون غضباً وطلبت البواتر سبباً ، واذن الحديد بالجلاد ، وبرزت السيوف من الاغماد وتصاهلت الخيول وتصاولت القيول فعند ذلك تواقف القوم كوقفة العير بين الورد والصدر ، فبرز فارس من العرب فطعن فارساً منهم فاذراه من مركبه ورماه بين يدي موكبه فانتهج ما ارتج وانفتح المبهم وافصح المعجم فعند ذلك اختلطت الخيل بل سال السيل واظلم الليل واعتقت الفرسان واندقت الخرصان ودجا ليل القتام وضاق مجال الجيش اللهام واختلط الحسام بالاجسام والارماح بالاشباح ، ودارت رحى الحرب تفر بنكالها وثارة ثائرة الطعن والضرب تفتك بابطالها فلثغر الصدور ابتراد ولجزم القلوب انتهاد . فما وضح النهار ولا مسخ الغبار حتى خضعت منهم الرقاب وقبلت رؤوسهم التراب . واتصل الهلك بالشرك وعادت الضالة الى الملك وقلم ظفر الكفر وطالت ايمان الايمان وفر الصليب سليباً ، وعجم عود الاسلام فكان طيباً ، وغمرهم الحيف فهمدوا واطفأهم الحين فخمدوا . ومات جلهم بل كلهم وما نجا الا اقلهم وحانوا فبانوا ، وقيل كانوا وكشفت الهبوات وانجلت تلك الهنات عن رسوم جسوم قد قصفتها البواتر ووطأتها الحوافر ، خاضعة الخدود عاثرة الجدود .

واخذت ساقتنا في الطلب وضم السلب الى السلب . وملئت الايدي بنيل وافي الكيل خيلاً وبغالاً وسلاحاً ومالاً ودروعاً اكلهم حملها واثقلهم جملها . فساءت ملبساً وصارت محبساً فطرحوها كأنهم منحوها والقوها كأنهم اعطوها . احتزناها نهباً واخذناها كأن لم تكن غصباً . لقطة ولا نكز وعطية ولغيرهم شكر .

ثم امرت بجمع الرؤوس فاحتزت الدانية وزهد في جميع النائية فكان مبلغها نيفاً على ثلاثة آلاف منهم غرسية ارذونش والقومط وقواد بلاد طليطلة واكابر منهم لم يكمل الآن البحث عنهم . فكانت كالهضب الجسيم بل الطود العظيم . واذن عليها المؤذنون يوحدون الله ويكبرون .

فلما جاء نصر الله ووهب لنا فتح الله شكرنا مولي النعم ومسديها ومعيد المنن ومهديها وصدرت غانماً وابت سالماً وبقي القائدان محاصرين لحصن اقليش آخذين بمخنقهم مستولين على ربعهم .

فخاطبت امير المسلمين ادام الله سروره ووصل حبوره معلماً بالامر مهنئاً بالنصر لنحمد الله عز وجل على ما وهب ونشكره على ما سنى وسبب والله يتكفل بالمزيد ويشفع القديم بالجديد ويمن بالظفر والتأييد فهو ولي الامتنان والملبي الفضل والاحسان لا رب غيره ولا معبود سواه .

(منقولة عن المخطوط رقم ٤٨٨ المحفوظ بمكتبة الاسكوريال)

شانجه بن زائدة اخي من والدي قتل في معركة اقليش .

دعني وحدي يا روبرت ، يكفني ان اتخيل هذا الطفل بشعره الجعد ، لا يكاد يتجاوز العاشرة من عمره يمتطي الجواد ويرفسه بالمهماز . السيف ثقيل على خصره . انا لم اتدخل مباشرة في ارساله الى ساحة القتال . ولكنني صفقت كثيراً ورحبت بفكرة انطلقت من رأس والدي وهي ان ولي العهد يجب ان يكون على رأس القوات المقاتلة .

اعترف لك يا روبرت انا اكثر من اي مخلوق آخر اشتهيت الموت لأخي وما زلت اتصور رحى القتال تدور وعيناه يشع منهما الرعب وجسمه تنهشه السيوف والرماح بينما المعركة ما زالت سجالاً . ولقد ادرك جلميرز آنذاك ان اسرار الله لا يعلمها احد فهي تحل ما ربطه الناس وانا مثل جلميرز ادركت آنذاك ان هذا الطفل يقاد الى المسلخ . واذكر انني احتفلت مع جلميرز بمقتله لأنه يرد لي حقوقي في السلطة وزوجي ريمون الفرنسي مضى على وفاته سنة ونيف وتحالفي مع المطران كان وثيقاً اكثر فاكثر .

زال شانجه العائق الوحيد في طريقي الى الملك ولكن بقي ولدي .

دعني وحدي ايها الراهب واسمح لي ان اتنشأ العطور مثلما كان ابي يتلذذ برائحة البخور . مصيبته بابنه عجلت في هلاكه فلم يفارقه الحزن الذي الّم به من جراء مقتل شانجه .

امر والدي ان يتربى ابني الفونسه ريموند في جليقية ووضعه تحت رعاية بطره فرويلاز قند «طرابة» «TRABA» هذا التدبير يلائمنا ويساير مصالح المطران جلميرز .

اجل يا روبرت معركة اقليش نعمة هبطت عليّ من السماء . قال الشاعر العربي : «مصائب قوم عند قوم فوائد» .

اني تالية على مسمعك تفاصيل تلك المعركة كما رواها لي من شاهدها وخاض غمارها والآن دعني استريح والى غد ان شاء الله .

ريمون زوج اوراكة :

ريمون البورغوني يفتش عن غنيمة باردة .

انيرت الغرفة في تلك الليلة التي جمعتني بريمون . انا كنت طفلة لم ابلغ الحادية عشرة من عمري . تزوجت في هذا العمر واستيقظت فيّ اللذة باكراً ، هم زوجوني وايقظوا اللذة فيّ ، مانعت عندما اقترب زوجي مني والح وقاومت واصر ورضيت ، وتعاطينا الحب اولاً وثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً .....

ريمون ... لا يسهل عليّ وصف تلك الزفرات التي شعرت بها عندما كان يمتطيني وهذا التنهد الذي اعود الى سماعه الآن اثر الهزات المتسارعة الوجلة التي يرسلها الراهب روبرت .

كلمات ملفوظة بلغة لا افهمها ، بذيئة لمجرد سماعها .

يرقد الراهب قربي غير عابىء بالقصاص الممكن ان ينزله به رئيسه ، تناسى الخطيئة والحرم الكنسي ، انه يستريح استراحة لذيذة كشحت عنه ضيقه وترك في نفسي طعماً حاداً مشحوناً بالصور والتخيلات ، لم اتمكن من توجيهه دون جرح شعوره في محاولاته ، محاولات فتى قليل الخبرة لم يعرف ان يرضيني ويشبع نهمي الجنسي ولكن اشعر بتخديرة لذيذة تدب في جسمي كله كما لو ان اللذة الجنسية فارقت اوراكة ولم يبق في صدرها غير الحنان الذي انتظره من هذه الخلوة ، وهذا الحنان قادر على خلق اللذة .

«بدره دي لارا» يعرفني جيداً . نحن إلاهان لأن الآلهة تجهل المحدود .

ــ انت مثل خادمي الذي يسرج لي فرسي تنتظرين مني مكافأة ، ولكن عليك ان تتوسلي وتتضرعي انت الآن طفلة تطلب دمية تتلهى بها عليك ان تكوني اهلاً لامتلاكها .

الرغبة والشهوة تتجددان انا «وبدره لارا» كان علينا ان نبتكر ونرتجل يوماً

فيوماً وساعة فساعة لكي يظل المشعل موقداً ولكي تعود الشعلة الى الاضطرام بقوة من جديد ، الرغبة تقوم بالمفاجأة في الاثارة في ما تأتي به الساعة الحاضرة .

«غوموس غنصالس» «GOMEZ GONZALEZ» لا يفهم شيئاً من خزعبلات الشهوة ولكنه يقوم بواجبه ويصبر ويصيب دائماً بينما «بدره» «PEDRO» في نظري كما انا في نظره ، التجديد المستمر في ابتكار الشهوة واللذة في مشاهد متبادلة وغير متوقعة .

والآن انا التي ابكي واتوسل ، اني خائنة ، خنزيرة ، بدون تربية منغمسة في الخطيئة .

«بدره» «PEDRO» شديد التصور ، خيالي والتصور والتخيل ضروريان في علاقات المرأة بالرجل .

تحول كل هذا الى مداد وكتابة على الورق حتى روبرت الذي ينام ملء جفونه اصبح جزءاً من هذه الكتابة وهذه القصة المكتوبة .

آورَّاكة هرمت شبعت منها الايام . هذا ما يقوله جلميرز . علاقاتي مع جلميرز ليست كما كنت اشتهي ان تكون . عناق سريع كالبرق الخلب . المطران «جلميرز» لا يحب هذا النوع من الغرام ، ومن الصعب الوصول الى لذة كاملة عندما يظل احد الطرفين محافظاً على كامل عقله وارادته ووعيه وعلى افكاره وعلى جسده المستعد في كل لحظة ان يقفذ من الفراش الى حاجة اخرى «فجلميرز» عندما يأتي اليّ يأتي بدون شوق وبدون لذة وبدون لهفة مع انه يعرف ان ملكته تتهالك على الرجل وعندما تتملكها اللذة تصبح سلسة القيادة ويحظى منها بما يشاء ، يقبل على غير لذة وعن غير رغبة وعن غير اقناع . جسمه الضخم المترهل يأخذ موقف الدفاع لأن الاسقف بدون لباسه الكهنوتي وبدون عصاه وصليبه على صدره يفقد الثقة بنفسه . وينكمش على ذاته . ولذلك حاول تجنب المناسبات وعندما تبرز يهرع اليها بصورة عفوية يبدأ بعملية باردة ناشفة جافة تنتهي كما ابتدأت دون استعداد ودون مقدمات .

استاء صهري انريق من الاذلال الذي تعرضت له اختي تريز في ساهاغون فارتد ضد زوجي وحاول محاصرة مدينة «قريون» «CARRION» حيث اجتمعنا انا والفونسه ولكن فقد الواحد الثقة بالآخر ، وجاء عرض الاسقف جلميرز في حينه انه

يناسبه اما انا فقد داهمني وفكري مضطرب وفي حالة تردد ولم ارفضه كما كان الواجب ان ارفضه بل راهنت بمصالحي ومصالح عرشي وخطوت الخطوة الاولى التي ندمت عليها فيما بعد .

كان ولدي تحت رعاية وعناية احد رجالات جليقية البارزين اسمه «ارياس بريش» ، لا ذكاء عنده ولكنه صبور ذو ارادة صلبة ، وكان «القند طرابة «TRABA» والمطران جلميرز يلعبان به كما يشاءان ، فلعب في رأسه وسلمه ولدي ليتوج ملكاً على جليقية .

انها ورقة رابحة في يد المطران وتضعني في موقف صعب . انا بحاجة الى رجال ذوي مبادىء في جليقية اعتمد عليهم فاذا رضخ ارياس فلم يبق شيء في يدي ، حزب ابني ضدي وجميع اخصامي اتحدوا على قهري .

شكرت المطران جلميرز على اهتمامه بابني الصغير الذي لم يبلغ السادسة من عمره تظاهرت بغفلتي عن هذا التتويج ولم اغضب ثقة مني بان الوقت يظهر عقم هذا العمل المقدم عليه ، في الوقت الحاضر يوافقني الصمت والانتظار ، على الاقل هذا ما ظننت في ذلك الوقت .

دخل ابني مرتين في كاتدرائية سانتيقوب دخول الظافر بفضل الاسقف .

انا في يوم من الايام حلمت بالدخول ظافرة في هذه الكاتدرائية وزوجي ريمون الذي طالما سمع المطران يردد على مسمعه : ستشيد اكبر كاتدرائية في الغرب كاتدرائية جديرة بملك كبير .

المطران جلميرز يشرف على اعمال حقيرة ووضيعة غير حرية باسقف مثله . شاء تعاطي التجارة وكسب المال فلا يكفيه المال الذي يأتيه من العشور ومن ارزاق الاوقاف ، انه بخيل حريص لا يكفي ذلك الدخل . عليه ان يبحث عن دخل آخر وبحث عنه ووجده في الاستضافة والنزول وبيع المنتوجات وذخائر القديسين .

لم ينظر زوجي الاول ريمون نظرة الرضى الى هذه الاعمال الصادرة عن اسقف كرس ذاته لعبادة الله ، ووقعت مناقشات حادة بين الاثنين حول هذه الامور فريمون يعزو الى المطران انه يلطخ يديه في مسائل تافهة وتجارات تحط من قدره ومن كهنوته غير ان جلميرز لم يعبأ بهذا اللوم فدبر تلك الاعمال بحيث لا يظهر اسمه فيها فهو

يشرف بصورة خفية على البضائع والاقمشة بنوع خاص الواردة من بروكسيل والحرير المجلوب من اشبيلية وقرطبة العربيتين .

مدينة سانتيقوب نقطة التبادل والمطران يشجعه دون ان يتأثر مقامه منه ، يتصرف دون اخذ رأي ريمون وكثيراً ما يقول له : الرجال الذين هم على امثالك يعتمدون على الحروب والغنائم والسبي وتوسيع الحدود ورجال الدين مثلنا علينا ان ندير امورنا بالتي هي احسن .

وعلى هذا النحو توصل الى السيطرة على شبكة ضخمة من الاعمال الصغيرة ، يعتمد على تجار محليين وغير محليين يأتون بالبضائع التي تباع في اسواق سانتيقوب بتحبيذ الكنيسة وبركتها ، وقليلون جداً الذين يعرفون ان قسماً هاماً من المال الذي يصل الى سانتيقوب يتحول الى خزينة المطران الذي يهاجم في مواعظه وارشاداته الرباء والبيع والشراء فهذا من مهن اليهود والاوثان ولكن التأشيرات والمأذونيات واجازات الدخول والخروج وحرية المرور التي يتزود بها التجار للتمكن من اجتياز الحدود الى «جاقة» او للانتقال الى بطليوس وقرطبة وغيرها تخرج مباشرة من مكتب المطران مزينة بغفرانات .

توصل المطران جلميرز على عهد والدي الى صلاحيات وامتيازات تفوق كل حد ، كان يسك النقود على حسابه الخاص .

والآن حصل ابني الفُونسُه رَيْمُونِدسْ على جميع ما زرعه المطران ويملك ما لم يقدر المطران على تملكه : السيادة الشرعية المتآتية بالميراث ، امتياز لا يشرى بالمال والمطران جلميرز اولاً وآخراً رجل دين خرج من حقله الديني دون ان يظفر في حقل آخر لا في حقل التجارة ولا الزعامة ولا الفروسية . انه مطران لم يرضه هذا اللقب فقط حاول التحكم بمقدرات جليقية حتى عندما يظن انه يعمل لمصلحة ولدي .

لم تتحرك الحجارة عندما جثم الفُونسُو رَيْمُونْدِس لكي يتقبل التاج على رأسه من يدي المطران في حفلة حافلة كما شاءها المطران ان تكون . اوقدت الشموع بكثرة وجيء بالمغنين المتجولين للغناء والنشيد عند مرور موكب ولدي ..

والامرأة الزانية تسهر في زنزانتها وتراقب تحركات الاسقف .

ليست القضية قضية اخلاق وآداب ، لا يهم المطران ان اتخذ لي خليلاً او اكثر

انما يثيره حضور «بدره دي لارا» قربي لا سيما بعد ان قضى على «غومس غنصالس» .

وفاة الفونسه السادس :

دنو اجل والدي حوله الى مخلوق لا يهمه سوى خلاص نفسه وقد نهشه توبيخ ضميره ، فيتعالى صوته الابح في الليالي السود وينتشر في القاعات كأنه ينبه قشتالة وليون منذراً اياهما بتبديلات جذرية . يهذي ويتكلم باسم الله الذي سمح له التصرف الكامل بفتوحاته ، يتمتم بلغة تفهم ، ينادي بصليبيته وبامبراطوريته — انه سلطان الملتين — الرعب تملكه يا روبرت والخوف حال بينه وبين الرقاد . جمع قواه ليبقى في ارق دائم . اقتنع ، انه اذا تغلب عليه النوم كل شيء بالنسبة له قد انتهى فاوقد حول فراشه مئات القناديل من الزيت ، وتنعكس الاضواء الصفر على عينيه الكبيرتين المتفتحتين .

لا يريد والدي ان يموت بينما الكثيرون ينتظرون وفاته بفارغ صبر ومن بينهم انا ابنته ، وهو مصرّ على ادارة دفة الامور من فراشه . سلطان الملتين استدعى اليه الاطباء ومجترحي العجائب والدجالين لكي يعدوا له الادوية . وامر الاساقفة ورؤساء الاديار بالصلاة على نيته لكي يصون الله حياته .. لا يريد الاقرار ان ساعته دنت ، فالبعث والقيامة اللذان نؤمن بهما غير كافيين بالنسبة له .. انا واثقة برغبته بالقيام من بين الاموات في اليوم الثالث ويحلم بالدفن في قبر منحوت في الحجر ومسدود بحجر كبير وفي اليوم الثالث لموته يرفع الحجر عن قبره فيخرج منه شاباً جديداً وجسماً فتياً قادراً على لبس الدرع والوشاح وعلى مجامعة جميع النساء المسلمات الموجودات في مملكته .

عندما اموت لا اريد اسرجة مضيئة ولا شموعاً تكشف عن وجه الموت الشنيع . ابي لا يريد مفارقة هذه الحياة وصدره يضطرب ويخفق وينتفخ ويخفق مثلما تنتفخ الضفادع وفمه ينفتح كما لو انه يريد استنشاء الهواء بكامله الموجود في غرفته .

استدعاني اليه وضغطت بيدي على يده ، يد الموت وللمرة الاولى قاسمته مخاوفه وشئت ان ينتهي كل شيء بسرعة .

في الشهور الاخيرة من حياته تغير ابي كل التغيير جميع الاكاذيب التي تذرع بها

طيلة حياته تحولت الى تبريرات كأنه تصديق تلك الاكاذيب التي نطق بها وحمل الآخرين على تصديقه ، فالحروب ضد المسلمين والاتفاقيات مع البابوات وانتشار الديانة الوحيدة الحقيقية لم تفارق شفتيه اللتين دخلتا في حالة النزاع .

منذ ان اقسم اليمين في كنيسة القديسة غاتة : ان ليس له ضلع في مقتل اخيه الملك شانجه القوي .. اصبح شديد الحذر من صدور اشاعات لا تلائمه فالامبراطورية والحرب الصليبية وتوحيد المملكة اعتقد انها كافية لتغطي على الاقاويل الصادرة عن نوايا السوء .

بدا عليه الاقتناع بجميع ما صنع في حياته وعندما استدعاني اليه لكي يقترح عليّ الزواج بالفونسه الاراغوني لم يكن في نبرة صوته شيء من تلك القوة والعزم اللذين عرفتهما فيه واعجبت بهما وخشيتهما . اصبح هرماً رق جلده وانكمش ، يتلفظ بكلمات لا يكاد يسمعها الحاضرون ويستشهد بالله على انتصاراته ومكاسبه الحربية .

الحر الخانق والانوار المترجرجة في القناديل ورائحة الموت لا تساعدني على تجميع افكاري وخواطري . وشعرت بضغط اصابعه وشاهدت الدموع التي جادت بها عيناه ، الدموع القليلة الباقية في محجريه اغرورقت بها عيناه ، وشعرت اني غير قادرة على حبس دموعي فانفجرت . انه الملك وانا عن قريب سأصبح الملكة ، فامرت باخراج الجميع من الغرفة وبقيت وحدي معه لاصغي الى ما يريد ان يبثه في اذني .

لم افهم ولم اسمع كل ما قاله لي في ساعته الاخيرة ، سمعته من صوت نفسي ومن خلال تلك اليد المنجردة الضاغطة على يدي وهي اولاً وآخراً يد والدي . واليوم مثل الامس سمعت من جديد الخطاب الذي يخال لي انه حفظه عن ظهر قلبه . حدثني والدي مرة اخرى عن الحرب التي يشنها على المسلمين ، عن الممالك التي احتلها وتوسع الاراضي النصرانية ، واخيراً وبصوت تخنقه الزفرات وبلهجة لم تعد آمرة بل متوسلة قال لي : اني بصفتي امرأة لا استطيع الحفاظ على هذه المملكة الضخمة المترامية الاطراف التي يتركها لي وحدثني عن المؤامرات والدسائس والمناورات التي تحاك وراء ظهره وانهى كلامه : بعد ان تأمل طويلاً وفكّر كثيراً وتردد حيناً هبط عليه الالهام من عند الله بان من الافضل مقتل ولي العهد «شانجه» ،

والامبراطورية تظل قائمة العمد .

اذا تزوجت الاراغوني وهو شاب تعشق الحروب وكافح الاسلام ، خادم الله مؤمن بالصليبية ناضج لم يعرف امرأة في حياته وقادر على مواصلة العمل الذي شرع فيه والدي . فالزواج يضمن استمرار ازدهار الامبراطورية وتوسعها اذ في زواجكما يتعانق تاجان لا يضاهيهما تاج في الممالك النصرانية .

اعتقد والدي ان زواجي كفيل بالقضاء على تلك المؤامرات التي يدبرها قند طرابة والاسقف جلميرز وجمعية رهبان كلوني ، تذوب بحضور فارس رضع لبان الصليبية وفرسانها .

الفكرة لا بأس بها لو ان والدي عاملني معاملة الند للند ولكن فات الاوان ، غلبه السعال وتشنجت اعضاؤه انه يموت على مهل ، وانا اولاً وآخراً الابنة التي لا يريدها وجاءت تحتل المكان المعد لولي العهد ، وسمعته في ساعاته الاخيرة يردد قائلاً : انا الخادم المتواضع ، المطيع لاوامر الكائن الذي يراقب اعمال الجميع ويدبرها» وانا امسح له لعابه وافكر في اقتراحه . زواجي من جديد شيء معروف ، وابي يصيب في مطلبه ، فالزواج يساعدني على احباط مؤامرات المطران جلميرز وافساد خطط «القند طرابة» وشل حركات الاباتي برنار .

ابي دخل في مرحلة النزاع ، جلميرز وقند طرابة يعملان على تتويج ابني ملكاً وان ادى ذلك الى التضحية بي . ضغطت على يد والدي ووافقت على مشروعه بحركة من رأسي وهو بدوره هز برأسه علامة الرضى والاستحسان . وفي تلك اللحظة وقف الموت عند رأس والدي ليستلم روحه .

خرجت من الغرفة ووجهت مبعوثاً الى اراغون لأجل الاتفاق على بنود الزواج باسرع ما يكون قبل ان يدري الخاص والعام بوفاة الملك واتفقت مع طبيب والدي «سيدللوس» لكي يحنط الجثمان ويحفظ السر حتى يحين الوقت . عليَّ التحرك بسرعة دون ان تعثر رجلي في خطواتي المقبلة .

الفصل الرابع

الإكليل

لم يحضر اليوم الراهب الى حجرتي ، وافتقدته وبدت لي هذه المذكرات خالية خاوية فارغة من كل فائدة انا بحاجة الى مخاطبة احد الناس انا بحاجة لحضور الراهب لأروي له ما حصل في ذلك اليوم المشهود والموعود .

رافقني غومس غنصالس لما خرجت من دير ساهاغون للتوجه الى قلعة مونيه وانشورش دعا المطران ليعقد القران . سرنا طوال الليل والبرد شديد ، فلا الاغطية ولا الالبسة الصوفية قادرة على ادخال الحرارة الى اعضائي واصبح الصباح وبلغنا القلعة .

وفجأة شاهدت نصب عيني الفونسه سيء المزاج ، غليظاً يرافقه اسطفان وبرمند وقد كساهم الغبار حلة غيّرت ثوبهم الحقيقي .

وجلس برمند عند قدمي الفونسه مثلما كانت زائدة تجلس عند قدمي والدي . وعرفت من غومس غنصالس انهما يركبان حصاناً واحداً .

ماذا اقول عن غيرة اسطفان وحقده عليّ وعن «فليسية» ؟ انها تشبه امي تريد احتكار كل شيء ، والسيطرة على كل شيء عاشت بين الرهبان والاكليروس والصلبان ، بنت الكاتدرائيات وادخلت الى بلادها الطقس اللاتيني الكنسي بدل الطقس المستعرب ، كيف ربت ابنها ؟ وكيف اعتمدت على الآباتي اسطفان تفضل

صديق ابنها على كنتها فاسلمته الى راهب مقاتل : الصليبية ، الدين ، والابن الكبير البالغ العالق باذيال والدته .

هذه حقائق ليس مصدرها حلم مزعج او كابوس او سوء نية . فليسية في نظر الكثيرين ام مسيحية انكرت ذاتها وربت اولادها تربية صميمة ، وهذا الفونسه العوبة في يد الراهب اسطفان رباه على يده ومن جملة ما علمه الا يدخل في باب لا يستطيع الخروج منه ساعة يشاء .

اتساءل ماذا يهم الناس معرفته عن الاباتي اسطفان وعن فليسية او عن الفونسه نفسه ؟

حكي ان ملكة شاءت الزواج من ملك مجاور لها هي ارملة شابة وهو شاب نشيط له من العمر ستة وثلاثون عاماً .

هذا الامير الاعزب الكبير الهامة هو الابن الثاني من زواج ثان ، وليس له ادنى حق في الملك ولكن شاءت الاقدار ان تهيء له الظروف وتكافؤ الفرص وازالة العقبات ليصبح ملكاً مع انه بالحقيقة معد للباس الثوب الكهنوتي وحمل السبحة الطويلة .

اعتلى عرشاً لا حق له فيه . هؤلاء هم الاشخاص الامير والاميرة او بالاحرى الملك والملكة ثم ام الملك التي لا غبار عليها في منتهى الشرف والنبل المتجردة من حب الذات ، كاثوليكية محبة لولدها ، فليسية المتسلطة ، اخت مغامر جريء على المحرمات ، سكن ارضاً بعيدة والاباتي اسطفان رافقه في مغامراته .

كان لا بد من وفاة شخصين لكي يتوصل زوجي الى ان يرث الملك ، لم يطالبه احد بوفاة هذين الشخصين كما طالبوا ابي في كنيسة القديسة غاتة بمقتل اخيه شانجه الثاني القوّي .

لا اريد التلميح الى ان الاباتي اسطفان او فليسية او الفونسه نفسه لهم ضلع في وفاة بطره شقيق الفونسه من والده ، واذا ناديت بذلك لا يسمع لي احد ولا يصدقني . لم يسمع احد صوت اينيس ارملة بطره الاراغوني عندما طالبت بالانتقام من قاتله .

الفونسه الملاك الوديع الذي لم يعرف امرأة في حياته سيصبح زوجي وانا لا اعرفه كما لا اعرف الاباتي اسطفان ولا برمند ذلك الراهب الناعم اللطيف يتحرك

حول الفونسه لم اتوصل لمعرفتهم ، فالاشخاص ليسوا مثل رؤوس اقلام او خطوط عريضة اخذت على عجلة لكتابة مقالة .

في كل مرة اتحدث عن الفونسه اضعه في محيطه بين اشخاص عايشوه وملقوه ودللوه فيظن السامع او القارىء ان الفونسه رجل ضعيف الارادة لا حزم له ولا عزم ، تسيره ام متسلطة وراهب آباتي امتلأ قلبه حناناً وعطفاً عليه . الفونسه زوجي غير هذا ، تربى على ظهر الجواد ورضع لبان الرهبان والاساطير الدينية ذو ارادة لا تتزعزع .

اسطفان لا سلطة له على الفونسه كما علمت بعد ذلك ، اسطفان يعبد تلميذه ، انتقل من دور المعلم والمهذب والمربي الى دور الخادم المطيع .

الفونسه جمع بين النقيضين ، من ناحية ، عنيد متشبث بآرائه ومن ناحية حنون رقيق العاطفة وهذا ما يفسر الابهام والالتباس اللذين عشناهما معاً والرقة يكيلها بحساب ولكي تبلغه امانيه ، واستعمل الرقة معي مراراً كما عاملني بالغطرسة والاحتقار ، اساليب تكشف عن نواياه واساليبه الصبيانية ، انه يطالب دائماً بالاصغاء اليه فهو قادر في لحظة قصيرة على التحول من الغضب الى الدلال اذا ضمن له هذا الاخير بلوغ مآربه .

حفلة الاكليل قصيرة ، وقرأ انشورش بنود العقد .

انتهى كل شيء واصبح الفونسه زوجي امام الله والناس ، والحضور يعلم ان الزواج لا تكفيه بركة المطران والتوقيع من قبل الطرفين على العقد . برنار وجلميرز مستعدان للاطاحة برومة اذا اقتضى الامر لاقناع البابا على الغاء الزواج .

اضطر الفونسه للسفر في اليوم التالي وانا اسرعت بالعودة الى طليطلة خشية تدبير مؤامرة ولذلك كان علينا ان نصل الى العلاقة الجنسية . ليس من شاهد يشهد على ان هذه العلاقات الجنسية تحققت بيننا ، والجنس لا يتكلم والفونسه لا يريد تنفيذ المهمة وليس من شهود ونشب في خاطري فكرة سوء وادرت لزوجي ظهري وشاء زوجي ان يمثل دور الزوج . ان ذلك الوضع لا يسمح باعطاء نسل ، ومما لا شك فيه اني لو لم اجتمع بالفونسه في تلك الخلوة بذلك الليل لكانت المملكة سارت على احسن ما يرام وانا لم احبس في هذا المكان والتاريخ لا يجب ان يكتب العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة .

اربع مصالحات في اربع سنوات . وصب الناس اللوم عليّ فقالوا عني : اوراكة مجنونة اوراكة الببغاء تقول ما لقنّت ، وغيره وغيره ...

يعز عليّ العودة الى تلك الايام وتمثيل الوقائع والمشاعر ، لم يغفر الاسقف جلميرز وغيره لي هذا الزواج وتوقعته قبل وقوعه . ماذا حصل في ذلك اليوم التاسع عشر من ايلول ؟ الرجل الذي اخترته شريكاً لحياتي تحول الى عدوي اللدود وسبب لي جميع المصاعب والمتاعب والاهوال التي بليت بها بعد زواجي . لماذا ترددت ورفضت النصيحة بالتخلي عن الزوج والانصراف الى تثبيت دعائم مملكتي . اغتنم الكثيرون فرصة انشغالي باموري الزوجية لكي ينهشوا من هذه المملكة ما تصل اليه افواههم وانيابهم .

فهذا برنار من رهبان كلوني لم يتوان في كشف القرابة التي تجمعني بزوجي الثاني وشرع يلوح بتهديد الحرم الكنسي ، يرتعد فرقاً من تعرض مصالح رهبانيته كلوني للضياع ، وتخور قواه وينهد حيله عندما يرى فرسان الجمعيات الدينية الذين يخدمون الله على صهوة خيولهم وايديهم على قبضات سيوفهم ، وجّه الرسل الى رومة يطلع الحبر الاعظم على حقيقة القرابة بيني وبين زوجي .

وشعر المطران جلميرز من جهته ان الخيانة قد وقعت وذهب ضحيتها فقرن جهوده للمرة الاولى في حياته بجهود الراهب برنار للعمل على اذلالي انا المعزولة في بلاطي وتخيل لي ان الجميع قلب لي ظهر المجن . ووجدت العزاء في انشورش وغومس غنصالس وصاحب لارة ظلوا الى جانبي يشدون ازري . «بدره فلويراس» «FLOIRAZ» ادار لي ظهره بايحاء من المطران جلميرز ، وانا في هذه الشدة والضيقة وجدت من الضروري استدعاء الفونسه زوجي لمساعدتي وتثبيتي على عرشي واشتغل الفونسه عني بامور اخرى ، وقررت التحرك قبل صدور الحرم الكنسي وعرضت الهدنة عن طريق المطران جلميرز وابلغت قند طرابة اني مستعدة للعمل بمشيئته .

وقرنت القول بالفعل وهدأت النفوس وجاءت مقابلتي مع فرويلاس لتصور للناس ان الحالة قد تحسنت والمياه عادت الى مجاريها ، ولكني بالحقيقة عملت على كسب الوقت لاخدع جلميرز واهدىء من روع رهبان كلوني واشتري رضى القاصد الرسولي فيتمكن زوجي في هذه المدة من الاستيلاء على غليشية .

لم اعِ نوايا الفونسه الحقيقية ولكن اعي نواياي . عليَّ ان استعيد ولدي واستفكه من قبضة «قند طرابة» فولدي مزاحمي الحقيقي فاذا وضعته تحت حمايتي ورقابتي امنت شر الدسائس لازاحتي عن ملكي فاستدعيت قند طرابة الى ليون وطلبت منه تسليم ولدي لي وضمنت له ان ندامتي حقيقية واني مستعدة للتنازل عن الملك لولدي بعد اعلان بطلان زواجي . كان عليّ ان امثل دوراً اذ ان المطلوب مني التخلي عن زوجي وعن عرشي ثم الانزواء في دير من الاديار .

قند طرابة رجل عنيد ، غادر البلاط ليعيش في جو ريفي يجلل قدره ، ويتربع في امتيازاته المتوارثة انه من اولئك الناس الذين لا يعرفون المداورات والمراوغات ، الخبز في نظره خبز والخمر خمر ، فلا يفهم الملابسات ولو اني جليقية وام وامرأة وملكة لتوجب عليّ السير على هذا المنهاج اضع نصب عيني مصلحة بلدي جليقية مثلما وضعها هذا الملاّك الكبير صاحب الاراضي الشاسعة الموروثة اباً عن جد .

وفي الدرجة الثانية بصفتي ام لا يحق لي خيانة من هو من لحمي ودمي ، وفي الدرجة الثالثة بصفتي امرأة والمرأة تعني الضعف وبالتالي عليها ان تصغي الى اناس مارسوا شؤون الدولة اكثر منها .

جاء قند طرابة الى ليون بصحبة ابني الفونسه ريموندس وكان عليّ ان اتقبل «بدره فرويلاس» قند طرابة على علاته فولدي في قبضة يده ، لا اريد الدخول في التفاصيل فالملكة لا وقت عندها للخزعبلات والحفلات الريفية والقرويات المسلوبات العرض وتصرفات قند اثقلت السنون كاهله ولا يقنع بشيء بل يطلب المزيد .

رأيت امي في كل مرة يذكر اسمه امامها تصنع اشارة الصليب على وجهها يقال عنه انه عندما يقترب رجاله من احدى القرى يفر نساؤها الحبالى ويختبئن . ذوق غريب لأن المرأة الحبلى عادة غير مشتهاة ، القند غريب في تصرفاته .

هذا الرجل النهم الشره الشهواني اوكل اليه السهر على ولدي وتربيته نعم هذا الرجل الذي يسعى وراء الحبالى ، هذا الشره ، بيني وبينه وجوه شبه كثيرة انا مثله شرهة شهوانية . ولكني خدعته لأنه تأخر اكثر من اللازم في الوصول شغلته النساء الحبالى وعيوب هذا الشيخ الهرم ساعدتني من حيث لا ادري .

خدعته لكي انتزع منه ولدي ، قصّر في الحراسة داهمته عساكر زوجي وهو

منصرف الى ملاذه وشهواته فاخذته القوات على حين غفلة .

تمكنت من انقاذ ولدي بفضل جيوش الفونسه . نكثت العهود التي اخذتها على نفسي ، هذا العجوز الهرم صان مصالح ابني لأنه بذلك صان مصالحه وانا من جهتي شئت السيطرة على هذا الأبن لأنه مزاحمي الاكبر قادر على القضاء عليّ اذا احسن الاسقف جلميرز وقند طرابة الاستفادة منه .

زوجي ملك طاغ مستبد ، لوطي ، يهين امرأته . تلك قصتي معه انا اوراكة المهانة المحتقرة المشتومة . زوجي احتقرني واهانني وضربني وشتمني. يميل الى الصبيان وهذا امر لا يهمني صحته او بطلانه . علاقاتي مع الفونسه مثل علاقاتي مع جلميرز علاقات مصلحة ، انفصال ومصالحة كل هذا لا علاقة له بالسلطة . الشعب شاء ان تكون علاقات رومنطقية عاطفية جنسية وخلافات غرامية .

زواج لم يرده الله لا يجلب سوى الشقاء والتعاسة .

لاقيت منه اهانات لا تطاق . ماذا تقول في رجل لم يعرف امرأة قبل السادسة والثلاثين من عمره ، لا شيء من السحر والجاذبية في مظهره ليس فيه ما يغري وما يغوي ، كم من الفضائح والآلام والعذابات لاقيتها على يده لم يكتف باهانتي بالكلام القبيح بل مرات كثيرة صفعني بيديه القذرتين ورفسني بقدميه مدمراً فيّ كل شرف وكل نبل .

المهم في كل هذا ان «قند طرابة» «TRABA» وقع في الفخ الذي نصبته له واستردت ابني منه .

الفونسه المقاتل :

من كان زوجي ، يصرخ في وجهي : انا اشقى الناس واتعسهم واشدهم ظلماً وجوراً وعدواناً .

لا ادري لماذا يستهل لقاءه معي بهذه الشتائم واللعنات . لقاءاتنا قليلة ولكنها مسبوقة دائماً بالشتائم والاهانات والسباب لكي يضرم النار في جسدي وفي جسده ويردد في مسمعي : هذه المرة لن تحمليني على ارتكاب المعصية ايتها الخنزيرة الملعونة القذرة . هذه المرة ، لا ... بينما تنفرج رجلاي اسمعه يصلي بصوت عال : ابتعد عني ايها الشيطان . انا هي الشيطان انا بعل زبوب التي تتعرى . انه يستغيث بجميع

ملائكة السماء ورتبهم ليكونوا شهوداً على عثرته . ولا تضطرم شهوته الا على هذا الشكل ليتمكن من الدنو مني . لتتمزق احشائي كما تتكسر الجرة في البئر اذا ارتكبت الخطيئة ... ذلك هو الفونسه الرجل والزوج عندما يدنو مني .

اساليب الحب غريبة . ملكك يا روبرت يصاب بالجنون من شم الروائح .

ــ انت قذرة ، قذرة مثل جميع النساء ، وانت اقذرهن جميعاً وانا بدنوي منك اعتبر نفسي اوسخ خلق الله قاطبة .

ــ انت اشنع خلق الله ولكن ليس في الساعة التي تحسب نفسك قذراً ، ليس عندما تحاول ان تشرب من قارورة القاذورات كما تسميها ، ليس عندما تريد ان تعاقبني وتعاقب نفسك فتصب عليّ زرعك الذي لم يثمر . ليس في هذا الوقت ولكن بعد ان تقضي وطرك مني تصبح اقسى خلق الله .

الفونسه هذا هدم قلعة «مونتروسه» «MONTERROSO» وقتل براده «PRADO» الذي تناول الطعام معه في بيته ويقولون في اراغون «ARAGON» : من قتل رجلاً بعد ان اكل الطعام في بيته يستحق ان يدفن حياً تحت ضحيته ومع ذلك فلم ينتقم احد لبراده ، لم يقاصص احد المجرم القاتل او اهتم بدفن ذلك الجثمان المطروح في فناء منزله . الفونسه السفاك ، لا الفونسه المقاتل هذا يجب ان يكون لقبه الحقيقي ، صب جام غضبه وسخطه على ذلك الرجل الشريف النبيل لأنه تذوق طعم الحب مع الملكة لأنه كان سخياً جواداً نبيلاً لم يخش سطوة الملك الذي تصرف كاحقر الناس .

اساليب زوجي في الكفاح ليست شريفة نبيلة كما تقضي بها الفروسية عامل ممتلكاتي في جليقية كما لو كانت ممتلكات العدو فاتلف ما اتلف وقتل المزارعين والاسياد لكي يخلق ارضاً حيادية ليست لاحد حتى لا يستثمرها انسان ، عامل الاشراف في مملكتي بالخشونة نفسها التي يعامل بها المسلمين .

مات براده لأني لم اتمكن من الدفاع عنه لأني لم اقدم جسدي فدية وفداء عنه . حاولت الدفاع عنه . قطعوا يديه اولاً تأديباً له وعبرة لمن يعتبر وامثولة لكل نبيل او ثائر متمرد . لم تهمني المؤامرات التي حبكها «القند طرابة» ضدي وتعهداته لأختي بدون علم مني . شغلت بتلك الرائحة الكريهة التي رافقت تعاطي الحب معي

واشمأزت نفسي من كلمات الفونسه : خنزيرة عجوز ، قذرة . ثم تنهد التنهدة الاخيرة ثم غاص في لذة النوم .

اتظن ايها الراهب ان انساناً يخسر عينيه لأنه احتطب ثلاثة اعواد من الحطب . شعرت بالمقت والكراهية منذ ذلك اليوم في «مونتروسه» نحو الذي اقدر ان اسميه زوجي .

القذارة كانت في مقتل براده ولكن هذا لا يهمني ابغي صيانة اسمي وشرفي ..

«قنط طرابة» قابل اختي تريز ، في نيته الشر ، ووجد في تريز وزوجها صاحبي البرتغال حليفين له لأن مملكتهما البرتغالية جديرة بالتوسع .

من صالح تريز وزوجها ان تمتد ايديهما الى ممتلكاتي ، وتريثا حتى يلوح لهما ما يبدو من امري مع الفونسه يريدان ان يظلا على هامش الاحداث .

كانت سنة ١١١٠ وفهم الفونسه وفهمت انا ان الغمد لا يتسع لسيفين اما هو واما انا . ومنذ ذلك الحين تعكست الامور بيننا لما وضعت يدي على زمام السلطة في قشتالة والاراضي التابعة لها غضب زوجي لأنه يريد التفرد بالسلطة هذا هو السبب الوحيد في جميع الحروب التي نشبت بيننا . اقصيت عني اولئك الذين اشتممت منهم رائحة الميل الى الملك اقوى من ميلهم نحوي ورفعت انصاري الى اعلى المراتب في الدولة . فاستشاط زوجي غضباً فكرامته تأبى عليه التنازل عن اي حق من حقوقه في السلطة .

ان القلوب اذا تنافر ودها   مثل الزجاجة كسرها لا يجبر .

هذا ما يقوله الشاعر العربي ، لا سيما وان هذا النفور لم يلطفه الحب ولا العلاقات الزوجية ، وقد ساء زوجي ما لمسه من العطف الخاص نحو بعض عظماء قشتالة فوسمه بميسم العلاقات الغرامية .

شئت التخلص من هذا الزوج الذي تربطني به روابط القربى ، فلم يشأ الطلاق لأن الطلاق يفقده حق التصرف في قشتالة ، فملأ الحصون من الاراغونيين بحجة حماية قشتالة من هجمات المسلمين المرابطين ، ورتب لها قادة من اخصائه الموثوق بهم ثم امر باعتقالي في قلعة كشتلار واشاع اني حاولت الثورة وان سلوكي الشائن على حد قوله يضيع هيبة الملك .

ولكني تمكنت من الفرار من سجني وجزع كل الجزع فالمرابطون يهاجمون قشتالة ويهددون اراغون وقد استولوا على سرقسطة وزوجي في اشد الحاجة الى معونة القشتاليين الذين انضموا الى ملكتهم . وجرى التوسط في عقد صلح بين الطرفين اتقاء خطر المسلمين . لم يطل امد هذا الصلح ، فرأى ان يستولي على قشتالة بحجة ان علاقاتي الغرامية بالقند غومس تجعلني غير جديرة بان اكون ملكة .

واستمر النزاع على هذا المنوال عاماً كاملاً ثم تحول الى حرب مكشوفة ، والاشراف والفرسان في قشتالة وليون واشتورش بغضوا سيادة اراغون وحاولوا تحطيمها بالانضمام اليّ وتأييدي في حقوقي .

وكان اجتماع ساهاغون سنة ١١١٠ لصالحي فصدر امر يقول : كل من يظل على ولائه لملك اراغون ولا يقاتل الى جانب الملكة تصادر املاكه . فارتاع القوامس في قشتالة وبادروا الى تسليم قلاعهم وحصونهم . وسار احدهم وهو «بدره اسورس» الى ملك اراغون وقد ارتدى ثوباً قرمزياً وامتطى فرساً ابيض ووضع حبلاً في عنقه لكي يعاقبه الملك على نقضه العهود التي اخذها على نفسه . فعفا عنه الملك مقدراً تضحيته واحتفاظه بولائه للفريقين .

غير ان الفونسه ظل يملك حصوناً كثيرة في قشتالة مما سهل له البقاء في طليطلة . وشرع جنودي بمحاصرة هذه الحصون والقلاع فهب زوجي للدفاع عنها بينما المسلمون يشنون الغارات على الاراضي المسيحية المجاورة ويعبثون فيها وينهبون ويسلبون وقشتالة واراغون تسيران الى القتال مع بعضهما في حرب ضروس . ووقف قند البرتغال انريق الى جانب الفونسه . ووقعت معركة في «كامبه دسبينة» على مقربة من «سيبولفدة» «SEPULVEDA» وخسرنا تلك المعركة التي قادها القند «بدره دي لارة» والقند «غومس غنصالس» الذي قتل فيها مع عدة آلاف من خيرة فرسان قشتالة ولاذ بدره دي لارا بالفرار .

وعلى اثر هذه المعركة استولى زوجي وامير البرتغال على مدينة برغش وبلنشية «PALENCIA» وليون «LEON» وقريون وسهاغون بدون مقاومة . وفر رجال الدين الموالين لي فاستشاط زوجي ونهب كنائسهم واديرتهم ، اغتنم هذه الفرصة لأنه بحاجة الى المال ، وانضمت اليه مناطق من جليقية لما رأت انتصاراته غير ان رجال

الدين صوروا الفونسه باشنع الصور : قاتل ، ظالم ، سفاك دماء ، فاسق ، مغتصب اموال الاديرة والكنائس . وسمع الشعب صوت الاكليروس فهب للقتال .

الاسقف جلميرز من الد اعداء زوجي . خشي على مملكة جليقية ان تفلت من يده فيستولي عليها الفونسه ويفقد المطران سلطته ، وجليقية آنذاك امارة تخص ابني الفونسه ريموندس . ورأى المطران ان ينصّب ابني ملكاً عليها قبل ان يبلغ سن الرشد اذ انه في ذلك الحين لم يتجاوز السادسة من عمره . وطلب المطران موافقتي ، ونفذّ المشروع وتوّج ابني ملكاً على جليقية في ايلول ١١١٠ . ثم وصلت الى جليقية انباء انتصار زوجي في معركة «كامبه دي سبينا» فثار عليّ بعض الاعيان وانا في قلعة استرقة ارد هجمات الاراغونيين عنها .

ولعب الاسقف جلميرز في كل هذا دوراً كبيراً ووقف الى جانبي بكل قواه ليس حباً بي بل لأن مصلحته تقضي بذلك فبث روح الشجاعة في قشتالة وحمل الجلالقة المنشقين على العودة الى طاعتي وتمكن بسياسته وحنكته من ابعاد قند البرتغال عن الفونسه لما افهمه ان من مصلحته التخلي عنه لأنه اذا استولى على قشتالة تتوق نفسه الى الاستيلاء على البرتغال ويستولي عليها بسهولة لأنها غير قادرة على الوقوف في وجهه بعد ان تبقى وحيدة في الميدان . فانضم الى قشتالة وارسل الملك الطفل الى استرقة على رأس جيش لكي يتجمع حوله المخلصون من مملكة ليون . فسارع الفونسه الى قتال الجلالقة وانتزع ابني منهم ، وجرت معركة طاحنة كل فريق يرغب في امتلاك الملك الطفل ، وتمكن المطران جلميرز من انقاذه رغم انتصار اراغون في المعركة .

وساء موقفي من جديد بعد ان شغلت جليقية بثورة دبرها القند «بريش» «PEREZ» خصم الاسقف وتوجه الفونسه لمحاصرة استرقة غير ان المطران جلميرز توصل الى قمع الثورة ووجه جيشاً لانقاذ استرقة تؤازره قوات برتغالية وتوقفت السرايا القشتالية الى قطع المؤن عن الاراغونيين فاضطر الفونسه الى رفع الحصار والعودة الى بلاده . واشتبك مع بدره دي لارا في بلانسية واوقع به بعض الخسائر وارتد الى اراغون سنة ١١١٢ .

انقسمت شبه الجزيرة الابرية النصرانية الى ثلاث فرق كان اقواها واشدها

بأساً فرقة ملك اراغون لأنه فضلاً عن مملكته اراغون يحتل اهم حصون قشتالة تؤازره قوة كبيرة من الفرسان الفرنسيين .

فرقة قشتالة تنضوي تحت لوائي يؤيدني رجال الدين في قشتالة وليون وجليقية والشعب .

والفرقة الثالثة هي الاشراف وتعارضني وتعارض زوجي على السواء ، ووضعت ثقتها ورجاءها في ابني الطفل الملك الفونسه ريموندس .

وسكنت الحرب بين اراغون وقشتالة مدة وشغل زوجي بمحاربة المسلمين في الثغر الاعلى .

كستان :

بحقك يا روبرت لا تتركني وحدي ، لو ان في متناولي ربابة لنقرت عليها الحاناً جميلة لك لكي لا تذهب عند المساء الى الرقاد . لا تتركني وحدي ، اسمع مواء الهر اشبه شيء ببكاء الاطفال ، الظلمة تخيفني والاشباح الجدارية ترعبني ويتمثل لي خيال الموت .

عندما سجنت في قلعة قشتلار سنة ١١١١ كان يوقظني صوت المنادي في كل صباح .

لا احدثك عن السجن وعن الغضب الذي ساور زوجي الفونسه لما درى بفراري ، بل احدثك عن الخوف الذي يعتريني في كل مرة تغادرني وحيدة ، عن الخوف الذي دب في جسدي كله في تلك القلعة للمرة الاولى عندما اغلق عليّ الحارس الباب الحديدي واطفأ القنديل ومكثت وحيدة .

وتصورت الموت في السم او في كبوة جواد او في ضربة سيف او حدوث زلزال او طاعون ، فالسم يمكن تجنبه والحصان قابل للترويض والوقاية من السيف ممكنة وجميع اسباب الموت الاخرى يمكن التغلب عليها بالمثابرة والكفاح والجهاد والدراية والمعرفة والصبر والاناة .

وتخيلت الموت في قلعة قشتلار ، الموت الذي لا سبيل الى الخلاص منه . الناس يسرحون ويمرحون في المروج الخضر وتطأ اقدامهم الحشيش الطري ويمتطون الخيول ويشعرون بحلاوة الوجد الولهان يتصاعد الى افئدتهم .

وعندما تغادرني وحيدة اشعر بالكابوس نفسه يضغط عليّ وبالغصات تخنقني مثل تلك التي عانيتها في قلعة قشتلار ، سجن لا يختلف بشيء عن القبر .

بحقك لا تتركني وحدي .

التاريخ الذي يكتبه الآخرون يقول ان الفونس حبسني لأنه لم يرض عن تصرفاتي في اطلاق رهائنه . الحقيقة اني اطلقت الرهائن ولكن سواء اطلقت هذه الرهائن او لم اطلقها ، سجني لا بد منه لأنه يخول الفونسه الحرية ، وكستان الى جانبه يحثه على الحبس عليّ .

ما لي ارى عينيك تنفتحان واسعتين عندما يقع في سمعك هذا الاسم الجديد «كستان دي بيال» «CASTAN DE BIEL» ليتك شاهدته ، وجه صغير ، وجه طفل وجسم لا انسجام فيه ولا تناسب اعضاء ، حقير ، قزم بصورة امرأة يغذي غرور الفونسه ، اتبع له من ظله يعطيه الحق في كل ما يأتي به ، يصغي اليه بالانتباه الكامل ويسايره في افكاره واعماله .

كستان لبق ، لا يخلو من الذكاء تمكن بفترة قصيرة من ازاحة برمند عن مركزه ويقتل نفوذ الاباتي فلم يصغِ اليه في قضية تعيين مطران وشقة ، ومنذ ذلك الحين اصبح الحارس الامين لزوجي ، يغار عليه من كل من يدنو منه . لكنه عاجز جنسياً يكتفي باحتكار الفونسه وبالتفاته وانتباهه . فكره كل من قدر ان يقدم لزوجي اكثر مما يقدمه له لا سيما اذا كان منافسه امرأة ، يكره النساء وحضوري مثل حضور اي امرأة اخرى يعكر عليه مزاجه ، وعندما يضمنا مجلس لم يوجه اليّ الكلام قط واذا وجهه كان للملكة لا لاوراكة .

بينما كنت قابعة في سجني هيأ انصاري وحماتي سبيل فراري ، غومس غنصالس دبر الامور وانتشلني من ذلك السجن الرهيب فسبب هربي ذلك المرض الذي وقع فيه زوجي ولم يعرف له الاطباء سبباً .

لا احد قادر على تهمتي بمرض زوجي آنذاك انا سجينة لا اتصال لي باحد ، غومس غنصالس فكّر في كل شيء ورأى ان اظل على هامش تلك الحادثة التي المت بزوجي ، اصابته الحمى وتقيأ واستفرغ وعالجه الاطباء بما تيسر لهم للقضاء على

التسمم ، وخرجت من القلعة برفقة غومس غنصالس وخلال يومين وصلنا الى قشتالة .

واليوم اوراكة وحيدة وليس من قند يأتي ليخطفها ولا اقدر ان اصف لاحد شقوتي وذهاب صبري في تلك الايام والعجز الذي اشعر به عندما يدخل عليّ ذلك الاحدب الاخرس الاطرش الابله في كل مساء حاملاً اليّ الطعام .

فلو ان اقامتي طالت في تلك القلعة لربما انست بصحبة ذلك الاحدب مثلما آنس الآن برفقة الراهب روبرت واشتاق لوجوده قربي وعندما اسمع وقع اقدامه في الرواق اسر وابتهج فهي تبشرني بقدومه .

غير ان اقامتي لم تطل في تلك القلعة وخلاصي المفاجىء حال بيني وبين تعاطفي مع الآخر الذي كان تحول بالنسبة لي الى اله مثل الاله الذي تصلي له والدتي كونستانس ولا يستمع لها وانا لم اجد خليفة مثل عبد الرحمن الناصر الذي سمعت قصته من زائدة ، مع جاريته الزهراء .

ان الناصر كان يحب جاريته هذه حباً جماً فطلبت منه ان يبني لها مدينة باسمها فبناها تحت جبل العروس من قبلة الجبل وشمالي قرطبة وبينها وبين هذه المدينة ثلاثة اميال واتقن بناءها واحكم الصنعة فيها وجعلها مستنزهاً ومسكناً للزهراء وحاشيته ارباب دولته .

فلما قعدت الزهراء في مجلسها نظرت بياض المدينة وحسنها في حجر ذلك الجبل الاسود فقالت : «يا سيدي ، الا ترى الى حسن هذه الجارية الحسناء في حجر ذلك الزنجي ؟» فأمر بزوال ذلك الجبل . فقال بعض جلسائه : «اعيذ امير المؤمنين ان يخطر له ما يشين العقل سماعه ولو اجتمع الخلق ما ازالوه حفراً ولا قطعاً ولا يزيله الا خالقه» . فامر بقطع شجره وغرسه تيناً ولوزاً ولم يكن ينظر احسن منه لا سيما في زمان الازهار وتفتح الاشجار وهي بين الجبل والسهل .

هذه هي القصة التي روتها لي زائدة ، من لي بخليفة يعاملني بمثل هذه المعاملة ؟ او من اين لي ذلك الملك ، المعتمد بن عباد وقصته مع الرميكية مشهورة ، وهي يوم الطين .

مفادها ان الرميكية رأت الناس يمشون في الطين فاشتهت المشي في الطين .

فامر المعتمد فسحقت اشياء من الطيب والمسك والكافور وذرت في ساحة القصر حتى عمته ثم نصبت الغرابيل وصب فيها ماء الورد على اخلاط الطيب وعجنت بالايدي حتى عادت كالطين وخاضتها مع جواريها .

وفي ذات يوم غضبت الرميكية من المعتمد وقالت له : لم ار منك خيراً في حياتي . فأجابها ولا يوم الطين . فخجلت منه .

خسرت العرش كما خسر المعتمد بن عباد سلطانه ونفاه يوسف بن تاشفين الى اغمات بالمغرب وكان يردد :

«فيما مضى كنت بالاعياد مسرورا   فساءك العيد في اغمات مأسورا
ترى بناتك في الاطمار جائعة   يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة   ابصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والاقدام حافية   كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
قد كان دهرك ان تأمره ممتثلا   فردك الدهر منهيا ومأمورا
من بات بعدك في ملك يسر به   فانما بات بالاحلام مغرورا

ولما احس بالمنية ترهقه امر ان يكتب على قبره :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي   حقا ظفرت باشلاء ابن عباد
بالطاعن الضارب الرامي اذا اقتتلوا   بالخصب ان اجدبوا بالري للصادي
نعم هو الحق وافاني به قدر   من السماء ووافاني لميعادي
ولم اكن قبل ذاك النعش اعلمه   ان الجبال تهادى فوق اطواد
فلا تزل صلوات الله دائمة   على دفينك لا تحصى بتعداد

زيارة ابن اللبانة للمعتمد بن عباد في سجنه باغمات :

وفي هذه الحالة زاره ابن اللبانة وهو احد شعراء دولته . وكان المعتمد يميزه بالاحسان فلما رآه وحلقات الكبل قد عضت ساقيه عض الاسود وهو لا يطيق اعمال قدم بعدما عهده فوق سرير ومنبر ووسط جنة وحرير تخفق عليه الالوية وتشرق منه الاندية قال فيه :

انفض يديك من الدنيا وساكنها   فالارض قد اقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها السفلّي قد كتمت   سريرة العالم العلوي اغمات

طوت مظلتها لا بل مذلتها — من لم تزل فوقه للعز رايات
من كان بين الندى والباس انصله — هنديه وعطاياه هنيدات
رماه من حيث لم تسترها سابقة — دهر مصيباته نبل مصيبات
وانكرت الالتواآت القيود به — وكيف تنكر في الروضات حيات
واغلطت بينها بين عقدن له — وبينها فاذا الانواع اشتات
وقلت هن ذوابات فلم عكست — من راسه نحو رجليه الذوابات
حسبتها من قناه او اعنته — اذا بها لثقاف المجد آلات
دروه ليثا فخافوا منه عادية — عذرتهم لعدو الليث عادات
لو كان يفرج عنه بعض آونة — قامت بدعوته حتى الجمادات
بحر محيط عهدناه تجيء به — كنقطة الدارة السبع المحيطات
لهفي على آل عبّاد فانهم — اهلّة ما لها في الافق هالات
راح الحيا وغدا منهم بمنزلة — كانت لنا بكر فيها وروحات
ارض كأن على اقطارها سرجاً — قد اوقدتهن بالادهان انبات
وفوق شاطىء واديها رياض ربا — قد ظللتها من الانسام دوحات
كأن وَادِيهَا سلكٌ بلبتها — وغاية الحسن اسلاك ولبات
نهر شربت بعبريه على صور — كانت لها من قبيل الراح سورات
وربما كنت اسمو للخليج بها — وفي الخليج لاهل الراح راحات

وقال ابن اللبانة: كنت مع المعتمد في اغمات فلما ازمعت السفر بعث اليّ مع شرف الدولة ولده وهذا من بنيه احسن سمتاً تخجله اللفظة حريص على طلب الادب مسارع في اقتناء الكتب مثابر على نسخ الدواوين، بعشرين مثقالاً مرابطية وثوبين غير مخيطين وكتب معاً ابياتاً منها:

اليك النزر من كف الاسير — وان تقنع تكن عين الشكور
تقبل ما يذوب له حياء — وان عذرته حالات الفقير

فاقتنعت من ذلك عليه واجبته بابيات منها:

تركت هواك وهو شقيق ديني — لئن شقت برودي عن عذوري
ولا كنت الطليق من الرزايا — اذا اصبحت اجحف بالاسير
جذيمة انت والزباء خانت — وما انا من يقصّر عن قصير

تصرف في الندى حبل المعالي فتسمع من قليل بالكثير
واعجب منك انك في ظلام وترفع للعفاة منار نور
رويدك سوف توسعني سروراً اذا عاد ارتقاؤك للسرير
وسوف تحلني رتب المعالي غداة تحل في تلك القصور
تزيد على ابن مروان عطاء بها وازيد ثم على جرير
تأهب ان تعود الى طلوع فليس الخسف ملتزم البدور

واتبعها بابيات اخرى :

لم تمت انما المكارم ماتت لا سقى الله بعدك الارض قطراً

ورأى ابن اللبانة احد ابناء المعتمد وهو غلام وسيم وقد اتخذ الصياغة صناعة وكان يلقب ايام سلطانهم من الالقاب السلطانية بفخر الدولة فنظر الي وهو ينفخ الفحم بقصبة الصائغ وقد جلس في السوق ليتعلم الصناعة :

شكاتنا لك يا فخر العلا عظمت والرزء يعظم ممن قدره عظما
طوقت من نائبات الدهر مخنقة ضاقت عليك وكم طوقتنا نعما
وعاد طوقك في دكان قارعة من بعد ما كنت في قصر حكى ارما
صرفت في آلة الصواغ انملة لم تدر الا الندى والسيف والقلما
يد عهدتك للتقبيل تبسطها فتستقل الثريا ان تكون فما
يا صائغاً كانت العليا تصاغ له حلياً وكان عليه الحلي منتظما
للنفخ في الصور هول ما حكاه سوى هول رايتك فيه تنفخ الفحما
وددت اذ نظرت عيني اليك به لو ان عيني تشكو قبل ذاك عمى
ما حطك الدهر لما حط من شرف ولا تحيّف من اخلاقك الكرما
لُح في العلا كوكباً ان لم تلح قمرا وقم بها ربوة ان لم تقم علما
والله لو انصفتك الشهب لانكسفت ولو وفى لك دمع العين لانسجما
ابكى حديثك حتى الدر حين غدا يحكيك رهطاً والفاظاً ومبتسما

لا ابكي كما بكى المعتمد على ملكه الضائع وحياته الفانية بل ابكي لأنك لم تأت وهذه الامسية تطول وليس لها آخر. قال والدي الفونسه وجلميز وبدره انشورش : المملكة هي كبيرة جداً لكي تحكمها امرأة ، او صغيرة جداً في نظر امرأة ، هم على حق ، انا في هذا الوقت اقنع بتاكات ومساند من الحرير وطنافس مثل

تلك التي اتكأت عليها زائدة واريد الى جانبي رجلاً ادلله ويبدي اهتمامه بما اقصه عليه ، رجل يأتي اليّ على ضوء القمر او في ليلة ماطرة او عندما يدركني الحيض .

لا تعبأ بما اقول اطلب المستحيل ، قد اكون مريضة . الموت الذي تصورته في قلعة قشتلار اتصوره الآن يدور في هذا الدير . هناك ، القزم الاحدب الاخرس يقدم لي طعامي ويسبقني الى اكل شيء منه ليوهمني بان لا سم فيه ، وهنا ليس من احدب يتذوق طعامي قبلي فاني لم اعد عائقاً في وجه جلميرز ولا في وجه ابني .

لا اريد الاقرار بالغلبة بقيت لي القدرة على الكتابة فانصرفت اليها بكل طاقتي وعندما اشرع في الكتابة تنحل المشاكل . هربت من قلعة قشتلار انقذني غومس غنصالس ، جمعت جيشاً لمحاربة زوجي وقررت ان يقود هذه القوات القند لارا .

التاريخ بكامله يتحول الى بضعة سطور والباقي : الشهوات والاميال والحسد والشوق والرغبة تصبح فقيرة هزيلة عندما تتحول الى حروف وكلمات .

«غومس غنصالس» وقند لارا صديقان والاثنان يقولان انهما يحبانني والاثنان تذوقا اللذة معي ، ومنذ ذلك الحين صار كل واحد يطمع بالسلطة ، وتبين لهما ان زواجي مع الفونسه لن يطول فهو صائر الى الفسخ آجلاً او عاجلاً فلا سبيل لبقائي قرب الفونسه بعد اذلالي وسجني ، فتأمل كل منهما بامتلاكي بعد فسخ زواجي ولم المح الى ميلي نحو الواحد دون الآخر فنشأ بينهما تباعد وجفاء وحذر متبادل .

وانا بدون وعي سببت ما حدث بعد ذلك انا التي حركت يد غومس غنصالس من بعيد عندما حاول قتل الفونسه فقويت المزاحمة والمنافسة بين الاثنين مع انهما نالا مني ما يريدان دون حساب ودون تفضيل الواحد على الآخر والآن ادرك اني السبب عن غير ارادة مني ، في مقتل غومس غنصالس .

سلمت لارا قيادة الجيش ولكنه تخلى عن المعركة في الساعة الحاسمة الحرجة وترك غومس غنصالس يقاتل وحده مكشوفاً امام العدو وهذا القند الحبيب الذي خطفني من سجني لاقى الموت في المعركة بسبب خيانة لارا وجبنه .

مات براده ومات غومس غنصالس ثم بعد ايام قليلة اكتمل القمر واقبل الفونسه ونام معي . الموت يا عزيزي الراهب له لون واحد وانت تعلم كيف ترسمه ، بينما الفونسه يرقد الى جانبي كان السيف ما زال مغروساً في صدر ذلك الرجل الذي

طالما لامست اصابعه جسدي وتوقفت عند الاماكن الحساسة منه اماكن اللذة في جسم المرأة . ذلك القند الذي بفضله تمكنت من النجاة من سجن قلعة قشتلار .

عدت الى الفونسه من جديد ثم افترقنا جندي يحاصرون الفونسه في قلعة «بينيافيل» «PENAFIEL» ، الفونسه يجري اتصالات سرية مع اختي تريز وسلفي انريق وانا حاولت افساد هذا التحالف .

كل هذا اصبح عندي سيان غير اني احب ان اكلمك عن طموح اختي التي يغرها حب الظهور فخيبت آمالها وكيف اني نصبت لها شركاً اوقعتها فيه مثل عصفور غر لا خبرة له ولا حنكة ولا دراية فحاصرتها في قلعة ساهاغون بينما ظنت نفسها سيدة الموقف .

غومس غنصالس :

او «قند كند سبينا» احدثك عنه ايها الراهب يداه ناعمتان جالتا طويلاً فوق جسدي وخلقتا عندي لذة محببة الى قلبي .

غومس غنصالس توفي في السهل الذي يحمل اسمه «قند سبينا» تمنيت لو كان معي الآن مثلما انت معي ، هو الذي لاجله افتح فمي لكي يلج فيه الهواء ويصفعني ويضربني بسياطه علني اجد في النسيم شيئاً من رقته وعذوبته .

استدعيت القند الى جانبي واطلعته على مشاريعي ، لكي لا يعتقد اني خدعته فقد اقتنع والحاشية مقتنعتان بان لا سبيل الى الزواج منه هذه المرة ايضاً فاصْبحُ له امام الله والناس مع اني اخصه امام الله . كان خادماً مطيعاً ودوداً طائعاً وعاشقاً ممتازاً يمكن الركون اليه يسليني في ساعات ضجري ويتحمل بصبر واناة شراسة اخلاقي يقاسمني الليالي ويسهم في خيانتي لزوجي .

فبرقت عيناه السوداوان وصرخ : ملكتي تستحق رجلاً من فحول الرجال لا انساناً مخنثاً .

في علم الجميع ان الفونسه الاراغوني يكره النساء ويميل الى الفتيان المراهقين . بلغ من العمر ستة وثلاثين عاماً دون ان يقترب من امرأة ..

— ايها القند لا تهمني مشكلة النسل فلي ولد وابنة عندما اتوفى يرث ولدي الفونسه ريموندس الملك بعدي فتصرفات وميول زوجي لا تهمني ولا تؤذيني ، على

العكس ترضيني ، وانت في قرارة نفسك ترى ما اراه ويرضيك ما يرضيني فالاراغوني يسلب منك مَلِكَتَكَ ويترك لك آورّاكة. زواجي يقتصر على عقد لا اكثر ولا اقل وسيان عندي اثمر او لم يثمر ولا اظن ان احداً يتشكك من ملكة تفتش خارج الزواج عما لا تجده عند زوجها الشرعي.

ــ ملك سرقسطة العربي عرض عليه الرهائن وخيّره في الجارية التي يرغب فيها من بين جواريه ، فأجابه قائلاً : «الجندي الباسل يعيش دائماً بين الرجال».

هذا الذي تريدينه زوجاً لك.

ــ اذا رفض الفونسه الاراغوني ان يقاسمني الفراش فلا يرفض معاونوه ولا قواده ، واعتمد عليك ايها القند واعتمد على بطره دي لارا ايضاً.

اجل «بطره» «PEDRO» ، «غومس غنصالس» و «بطره دي لارا» مجتمعان في ذاكرتي وكان عليهما ان يظلا مجتمعين في ذلك السهل وفي ذلك الصباح عندما اسودت الغيوم ، كان عليهما ان يظلا يداً واحدة وجنباً الى جنب كما كانا طوال تلك السنوات عشيقين يتقاسمان فراش ملكتهما.

لا اريد الكلام عن قهقهات «بطره» ولا عن خديه الحمراوين ولا عن حنان ورقة وعذوبة ونعومة غومس غنصالس» واخلاصه وامانته وولائه.

اتذكر يا غومس غنصالس تلك الامسيات عندما تقترعان على من منكما يبيت مع الملكة ؟

انا بحاجة الى الاثنين ، اتحسس جسمك والامس ظهرك كأنه ظهر فتى لم ينضج بعد ، واشتاق ايضاً الى عتو «بطره» وثقته بنفسه وقوته ووقاحته وعناقه الطويل. ايها القند ، اترك المجال للنسيم لكي يدغدغ جسدي عسى اتقبل شيئاً منك. انتما الآن غير حاضرين في هذه الزنزانة. كنا ثلاثة وما كان لبطره ان يسمح بموتك في ذلك السهل ، انت يا بطره تخليت عنه في ساحة القتال وتركته وحيداً يقاتل العدو ، انا وضعته بين يديك وديعة وانت تهاملت في شأنه وكان ما كان.

ليست هذه رغبتي في الكتابة للتاريخ ، التاريخ لا يتوقف عند المشاعر والميول والحب والبغض والاشخاص الثانويين شئت الكلام عن زوجي الثاني الفونسه

الاراغوني الذي يسمونه «المقاتل» . انت ايها القند كنت الشخص الملائم لي لكي تساعد ملكتك وخليلتك .

توجه غومس غنصالس في تلك الليلة التي توفي فيها والدي لمقابلة ملك اراغون ليحدثه بشأن الزواج لم اعتمد على بطره في هذه القضية فهو لا يرضى بزواجي ليس لأنه يريد التفرد بجسدي بل لأنه يحتقر الرجال الذين هم على شاكلة الفونسه الاراغوني .

بطره لا يتحمل الموقف الوسط فالعالم في نظره اثنان : الذكور الفحول والاناث الاناث ، اما الباقون فهم لعنة الطبيعة او عقاب الالهة وبالتالي عناصر غير كاملة وبطره ينتسب الى تلك الفئة ذات القدرة الجنسية الممزوجة بشيء من حب التملك والتفرد مثل الديك بين الدجاج ولكنه يتسامح مع غومس غنصالس ليشاركه فراشي لأنه في قرارة نفسه يحب القند بقدر ما احبه انا مثل والد او صديق يحامي عنه .

فالامور ليست بالشكل السهل كما يتصور الناس ، بطره يشتهيني ولكن قد لا تكون شهوته بالشكل التي هي عليه لولا وجود غومس غنصالس . يكره الفونسه المقاتل زوجي ولكنه يحب القند عن طريقي . ليس على شاكلة المعتمد لا يفرق بين القيان والغلمان كما هو معروف عنه .

الفونسه ريموندس :

لا شك انه ينتظر موتي كما كنت انتظر موته . صعد الراهب الى زنزانتي حاملاً عشبة «الشومار» من شأنها ان تبعد الارواح الشريرة .

احدثك اليوم عن ولدي الذي لم يكن قد بلغ الرابعة من عمره وخرج لاستقبالي راكضاً وعلامات الخوف مرتسمة على وجهه وارتمى بين ذراعي .

تظنني كما يظنني الناس اني الام الملعونة التي حاربت ابنها المالك الآن وانا ما زلت حية سجينة ، ما زلت عثرة في سبيله ، والحقيقة اني فخورة بهذا الابن . منذ سنة اكمل الثامنة عشرة من عمره واستلم دفة الحكم شعرت بسرور عميق كسف غيظي وقهري لأني خسرت .

اعترف امامك وهذا الاعتراف لا يجديني نفعاً ولا انتظر منه مكافأة

ولا غفراناً اقول لذاتي واكتبه : اني احب ولدي ولقد احببته مع اني حاربته ، اعلم اني صقلت امبراطوراً ومع مر الاعوام يظهر لي تصرفي في محله ولم يسعني الا التصرف على هذا الشكل .

لم اهز السرير لولدي ولم اتل عليه قصص الجان والعفاريت .

رددت امي على مسمعي انها تحبني وتحب اختي تريز وتزعم انها تسلينا بتلاوة الاساطير التي لا غاية لها سوى املاء وقتها الفارغ ، وقت امرأة اهملها زوجها .

كونستانس امي تتضجر بصورة لا مزيد عليها خصتني وخصت اختي بانتباهها وتلت علينا القصص الخيالية تخترعها من مخيلتها الخصبة لكي تسليني وتسلي اختي تريز ، فالفرسان المنطلقون مفتشين عن المغامرات ، وهذا العالم المملوء بمخلوقات خارقة العادة وكؤوس الذهب والرماح السمهريات والسيوف المشرفيات ليست سوى ذلك العالم الذي تعيش به وتضيع في جوانبه . وفي بعض الاحيان عندما تتكلم تغمض جفنيها وتحمر وجنتاها كما لو ان الفرسان والمعارك تلهب مخيلتها وجسدها وتشعر بذاتها انها محمولة الى ذلك العالم الخيالي والحب العذري والعذارى المخطوفات .

خلقت بيننا تلك الايام جواً مشحوناً بالسحر واللذة فتضمني بشدة الى صدرها وتعضني عضات خفيفة ثم تعود الى سرد قصصها وحكاياتها . غابات بورغونية وطنها والبحيرات ذات المياه الزرق والمستنقعات تسكنها حيوانات غريبة عجيبة .

لست منصفة لأمي رغم ان جميع هذه الاهتمامات ليست موجهة اليّ بل اليها لأنني امتداد لها فانا من لحمها ودمها ، لحم طري ناعم يتقبل ملامساتها ومعانقاتها دون ابداء مقاومة . لم اعد طفلة ولم اعد مصدر اهتمام لكونستانسه ، اصبحت طفلة ناضجة قبل اوانها فانصرفت عني الى الرهبان فاقوالهم ووعودهم بحياة افضل الذ في سمعها من سؤالات طفلة تنمو بسرعة .

لا ادري لماذا اشعر الآن بقربي منها اكثر من اي وقت مضى انا ايضاً وحيدة لم يكن لكونستانسة من شاغل سوى التطريز والصلاة والنزهات الطويلة ، لا احد يدفىء لها فراشها ، وانا ليس لي من يدفىء لي فراشي . عندما شاهدت ابني ذلك

الصباح في قلعة «قشترله» ادهشني الشبه الكبير بينه وبين ابيه ، كان مثله نحيفاً محمر اللون رهيف الانف انف شاب في وجه طفل .

لم يفت الاوان ، انا قادرة على الحبل وولادة طفل اروي له القصص ولا اشعر بالوحدة ، طفل اشقر ممتلىء صحة يجلس على ركبتي ويحرجني بالاسئلة .

انا حزينة ايها الراهب والملكة لا يحق لها ان تحزن انا الآن في حالة كونستانسة ، والدي كان يفضل زائدة عليها ، اجل زائدة كنة المعتمد بن عباد ملك اشبيلية المخلوع عن عرشه ، وفضّلها على جميع النساء . انت تعلم ان ابي تزوج عدة نساء . اولى نسائه «غاته» ابنة وليم الفاتح ملك الانكليز خطبها وهو ملك ليون ولكنها مرضت وتوفيت اثناء سفرها من انكلترة الى اسبانية . اولى نسائه بالفعل هي ايناس ابنة غليوم السادس دوق بواتييه ، ثم طلقها سنة ١٠٨٠ بموافقة البابا غريغوريوس السابع دون ان يعقب منها . ثم تزوج كونستانس ابنة روبرت الاول دوق بورغونية وانا كنت ثمرة هذا الزواج . تزوجت وانا في العاشرة من عمري بالكونت ريمون البورغوني توفيت امي سنة ١٠٩٢ ، فتزوج والدي باميرة تدعى برتا وتوفيت دون عقب ، تزوج من جديد اليزابيت ابنة لويس ملك فرنسة ، لم تعطه ذكوراً بل ابنتين هما «شانجة» اقترنت بالقند «ردريك» و «الفيرة» اقترنت «بروجير» ملك صقلية وتزوج عقب موقعة «اقليش» ببيتريس ابنة امير «اوستية وتوسكانة» ولم يرزق منها ولداً .

لما تزوج امي جاءت من فرنسة وبرفقتها قريبة لها في غاية الجمال شغف بها والدي حباً واشتهرت الفضيحة بسبب هذا الحب الاثيم الامر الذي ساعده على ادخال الطقس الروماني لأن رئيس دير ساهاغون روبرت صديق الملك الحميم والمدافع الاكبر عن الطقس المستعرب ، وعده بالتدخل لدى الكرسي الرسولي والغاء زواجه بامي وتزويجه خليلته الحسناء الفرنسية نسيبة امي . وارتاع البابا غريغوريوس السابع امام ما يجري في ليون وقشتالة من حيث عودة الطقس المستعرب فوجه مبعوثاً من قبله هو الكردنال «ريكارده» ولم يقو والدي الفونسه على مقاومة تهديدات القاصد الرسولي ، فعقد مجمعاً في برغش ترأسه الكردنال ريكارده نفسه وقرر تثبيت الطقس الروماني وانتخب برنار رئيساً لدير ساهاغون لأن رهبان الدير انتخبوه مكان روبرت ولم يشأ ابي التخلي عن صديقه الذي استمر في ثورته على الطقس الروماني الجديد فما

كان من البابا غريغوريوس السابع الا ان وجه تهديداً بالحرم الكنسي ينزله بوالدي اذا لم يأمر بنفي روبرت الى مدينة كلوني الفرنسية واذا لم يتخل عن زناه بالمحارم اي بقريبة زوجته . فلم يجد ابي بدّاً من التخلي عن عشيقته وعن صديقه روبرت .

ما لي اراك ايها الراهب تشع عيناك ببريق غريب عندما يجري ذكر اسم زائدة امامك ؟ لا شك انك سمعت بسحر النساء المسلمات وتشتهي ان تنعم بواحدة منهن ، لطيفة لعوبة ناعمة الملمس مستسلمة طائعة ترنو اليك بالحاظ مراض وتشنف آذانك بالحان واغان رخيمة تفتح عينيها وفمها بدهشة كلما خرجت من فمك كلمة ذات معنى او بدون معنى ، دمية تتصرف بها كما تشاء في فراشك .

لا تقل شيئاً ايها الراهب ، احس بما يدور في خلدك . عندما المقاتل يعود من ساحة الوغى يبحث عن الطمأنينة وعن وسادة مريحة يتكىء عليها وخلاخل من الذهب ذات صرير كلما همت لأمر ما . زائدة تربت على هذا النحو وتحسن ممارسته ، انه فن ومهنة يتطلبان الوقت الطويل من التدريب والتمرين .

زائدة حقل خصب يتقبل الزرع ولذا عاشت امي وحيدة وليست زائدة وحدها التي اختلست والدي من فراش امي .

كونستانس تحتقر والدي واظن انها في قرارة نفسها تتمنى لو تعثر على رجل تتمرغ معه في تلك الليالي الطويلة بدل ان تقضيها واصابعها تعد حبات السبحة كأني ولسان حالها يقول :

«تطاول هذا الليل وازور جانبه   وليس الى جنبي خليل الاعبه»
فوالله لولا الله لا شيء غيره   لزلزل من هذا السرير جوانبه»
«مخافة ربي والحياء يصدني   واكرم بعلي ان ينال مراكبه»

ليس من صالح الرجل ان يعيش وحده كما يقول الله الذي تصلي له ايها الراهب، واقل منه ان تكون المرأة وحدها الايام طويلة جداً . ايها الراهب إنك تتلهى بنمنماتك وانا انصرف الى كتابة هذه المذكرات لانسى الخوف وانسى امي كونستانس . حديثها مع المطران برنار عن تشييد الكاتدرائيات والفخفخة التي ترافق الطقس الديني الجديد ، تلفق القصص لي .

كونستانس على علاقة يومية مع هذا الاله الذي تريد ان تكافئه بالحجارة

المنحوتة تتحرك شفتاها بلا ملل ولا ضجر كما لو انها تتحدث الى ذاتها فتتناسى الغيرة التي تنهش صدرها .

اجل الغيرة من تلك الاجسام الفتية من العذارى اللواتي استعرضهن والدي وقدّمن له ما لم تحسن ان تقدمه له اما خجلاً واما عجزاً وجهلاً . غيرة جعلتها غير واثقة من نفسها متكبرة ومحتقرة غيرها .

اخذ ابني يبتعد عني منذ ان اقصيته عن «قند طرابة» في قلعة «قشطرله» ، وتركت هذا الولد في عهدة الرهبان ولم يرض «طرابة» عني لأني نزعت منه ولدي ولكنه لا يملك القوة لمواجهة الرهبان .

انا ايها الراهب مثل عمتي اوراكة طموحة وامي تغار من عمتي اوراكة وتغار ايضاً من ايناس الاكيتانية اول امرأة تزوجها والدي ولم يتوصل الى معرفتها .

تزوج ابي بامي بعد سنة من وفاة امرأته الاولى ايناس . جاء هذا الزواج برهبان كلوني وعلى رأسهم «برنار» الذي تصرف في البلاط كما شاء حتى انه حوّل المسجد الاكبر في طليطلة الى كاتدرائية فانتهز فرصة تغيب والدي الملك الفونسه السادس عن طليلة فاقتحم بموافقة الملكة امي مسجد المسلمين مع ان المعاهدة التي عقدها ابي مع المسلمين تنص على ابقاء المسجد على حاله ، ولم يراع المطران عهد ابي وشرفه ولا ما يمكن ان يجر تصرف مثل هذا من الويلات ويحدثه من سوء الاثر في نفوس المسلمين وعددهم لا يستهان به في صفوف الجيش . ضرب بكل هذا عرض الحائط ووجه العمال ليلاً الى المسجد واقام فيه المذابح الجانبية ورفعوا على سطحه الاجراس وحولوه الى كنيسة كاثوليكية وفي الصباح آحْتُفِلَ بذبيحة القداس فيه ، فهاج المسلمون في طليطلة وماجوا ولولا وجود حامية كبيرة فيها لتحول احتجاجهم الى ثورة مكشوفة .

ولما اقبل الملك توجه وفد منهم اليه واخبره بواقع الحال . وما كاد والدي يقف على التفاصيل حتى استشاط غيظاً من المطران برنار ومن امي ، وادرك خطورة هذا الفعل وما يترتب عنه لأن جيش والدي يضم الآلاف من المسلمين ، والمسلمون اغلبية في ولاية طليطلة ، والتسامح الديني امر واقعي . وشاء المحافظة على بنود المعاهدة الموقعة مع المسلمين حتى يتناسوا انهم تحت سلطة نصرانية كما يقول «اشباخ» وكان

يجد فيهم عضداً قوياً في حروبه ضد الاندلسيين والمرابطين الذين شرعوا يهددون الاراضي النصرانية بجموعهم الزاخرة .

وكان عمل الاسقف الطائش حرياً بان يحمل المسلمين على الخروج على ابي لا سيما وان قوى مملكة قشتالة قد ضعفت بعد هزيمة الزلاقة ، فكل زيادة في قوى اعدائه تجعله عاجزاً عن الاحتفاظ بما وراء نهر «التاجه» «TAJO» ، ومن ثم فقد ادى به الغضب من فعلة المطران وامي الى حد انه امر حال وقوفه على الخبر بحرقهما . ولعل رسل المسلمين رأوا انهم لن ينالوا شيئاً من انزال هذه العقوبة بهما او لعلهم املوا باستعادة مسجدهم ، فكانوا اول من توسل الى والدي لكي يهدىء اعصابه ويصفح عنهما . وتسألني لماذا بقي المسجد في يد النصارى بعد ذلك فهذا ما لا استطيع الاجابة عليه ولكن المسلمين هم انفسهم جعلوا والدي في حل من جميع العهود والمواثيق التي اخذها على نفسه في المعاهدة . وفعلاً كما علمت حوّل المسجد الى كنيسة في ٢٥ تشرين الاول ١٠٨٧ اي بعد سنتين تقريباً من احتلال طليطلة .

وحصل المطران على درجة رئيس اساقفة طليطلة وكان عيوناً وآذاناً ترى وتسمع بها امي كونستانس ، وهو الذي حال دون طلاقها .

انها قصص وروايات قذرة لا يجب تحريكها من رقدتها . اوراكة عمتي تغار من ايناس الفرنسية وامي تغار من اوراكة وامي تكره نسيبتها التي جاءت معها من بلادها لكي تسرق منها والدي منذ الليلة الاولى .

اعتمد ابي على روبرت رئيس رهبنة ساهاغون اسمه على اسمك ، لكي يفسخ عقد زواجه بامي . اقبل الليل وجاء وقت الصلاة شئت ان احدثك عن ابني وحدثتك عن امي ، ابني لي وسيواصل مهمتي ومشاريعي اني سعيدة ولكن امي لم تسعد بي قط انا غريبة بالنسبة اليها حنت دائماً الى بلادها الى اراضيها الخضر والى كروم العنب .

قبل ان اسجن في هذا الدير اقبل الى البلاط احد الشعراء المغنين المتجولين من بلاط نبارة وغنّى لي وتأثرت من غنائه وتساقطت دموعي على خدي . امي تكره طليطلة واراضيها ونهر التاجه فهي تخشاه ولم تستحم به بينما لا يفارق شفتيها اسماء الانهر الثلاثة التي تمر في بلادها «لوار والسين والغارون» ..

الفصل الخامس

النصارى المعاهدون

شكل المعاهدون او المستعربون اي النصارى الذين ظلوا تحت الحكم الاسلامي اقليات كبيرة في قرطبة واشبيلية وغرناطة وطليطلة ، يتمتعون باستقلال ذاتي يطبقون شرائعهم القوطية ، لهم قضاتهم وكنائسهم ، انشأت الادارة الاسلامية وظيفة «قومس» ليكون مرجعهم الرئيسي وهو من الشخصيات ذات النفوذ ، وله مكانة خاصة لدى الامير والخليفة فهو مستشاره في تلك الامور التي تتعلق بالنصارى .

لما استقر بكورة غرناطة اهل الاسلام وانزل الامير ابو الخطار قبائل العرب الشاميين بهذه الكورة واقطعهم ثلث اموال المعاهدين ، استمر هؤلاء يعالجون فلاحة الارض وعمران القرى يرأسهم اشياخ من اهل دينهم ، اولو حنكة ودهاء ومداراة ومعرفة بالجباية اللازمة لرؤسائهم . واحدهم رجل يعرف بابن القلاس له شهرة وجاه وصيت عند الامراء بها وكانت لهم كنيسة خارج الحضرة على غلوتين (اي ثمانماية ذراع) تجاه باب البيرة وهو من ابواب غرناطة القديمة وما يزال قائماً حتى اليوم بقوسه وجانبيه في الميدان المسمى باسمه داخل مدينة غرناطة وهو الباب الوحيد الذي بقي كاملاً وسليماً من ابواب سورها الخارجي . بيد انه يوجد من ابوابها الداخلية بضعة ابواب اخرى في حي البيازين وفي مدينة الحمراء وهي كنيسة شهيرة اتخذها لهم احد الزعماء من اهل دينهم ، فاصبحت فريدة في العمارة والحلية امر بهدمها الامير يوسف بن تاشفين لتأكد رغبة الفقهاء وتوجه فتواهم .

قال ابن الصيرفي : وهو ابو بكر من اكابر علماء غرناطة في النصف الاول من القرن السادس الهجري عمل كاتباً لأمير المرابطين محمد بن تاشفين الذي حكم الأندلس من سنة ٥٢٠ الى ٥٣١ والّف كتاباً في تاريخ الدولة المرابطية ، قال : خرج اهل الحضرة لهدمها يوم الاثنين عقب جمادي الآخرة من عام اثنين وتسعين واربعمائة فصيّرت للوقت قاعاً وذهبت كل يد بما اخذت من انقاضها وآلاتها ، ومكانها اليوم مشهور وجدارها مائل ينبىء عن احكام واصالة ، وعلى بعضها مقبرة شهيرة لأبن سهل بن مالك .

غزو الأندلس :

ويقول لسان الدين ابن الخطيب (الاحاطة جزء اول صفحة ١٠٨) :

«ولما تحركت للطاغية ابن رذمير الفونسه الاول ملك اراغون ريح الظهور على عهد الدولة المرابطية قبل ان يخضد الله شوكته على افراغه امل المعاهدون من النصارى من الكورة ادراك السعة والغنى واطمعت في المملكة خاطبوا بن رذمير من هذه الاقطار وتوالت عليه كتبهم وتواترت رسلهم ملحة بالاستدعاء مطمعة في دخول غرناطة ، فلما ابطأ عنهم وجهوا اليه زماماً يشتمل على اثني عشر الفاً من انجاد مقاتليهم لم يعدوا في هذا الجيش شيخاً ولا غراً ، فاستأثروا طمعه وابتعثوا جشعه واستفزوه باوصاف غرناطة وما لها من الفضائل على سائر البلاد وبفحصها الافيح وكثرة فوائدها من القمح والشعير والكتان وكثرة المرافق من الحرير والكروم والزيتون وانواع الفاكهة وكثرة العيون والانهار ومنعة قبتها وانطباع رعيتها وتأني اهل حاضرتها وجمال اشراقها واطلالها ، وانها المباركة التي يمتلك منها غيرها ، المسماة سنام الاندلس عند الملوك في تواريخها .

فرموا حتى اصابوا غربه فانتخب واحشد وتحرك اول شعبان سنة ١١٢٥/٥١٨ في اربعة آلاف فارس اقسموا ان ينتصروا او يموتوا . وقاده النصارى المعاهدون الى بلنسية ولكنه لم يقف لحصارها بل اخترق الولايات الاسلامية وهو يثخن فيها وينتسف حقولها حتى وصل الى مقربة من غرناطة بعد ان اجتاز مرسية ثم «بيرة» ثم «المنصورة» ثم انحدر الى «برشانة» ثم تلوم الى وادي «ناطلة» ثم تحرك الى «بسطة» ثم الى «وادي آش» فنزل بالقرية المعروفة بالقصر وهي واقعة في جنوب شرقي غرناطة ، وجيشه يتضخم يوماً بعد يوم بانضمام النصارى المعاهدين اليه ويغدو

على المسلمين اشد نكاية وضراً . وصافح المدينة بالحرب ولم يبلغ منها اربه فاقام عليها شهراً ، ولو نجح ابن رذمير في الاستيلاء على غرناطة وبها الكثير من النصارى الموالين له لأتخذت الحرب وجهة خطرة على سلطان المرابطين . ولكن والي غرناطة الرجل الوافر العزم استطاع رغم صغر الحامية ان يرهب النصارى في غرناطة وان يحول بما اتخذه من اجراءات دون ثورتهم وان يشدد الرقابة عليهم دون ان يدفعهم بالمطاردة والاضطهاد الى الهياج . واستقدم الجند من الانحاء المجاورة للمدينة بسرعة وانتظر مقدم النصارى .

وكان الجيش النصراني قد بلغ حينئذ خمسين الف مقاتل فضرب الحصار حول غرناطة شاعراً بقوته وتفوقه ولكن رداءة الطقس وما اقترن بها من امطار والعواصف الثلجية حالت دون القيام بحصار ناجع . واضطر النصارى الى اضاعة بضعة اسابيع لم يوفقوا فيها الى شيء . وفي تلك الاثناء هدأ روع اهل غرناطة واقترب وصول الامداد التي قدم بها ابو الطاهر تميم فاضطر الفونسه بن رذمير الى رفع الحصار عن غرناطة ولكنه لما رأى المؤن تنهال عليه من المعاهدين من كل صوب قرر المضي في مغامرته وان يسير صوب البحر المتوسط تاركاً غرناطة وراءه دون فتح وان يضم تحت لوائه نصارى مالقة والبشرات .

ويقول لسان الدين نقلاً عن كتاب الانوار الجلية للصيرفي :

«فبدا يحث المعاهدة في غرناطة في استدعائه فافتضح تدبيرهم باجتلابه وهمّ اميرها بتثقيفهم (اي باعتقالهم) فاعياهم ذلك وجعلوا يتسللون الى محلته على كل طريق وقد احدقت جيوش المسلمين من اهل العدوة والاندلس بغرناطة حتى صارت كالدائرة وهي في وسطها كالنقطة لما انذروا بفرضه .

وتحرك من وادي آش فنزل بقرية «دجمة» وهي تقع غربي وادي آش في منتصف الطريق بينها وبين غرناطة . وصلّى الناس بالمساجد صلاة الخوف يوم عيد النحر في هذه السنة في الاسلحة والابهة . وبعيد الظهر من غده ظهرت اخبية الروم بالقيل (اي منتصف النهار) شرقي المدينة . وتوالى الحرب على فرسخين منها وقد اجلى السواد وتزاحم الناس بالمدينة وتوالى الجليد واظلت الامطار وقام العدو بمحلته بضع عشرة ليلة لم تسرح له سارحة ، الا ان المعاهدة تجلب له الاقوات .

ثم اقلع وقد ارتفع طمعه عن المدينة لأربع بقين من ذي الحجة سنة عشرين وخمسمائة بعد ان تفرع مستدعيه اليها وكبيره يعرف بابن القلّاس فسفر يوبخه على استدعائه ويلومه على تضمنه

بما لا يفي به ولا يقدر عليه ، فاحتج له بتلومه وتباطؤه في اقباله حتى اقبلت الجيوش من الشرق والغرب والعدوة وقال ابن القلّاس لالفونسه بن رذمير «قد اوبقتنا واوقعتنا في الهلكة الى المسلمين» .

فرحل عن قرية مرسانة الى «بيش» ، ومرسانة وبيش قريتان من اعمال غرناطة تقع الاولى في شمالها الشرقي والثانية في شمالها الغربي ومن الغد الى السكة من احواز قلعة يحصب» .

ومضى الفونسه في هذا المسير الوعر وعلى مقربة منه صفوف الفرسان المرابطين الكثيفة تسير بمحاذاته وترقب كل فرصة صالحة للقتال حتى وصل الى «اليسانة» وهي محلة تقع بين غرناطة والبحر المتوسط وهنا رأى المرابطون ان هذا البسيط يصلح للمعارك ولم يقو الفرسان الافريقيون على كبح جناح رغبتهم في القتال فانقضوا على مقدمة النصارى والجأوها الى الفرار واعتقدوا انهم بذلك هزموا الجيش النصراني كله وشغلوا في اقتسام الغنائم والاسلاب فانقض الفونسه على صفوف المسلمين الناهبة انقضاض النسر من الجو ومزقها تمزيقاً واسترد الغنائم المفقودة واحتوى على اسلاب المرابطين وطاردهم حتى دخول الظلام ، واستطاع الفونسه بهذا النصر الباهر ان يتابع سيره دون ازعاج . في شعاب البشرات الضيقة .

ولما جن الليل امر اميرهم تميم برفع خبائه من وهدة كان فيها الى نجدة فساءت الظنون واختل الامر ففر الناس واسلموا . وتهيب العدو المحلة فلم يدخلها الا بعد هداة من الليل واستولى عليها . وتحرك بعد الغد منها الى جهة الساحل فشق العمامة الآمنة من الاقليم والشارات . ويقول بعض شيوخ تلك الجهة انه اجتاز بوادي شلوبانية المطل الحافات والمتحصن المجاز ، ثم عرج يمنة حتى انتهى الى «بلّش» وانشأ بها جفناً صغيراً يصيد له حوتاً اكل منه كأنه نذر كان عليه وفى به او حديث اراد ان يخلد عنه .

ثم عاد ادراجه وانضم الى جيشه اثناء العودة كثير من نصارى البشرات ، وانتقل الى المرج مضيقاً عليه والخيل تحرجه فنزل بعين «اطسة» والجيوش محدقة به وهو في نهاية من كل التعبئة واخذ الحذر بحيث لا تصاب فيه فرصة .

ثم تحرك الى وادي آش وقد اصيب كثير من حاميته ، وطوى المراحل الى الشرق فاجتاز الى مرسية ، الى جوف شاطبة والعساكر في كل ذلك تطأ اذياله

والتناوش يتخطر به والوباء يسرع اليه حتى لحق بلاده وهو ينظر الى قفاه مخترماً مفلولاً من غير حرب يكاد الموت يستأصل محلته وجملته .

تلك تفاصيل غزوة الفونسة المقاتل وقد انتهت الى فشل مطبق لم يحقق منها اي نتيجة عملية ولكنها كشفت عن حقيقة هامة وهي ان نظم الدفاع عن الاندلس لم تكن يومئذ وفق ما يجب من المتانة والاحكام ، وان خطط القيادة المرابطية منذ نكبة سرقسطة لم تكن كفيلة بردع عدوان الممالك النصرانية والبرهان على ذلك ان ملكاً من ملوك اراغون استطاع اختراق الاندلس من الثغر الاعلى الى شاطىء البحر المتوسط دون ان تتمكن قوة اسلامية مرابطية او غيرها من الوقوف في وجهه .

حقيقة اخرى ان النصارى المعاهدين لم يشعروا بذرة من الوفاء نحو الدولة الاسلامية ، فنما شعور التقاطع والريب ضد جماعات النصارى المعاهدين في مختلف القواعد الاسلامية الاندلسية وترتفع اصوات الفقهاء بالتشدد في معاملتهم وتجريدهم من كثير من ضروب الحرية والتسامح التي يتمتعون بها ، فهذا ابن عبدون في رسالته عن الحسبة التي وضعت في اوائل العهد المرابطي يقول : انه يجب ان يقطع ببلاد الاسلام ضرب النواقيس ، وانه نظراً لفساد اخلاق رجال الاكليروس يجب ان يؤمروا بالزواج كما في ديار المشرق ، ويجب الا يترك في دار القسيس امرأة ولا عجوز ولا غيرها ، كما يجب ان تمتنع النساء الافرنجيات من الدخول الى الكنيسة الا في يوم فضل او يوم عيد ، ويجب الا يباع من اليهود او النصارى كتاب علم الا ما كان من شريعتهم لأنهم يترجمون كتب العلوم وينسبونها الى اهلهم واساقفتهم وهي من تأليف المسلمين ، كما يجب ان يمنع الاطباء اليهود او النصارى من معالجة المسلمين .

كما يجب منع النساء المسلمات من الدخول الى الكنائس لأن الاكليروس هم من الفسقة والزناة واللواطيين ، ويجب منع الافرنجيات من الدخول الى الكنيسة ما عدا ساعات القداس او في الاحتفالات بالاعياد لأن من عادتهن الذهاب الى الكنائس للأكل والشرب والزنا مع الاكليروس وهؤلاء ليس من واحد فيهم الا له اكثر من خليلة يقضي لياليه معهن واصبحت هذه عادة عندهم ، يحرمون الحلال ويحللون الحرام . لا يجب ان يسمح لأي امرأة صبية كانت ام عجوزاً بالدخول الى بيت الكاهن اذا استمر بدون زواج . يجب ارغامه على الاختتان كما كان يرغمهم المعتمد بن عباد . يزعمون انهم يسيرون على شريعة عيسى عليه السلام ، وعيسى كان

مختوناً ، وعيد الختانة عندهم يحتفل به بابهة عظيمة . لماذا اذاً تخلوا عن ممارسة هذه العادة ؟

يجب منع العرافين من الدخول الى المنازل لأنهم سارقون وزناة .

لا يجوز جلد السكّير الا عندما يصحو من سكرته .

لا يحق للموامس كشف رؤوسهن خارج المواخير .

لا يجب ان يترك طبيب يهودي او نصراني يعتني بالمسلمين لأنهم لا يشعرون نحوهم بعاطفة صادقة . عليهم الاعتناء بابناء جلدتهم .

ومن ثم فقد كان لا بد من ان يحدث موقفهم اسوأ الأثر في الأندلس ، فاتخذت الحكومة الاسلامية في حقهم اجراءات رادعة تكفل بقمع دسائسهم ، وهذا ما حدث بالفعل عقب انتهاء غزوة الفونسه المقاتل فان ما حدث على اثرها من بوادر السخط على المعاهدين والتوجس من مكائدهم حمل كبير الجماعة في قرطبة القاضي ابا الوليد بن رشد على ان يعبر البحر الى المغرب ثم قصد الى امير المسلمين علي بن يوسف بمراكش وشرح له احوال الاندلس وما منيت به على يد المعاهدين وما جنوه عليها من استدعاء النصارى وما يعني هذا من نقض العهد والخروج عن الذمة وافتى بتغريبهم ووجوب اجلائهم عن اوطانهم وهو اخف ما يؤخذ به في عقابهم فأخذ امير المسلمين بهذه الفتوى وصدر عهده الى جميع بلاد الأندلس بتغريب المعاهدين الى العدوة فنفيت منهم جموع غفيرة وسيق الكثيرون منهم الى «مكناسة» و «سلا» وغيرهما من بلاد العدوة وهلك منهم خلال العبور والسفر عدد جمّ وتفرقوا شذر مَذر ، وضم امير المسلمين منهم عدداً الى حرسه الخاص امتازوا فيما بعد بالاخلاص والبراعة .

هذا التغريب لم يكن شاملاً فقد بقيت في غرناطة وفي قرطبة وغيرهما من القواعد جماعات من النصارى المعاهدين لتنمو وتزدهر مرة اخرى .

وقع تغريب المعاهدين في شهر رمضان ٥٢١ اواخر سنة ١١٢٧ ، وكانت نكبة بالغة لم يصب المعاهدين مثلها منذ زمن بعيد .

موقعة القلاعة :

ما كاد الفونسه بن رذمير يعود من حملته الاندلسية حتى اخذ يعد العدة

للقضاء على قوات المسلمين في جنوب الثغر الاعلى فسار في قواته جنوباً نحو اراضي بلنسية . وعلم علي بن يوسف بن تاشفين من عماله في بلنسية ان الفونسه المقاتل يتأهب لغزو اراضي المسلمين فخشي الامير علي ان تكون حركة شاملة كالتي قام بها الفونسه المقاتل في قلب الأندلس فأمر بحشد القوات من السود تتكفل بنفقاتها المدن ، كل مدينة وفق طاقتها . ثم ارسلت هذه الحشود الى مرسية تعزيزاً للجيوش المرابطية في شرقي الأندلس .

ويقول ابن القطان ان الموقعة نشبت في مكان يعرف بالقليعة او القلاعة وان القليعة تقع على مقربة من «جزيرة شقر» جنوبي بلنسية . وكان ابن رذمير (الفونسه الاراغوني) يرابط بقواته بها .

نشبت المعركة في سنة ١١٢٩/٥٢٣ . ويقول ابن القطان ان قوات المسلمين كلها كانت بقيادة ابن مجور وان المسلمين اصيبوا بهزيمة فادحة وفني معظمهم قتلاً واسراً واحتوى العدو على سائر اسلابهم ومتاعهم ودوابهم وبلغت خسارتهم نحو اثني عشر الفاً بين قتيل واسير (ابن القطان في نظم الجمان) .

وكتب امير المسلمين الى الفقيه القاضي وسائر الفقهاء والوزراء والاعيان مجاوباً لهم بهزيمة ابن رذمير اياهم في القلاعة .

«كتابنا ابقاكم الله واكرمكم بتقواه وكنفكم بعصمته وجعلكم في حماه واسبغ عليكم عوارفه ونعماه ، من حضرة مراكش حرسها الله في الحادي والعشرين من شعبان المكرم من سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، غب ما وافانا كتابكم الاثير مضمناً وصف اليوم الذي جرت به خزية المقادير فاستعرضناه وتقرر لدينا جميع ما حواه وفي علمه سبحانه موقع ذلك لدينا وعزازة شأنه علينا . لكن لا مخرج من القضاء وحكمه ولا محيد عن القدر وحتمه . ولن يرد حول محتال ما سبق في علمه ، وهو عز وجهه اعدل الشاهدين جداً وعزماً وكدحاً لاعلاء كلمة الاسلام وحزماً ببدل الاموال وتخير الرجال واعتيام الاسلحة والافراس والجمع بين الايحاش والايناس في الوعد والوعيد والتخصيص والتأكيد وعرض الآراء المتخيل فيها السداد وبلوغ مدة جهاد في كل نحو والاجتهاد لو كان العون موجوداً ولم يكن التعذير حاضراً عتيداً ، والله يخزي كل خائن ماين باسخاطه تعالى دائماً جزاه ويرد به برد مضمره ورداه . وبالله القسم الاعظم لو امكننا ان نكون لديكم حاضرين لاسرعنا بذلك مبادرين ولما ثنانا عن حماتكم بانفسنا ثان ولا قعدنا عن معالجة نصركم تراخ ولا توان . فلتهدأ ضلوعكم وليسكن روعكم فما لنا والله يشهد ، هم سوى الذياد عنكم والدفاع والاجتهاد والتوفر عليه باتم الاضطلاع ، والله عز وجل المنجد فلم يزل يعضد على ما يرضيه ويؤيد ، لا اله الا هو» .

وهذه رسالة اخرى وجهها امير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين بتقريع قادته وجنده عقب هزيمتهم امام ابن رذمير في اراضي بلنسية :

«يا فرقة خبثت سرائرها وانتكثت مرائرها وطائفة انتفخ سحرها ، فقد آن للنعم ان تفارقكم وللاقدام ان تطأ مفارقكم حين ركبتموها جلواء عارية واصبحتم في ادراع عارها امثالاً سواسية ، واختلط المرعى منكم بالهمل فما يتبين الانقص من الاكمل فطأطأتم لها رؤوس عشائركم ، لا جرم ان قد صرتم سم الندى والاحاديث المعلنة بالغداة والعشى بما خامركم من الجبن والخوار واستهواكم من لقاء عدوكم بالخانب الازور ، لا تواجهونهم طرفة عين ولا تعاطونهم حمة حين بل تعطونهم الظهر هنياً مرياً وتتخذونهم وراءكم ظهرياً والرماح نحوكم لم تشرع ، والخيل لم تسرع والنفوس في حياض المنية لم تكرع فانكم ثلة ذئابهم وفريسة انيابهم قد نعموا في بؤسكم وناهضوكم بلبوسكم وحاربوكم عاماً اثر عام حتى تركوكم اسح من حبارى واشرد من نعام .

فالآن حين ملأتم ايديهم متاعاً وواديهم سلاحاً وكراعاً قد غزوكم في عقركم واذاقوكم وبال امركم فلذتم بالحدران وبؤتم بالندامة والخسران وكنتم ، علم الله ، اضعافهم انى لكم المعذرة واين وقد فرض الله الواحد منكم اثنين فقل : ان تكن منكم مائة صابرة يغلبها مائتين .

فيا اسفاً للحق يدفعه الباطل والحالي يبخره العاطل لا بالحنفية تحرزتم ولا الى الحفيظة والانابة تحيزتم . ليت شعري بماذا قلدتموها هندية واعتقلتموها سمهرية خطية وركبتموها جرداً سوابق وملكتموها مغارب ومشارق ثاوين في غير عدادكم منتزين على اضدادكم يؤدون الاتاوة اليكم حين اشرقتموهم بالهوان وانتم فيهم غرباء الوجه واليد واللسان وصيروكم عبيد العصى ولستم بالاكثرين منهم حصى ، بل شرذمة قليل نفعها كثير نجعها ، فيا عجباً لذهولكم شبانكم وكهولكم تاكلون ثمرها ولا تصلون جمرها وتذهبون بحلوائها ولا تصبرون على لاوائها اي بني اللئيمة واعيار الهزيمة .

الى م يريعكـــم الناقـــد ويـــردكم الفـــارس الواحـــد
الا هل اتاهـــا على نايها وما فضحت قومها غامـــد
تمنـــيتم مائتـــي فارس فردكم فارس واحـــد
فلـــيت بارتبـــاط الخيـــول ضئانا لها حالب قاعـــد

ومن لرعاة الابل بالجد المقبل ؟ لقدر ما اذهبتم التالد والطارف وانتم قدحتم في ملكنا واذنتم بانتثار سلكنا فلولا ما لدينا من ذويكم وضراعتهم الينا فيكم لالحقناكم عجلاً بصرائحكم وطهرنا الجزيرة من رحضايكم بعد ان نوسعكم عقاباً ونجد ان لا تلووا على وجه نقاباً فاللؤم تحت عمائمكم والوهن والفشل طي حزائمكم لكن ما جبلنا عليه من الاناة يكفينا عن استئصالكم فاستنسروا يا بغاث الهيجاء واستيئسوا بعد الرجاء واحذروا حلماً اغضبتموه ووادياً من الصبر انضبتموه واتقوا صدراً احرجتموه وليثاً من اجمته اخرجتموه . وايم الله نقسم انذاراً بكم واعذاراً

لكم لنوردن الفار منكم من الزحف ما عافه من موارد الحتف ولنتجاوزن السوط الى السيف فليعلم المقدم المحجم منكم عن الاقدام انه سلم من الحمام الى الحمام وتخطى مصرع الاسد الباسل الى جذع مائل ، وشهادة الابرار الى مشهد الذل والصغار كما ان من اصيب منكم في حرب او ابلى بطعن او ضرب خلفناه في الأهل والولد وبعناه الاثرة والكرامة يداً بيد ، فاختاروا لأنفسكم واعقابكم وانضوا ثوب الخزي عن رقابكم ،

والسلام على من حمى الاسلام» .

كمل ما كتب به الفقيه الاريب الكاتب البليغ الاديب ذو الوزارتين ابو عبد الله بن ابي الخصال عن امير المسلمين .

الفصل السادس

مملكة سرقسطة

كانت من اهم ممالك الطوائف نظراً لموقعها بين الدول الاسبانية النصرانية وبين قطلونية من الشرق ونبارة من الشمال الغربي وقشتالة من الجنوب والغرب . وهي اقدم الدول الأندلسية المستقلة وارسخها جذراً في الاستقلال ، نظراً لموقعها المنعزل النائي في شمالي شرقي الجزيرة وابتعادها عن مجموعة الدول الأندلسية الاخرى تضطر الى مضاعفة الجهود للذود عن استقلالها ضد اطماع النصارى الذين يطوقونها من كل جانب .

ومملكة سرقسطة تقع في الثغر الاعلى المشتمل على مدينة سرقسطة وتطيلة ووشقة وبربشتر ولاردة وافراغة وطركونة وطرطوشة وبلغي وقلعة ايوب ودروقة ومدينة سالم ووادي الحجارة .

لبثت ولاية الثغر الأعلى خلال القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي مسرحاً لمغامرات بني قسي زعماء الثغر المولدين .

وفي اواخر هذا القرن في عهد الامير عبد الله بن محمد استطاع بنو تجيب اصحاب دروقة وقلعة ايوب من اعمال الثغر الجنوبية الاستيلاء على مدينة سرقسطة على عهد الانقر ، واقره الامير عبد الله على حكم سرقسطة واعمالها اكتساباً لولائه . وبنو تجيب هؤلاء من زعماء البيوتات العربية العريقة في الثغر ، يرجع اصلهم الى بني كندة . استمر بنو تجيب في سرقسطة والمنتزون من زعماء المولدين في باقي قواعد الثغر مثل تطيلة ووشقة على ولائهم لحكومة قرطبة ، ويخرجون احياناً عن طاعتها

حتى قضى الناصر لدين الله على ثوراتهم ، بيد انه عفا عن بني تجيب ورد زعيمهم محمد بن هشام التجيبي الى منصبه حاكماً على سرقسطة لما يتمتع من مقدرة ادارية ولما لبني تجيب في الشمال من العصبة والانصار .

حاول زعيمهم عبد الرحمن بن مطرف التجيبي صاحب سرقسطة الاطاحة بالمنصور بن ابي عامر بالتآمر مع ولده عبد الله وتمكن المنصور من القضاء على الاثنين واعدمهما واستبقى يحيى بن عبد الرحمن التجيبي ، فاستمر يحيى هذا حتى سنة ١٠١٧ ، وخلفه ابنه المنذر بن يحيى التجيبي وتوفي سنة ١٠٢٣ .

بالغ المنذر في صداقته لملوك النصارى حتى انه اقام في قصره بسرقسطة حفلاً لعقد مصاهرة بين اميرين من اولئك الامراء هما شانجه ملك نبارة ورامون بوريل امير برشلونة ، حضره الفقهاء والقساوسة واعيان الملتين .

ثم خلفه ولده يحيى ثم خلف هذا ابنه المنذر بن يحيى ، تلقب بالحاجب وقتل . وبه انقرضت السلالة التجيبية .

جاء ابو ايوب **سليمان بن هود** الجذامي من بيت عربي عريق من بطون جذام بنو غطفان وافصى ابني حرام ابن جذام ، وبنو الضبيب وبنو بعجة وغيرهم[1] . جلس على عرش سرقسطة سنة ١٠٣٩/٤٣١ وتوفي سنة ١٠٤٦/٤٣٨ .

المقتدر بن هود هو من اعظم ملوك الطوائف فهو عميد بني هود وعظيمهم ورئيسهم وكريمهم يحيط نفسه بجو من المهابة والروعة ، جمع حوله طائفة من اشهر العلماء والادباء في عصره ، ومن هؤلاء وزيره ابو المطرف ابن الدباغ ووزيره الكاتب اليهودي المسلم ابو الفضل بن حسداي الاسلامي السرقسطي ، والمقتدر نفسه من علماء عصره وكان يشغف بدراسة الفلسفة والرياضة والفلك وقد كتب في الفلسفة والرياضة . قصر المقتدر المسمى بالجعفرية من اعظم القصور الملكية في تلك العصور واشتهر في تاريخ الفن الاسلامي باسم «دار السرور» وكان اروع ما فيه بهوه الرائع الذي زينت جدرانه بالنقوش والتحف الذهبية البديعة فسمي بالبهو الذهبي ، او «مجلس الذهب» ، وفيه يقول منشئه المقتدر :

«قصر السرور» «ومجلس الذهب» بكما بلغت نهاية الارب

١ ــ ابن حزم : جمهرة انساب العرب ، تحقيق شوقي ضيف ص ٤٧٧ .

لو لم يجز ملكي خلافكما كان لدي كفاية الارب

وكان المقتدر اديباً ينظم الشعر وقد نسب اليه الحجاري صاحب المسهب قوله :

«لست لدى خالقي وجيهاً هذا مدى دهري واعتقادي

لو كنت وجهاً لما براني في عالم الكون والفساد»

وقد وجّه رئيس رهبنة «كلوني» الفرنسية «هوغو» عام ١٠٧٨ رسالة الى المقتدر نثبتها مع الجواب عليها .

رسالة الراهب :

«الى الصديق الحبيب الذي نؤمّله ان يكون خليلاً مدانياً ، المقتدر بالله على دولة هذه الدنيا ، الملك الشريف ، من الراهب احقر الرهبان الراغب في الانابة والايمان بالمسيح يسوع بن الله سيدنا .

لما انتهى الينا ، ايها الامير العزيز ، امرك الرفيع في الدنيا وبصيرتك في تبيين احوالها المتغيرة ، رأينا ان نراسلك وندعوك لتؤثر الملك الدائم على الملك الزائل الفاني .

وانك قد رأيت كتابنا اليك الذي راجعت عليه مراجعة نبيلة ، على حسب نظر اهل الدنيا ولم تكن بحسب مطلوبنا من المراجعة الروحانية ولذلك تراخى زماني بمراجعتك اذ توقعنا ان نتكلف تعباً نجتني به ثمرة .

وحقاً ان القادر على الكل الذي اصطفى اولياءه قبل خلق العالم ولم يسبق في علمه هلاكهم قد انار قلبك واشعره بالايمان بالاله المسلم لك وهو الرحمن الرحيم الغفور الذي يهديك لمعرفته .

وليس يسعنا ان نتراخى عن الاجتهاد في تتميم هذه المصلحة بجميل معونته لنشترك معاً في ملكوته ان آثرت ذلك ، ولهذا الامر اشخصنا اليك من اخواننا من يورد عليك كلاماً الهياً على ما يوفقهم الله اليه . ويشرحون لديك حقيقة دين النصارى ويقررون عندك معرفة المسيح سيدنا الذي لا ينبغي لنا الايمان باحد سواه ولا نرتجي النجاة الا به فهو الاله الذي اتخذ حجاباً على صورتنا لينقذنا بدمه الطاهر من هلكة ابليس .

ولقد كنا ايها الملك الشريف نورد كثيراً من هذا القول ، لولا ما نتوقعه من تألمك بسماعه وفي ذلك كله برهان الملة المسيحية وبيان جلالتها .

وان الاحاطة بكنهها مما يعجز دونه ادراك الانسان ، وملك الله تعالى اجل واعظم من ان يدركه فهم الانسان او يصل اليه بعلم الكلام ، الا ان آيات الله القادر على كل شيء ان يشرح صدرو الآدميين ويدخل روح العلم في قلوبهم ليتمكن من نفوسهم .

ولما كانت الدنيا من قبل معمورة بالضلال والعالم مدنساً بعبادة الاوثان حسن عند الله

القادر ، في آخر العهد ان يعيد الزمان جديداً ويستدرك الصلاح الذي فات العالم من آدم الوالد الاول ، وذلك امر قد اهتدى اليه اباؤنا من قبل ابراهيم واسحق ويعقوب والانبياء افصحوا به من بعدهم . وعهد من الله مؤكد قبل التورية وبعد تنزيل التورية ان يكون الالتحام المقدس معلوماً وليس هذا مما تختص به مصاحفنا فقط بل هو منصوص في مصاحف اليهود والمخالفين لنا ببيان واضح .

وان الشيطان اللعين عرض اهل هذه الدنيا بحسده لآدم حول تغيير هذه الملة المقدسة بعد اقبال الحواريين الذين هدوا اهل الارض بالموعظة ، وبعد ظهور الشهداء الاصفياء على ابليس بالغلبة الذين هرقوا دماءهم في اقطار الارض في ذات الله وفي سبيل شريعته المقدسة ، فلم يستطع ان يغري اهل الدنيا ويحملهم على ضلالهم القديم من عبادة الاوثان فشبه على بني اسماعيل في امر الرسول الذي اعترفوا له بالنبوة فساق بذلك انفساً كثيرة الى عقاب الجحيم .

وقد كان فيما سلف من ذنوب ابليس وتضليله للعباد ما يلقيه العذاب الأليم يوم القيامة ، من الله سيدنا يسوع المسيح وقد ضاعف تلك الذنوب بما اوبق فيه هذه الأمم العظيمة .

فاعتبر ايها الملك الشريف ، ولا تؤثر شيئاً على نجاة نفسك يوم الحكم والجزاء فانّا مخلصون في خدمة امورك ومسارعون الى تفديتك بنفوسنا ، ومتى قبلت قولنا وعملت برأينا وتقررت عندنا اجابتك الى ما ندعوك اليه من قبول كلمة النجاة الدائمة التي نعرضها عليك ، لم نتوقف عنك وعن اللحاق بك .

فتأمل ايها الحبيب ، ما يحق عليه تقديم العمل والمسارعة اليه واغتبط بما يدين به اخواننا في هذا القطر من الدعاء وبذل الصدقات الزاكية عنك ومن منهم احد رآك ولا شاهدك وانما يتبرع بذلك رغبة في ان يهديك الله الى مرضاته .

والسلام عليك يا ايها الحبيب من سيدنا يسوع المسيح الذي اذهب الموت وقهر الشيطان ورحمة منه وبركة باستنقاذك من حبايل ابليس التي كنت فيها متورطاً الى الآن ونسأل الله الذي له القدرة والعظمة الذي من اجله خلق كل شيء ومن دونه لم يخلق شيء ان يهديك ويثبت في نفسك ما دعوناك اليه وحضضناك عليه .

وان لم يظهر لك ، يا ايها الحبيب ، مراجعتنا بجوابك على ما تضمنه كتابك لآفات الكتب فاودع ذلك اخواننا هؤلاء واطلعهم على سرك وما يتمثل في نفسك .

ونحن نضرع الى سيدنا يسوع المسيح ان يتولى رعايتك ويكفل سلامتك ويهديك الى دينه المقدس ويسعدك بالايمان الصحيح به . امين ، سنة ٨٧٥» .

وكان القاضي الفقيه ابو الوليد الباجي آنذاك عند المقتدر فطلب اليه ان يرد على رسالة «الراهب هوغو الكلوني» الفرنسي ، فكان هذا رده :

جواب الفقيه القاضي ابي الوليد الباجي :

باسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وسلّم العزة لله والصلاة على رسوله .

تصفحت ايها الراهب الكتاب الوارد من قبلك وما مننت به من مودتك واظهرته من نصيحتك وابديته من طويتك قبلنا مودتك لما بلغنا من مكانتك عند اهل ملتك واتصل بنا من جميل ارادتك ونبهتنا ، لعمر الله ، بنصيحتك على ما يلزمنا من ذلك لك ولولا ما كنا نعتقد من بعد مستقرك وتعذر وصول كتبنا اليك لكنا احرياء ان نأتي من ذلك ما يلزم ونسلك منه السبيل الاوجب ولكنت عندنا جديراً بعرض الحق عليك وايصاله اليك ، فقد قرر لدينا من وصل من رسلك واهل ملتك علينا ما تظهره من حرصك على الخير ورغبتك في الحق ، مما قوى رجاءنا في قبولك له واقبالك عليه واخذك به وانابتك اليه .

وقد كان ورد علينا قبل هذا كتابك واقترن به من دعوى حامله المحال الذي كان يجب ان يخاطب به من له اقل حس بالاحساس او يختلج بخاطر من له ادنى فهم من احياء واموات واعظم رفات .

فالنا القول واوليناه الاعراض والصفح وجاوبناك جواب من يعتقد حسب ما ظهر منك وبلغنا عنك من خطرات الغفلة انك ارسلتها دون تأمل واظهرتها دون تحصيل ولا تحقق مع ظنك انه يجوز على ضعفاء المسلمين من ذلك ما يجوز على جماعتكم من تجويز فعال وتصحيح ما هو في غاية الابطال .

فقصدنا الرفق والتأنيس لك ، وكان ذلك افضل ما روجع به من ترجى عودته وتنتظر انابته وفيئته : فانما يستعمل الاغلاظ لمن يتيقن عناده ويتبين اصراره ولم يرج انقياده ، ونحو نرجو ان نرفعك عن هذه المحطة ونخلصك من هذه الوصمة بفضل الله وعونه وتأييده ونصره .

ولما تكررت علينا رسائلك ووسائلك ، تعينت علينا مفاوضتك فيما رضيناه من مسئلتك ومعارضتك فيما اخترناه من منهجك في النصح الذي يجري اليه اهل الفضل وامرنا الله به على السنة الرسل وكففنا من معارضتك على ما استقبحناه من خطابك وسخطناه من كتابك من سب الرسل الكرام والانبياء المعظمين عليهم السلام . وانحرفنا عن ذلك الى ان نحذرك وننذرك ونعذرك فيما لم يبلغك علمه ولم يتحقق لديك حكمه ونبالغ في الرفق بك والتبين لك على منهج الخطب والرسائل ، لا على طريق البراهين والدلائل ، مساعدة لك على مذهبك في كتابك وموافقة لك في مقصدك فعسى ان يكون اقرب الى استمالتك وابلغ في معارضتك ومعالجتك .

وانّا لنبرأ بمثلك ونرفع قدرك عما استفتحت به كتابك من ان عيسى صلى الله عليه وسلّم ، ابن الله تعالى ، بل هو بشر مخلوق وعبد مربوب لا يعدو عن دلائل الحدوث من الحركة والسكون والزوال والانتقال والتغير من حال الى حال واكل الطعام والموت الذي كتب على جميع

الانام ، مما لا يصح على آله قديم ولا يمكن عند ذي رأي سليم ، ولو جوزنا كونه ــ صلى الله عليه وسلّم ــ مع هذه الصفات والاحوال المحدثات ، إلاهاً قديماً لنفينا ان يكون العالم او شيء مما فيه محدثاً مخلوقاً لأنه ليس في شيء مما ذكرنا من البشر والعالم وما فيه من الحيوان والجماد من دلائل الحدوث غير ما في عيسى ــ صلى الله عليه وسلّم .

وان الله تعالى خلق عيسى ــ عليه السلام ــ من غير اب كما خلق آدم صلى الله عليه وسلّم ــ من تراب ، وقد حَمَلتْ بعيسى أم ولم تحمل بآدم انثى ولا ذكر ، فاذا لم يكن آدم الهاً وهو الاب الاول ، بل هو مخلوق ، فعيسى اولى ان لا يكون الهاً وهو من ذُرِيّة آدم وولده بل هو عبد مربوب ، وان هذا لواضح لمن جهل معنى الحدوث ولم يميز الخالق من المخلوق . واما من نظر في شيء من ابواب العلم وأُيِدّ باعتبار وفهم فعلامات الحدوث اوضح ودلائلها اصح من ان تخفى او تشكل او يَمترى فيه امرها من له من العلم ادنى محل .

وقد ظهر على ايدي سائر الرسل ــ عليهم السلام ــ من الآيات الواضحة والمعجزات الباهرة مثل ما ظهر على يدي عيسى ــ عليه السلام ــ واكثر ، فلو جاز ان يدعى لعيسى عليه السلام ، بشيء مما ظهر على يده من احياء ميت وابراء اكمه وابرص ، بانه ابن الله تعالى ، لجاز ان يدعى ذلك ابراهيم لما ظهر على يده من سلامته من النار بعد ان قذف فيها . ولم ينج عيسى من عدد يسير من البشر راموا بزعمكم صلبه وقتله ولجاز ان يدعى ذلك لموسى ــ عليه السلام ــ لما ظهر على يده من قلب العصا حية وفلق البحر ، ولجاز ان يدعى ذلك لمحمد ، صلى الله عليه وسلّم ، لما ظهر على يده من انشقاق القمر ونبع المياه من بين اصابعه وتسبيح الحصى في يده وحنين الجذع اليه ، وغير ذلك من الآيات .

لكن الآيات لا تقتضي تجويز المحال واحالة الجائز الممكن واذا كان ربنا تعالى ، قديماً سبحانه ان يكون محدثاً او مخلوقاً وكان من وجدت فيه دلائل الحدوث من الأكل والشرب والزوال والانتقال لا يكون الا مخلوقاً مربوباً . لم يدل احياء الموتى على يده انه آله معبود ، وانما يدل ظهور ذلك على يدي مدعي النبوة ، انه نبي صادق لأن ما فيه من صفات الحدوث لا تحيل كونه نبياً .

ولو جاز ان يقال ان عيسى عليه السلام ، هو الخالق ، لما ظهر من ذلك على يده والمنفرد بفعله لجاز ان نقول ان آدم وابراهيم وموسى ومحمداً وسائر الانبياء ، عليهم السلام انفردوا بخلق ما ظهر على ايديهم وان جميعه من خلقهم وانهم لذلك آلهة معبودون ، وذلك محال فلا خالق الا الله ولا معبود سواه وهؤلاء انبياء مكرمون ورسل مؤيَّدون ، صدّقهم الله تعالى بما ظهر على ايديهم من المعجزات التي لا يقدر عليها غيره ولا يصح ان يخلقها سواه .

وامر الدنيا احقر وشأنها انفر وانزر من ان يغتر بها ذو عقل او يسكن الى غرورها ذو لب ، وانما هي دار اختبار واعتبار وليست بدار جزاء او قرار ، فالسعيد من عمل فيها وتزود منها

الى دار المقام الذي لا ينفذ والنعيم الذي لا ينقضي بل يتأكد حيث ينفرد ربنا بالملك ويصير من اطاعه وافرده بالعبادة وآمن برسله وكتبه الى رضاه في دار النعيم ، ويصير من اشرك به وكفر بشيء من كتبه او احد من رسله الى سخطه في دار الجحيم .

ونرجو ان الله تعالى ينجيك بالاسلام ، منها ويبعدك ، بالانتقال الى دين محمد عليه السلام ، عنها .

وان الله تعالى انار قلوب جماعة المسلمين بالاسلام واعزنا به واكرمنا باتباع محمد ، صلى الله عليه وسلّم ، ورضينا له وخصنا بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، افضل الكتب والخاتم لها والحاكم عليها والمصدق لها تضمن علم الاولين والآخرين وانار قلوب المؤمنين بالحق المبين ، نحمد الله على ما خصنا به وهدانا له وَمَا كُنا لَنهْتَدى لَوْلَا ان هَدَانَا الله .

ويلزمنا الاجتهاد في النصح لك والرفق بك والحرص على ان تكون من جملة هذه الأمة المكرمة ومن اهل هذه الملة المعظمة الناسخة لجميع الملل والحاكمة على سائر الفرق فتفوز برضى رب العالمين وتنجو من سُخْطه وتنال ثواب يوم الدين وتخلُصُ من معرته وتسعد في الدنيا بالكون جملتنا وتحظى بالقرب من نفوسنا .

واما ملكوت رب العالمين فهو المنفرد به ــ تعالى ــ لا ينبغي ان يشركه فيه طائع ولا عاص ولا بر ولا فاجر ، وان اردت بذلك ان يكون من اطاعك في ملك الله تعالى فذلك حال من عصاه وحال اهل الدنيا والآخرة لا يخرج احد عن ملكه ولكنها الفاظ تستعلها في غير مواضعها لأنك لا تعرف مقتضاها .

ولوددنا ان الله بفضله ييسر لك الهجرة الينا والمثول لدينا فتسمع الكلام على حقيقته في معاني هذه الالفاظ ونقيّم وجوهها واستعمالها على ترتيبها وتسمع الكلام الالهي على الحقيقة ، كلام يمكن رب العالمين تولى حفظه ربنا عز وجل وعويه السنتنا وقلوبنا فلا يمكن احد تغييره ولا تبديله ولا صرفه عن وجهه ولا تحريفه فلو قرع سمعك منه سورة واحدة او آية كاملة لرجونا ان يكون ذلك مما ينور قلبك ويستولي على نفسك ويعود بك الى الدين الأفضل والسبيل الأمثل وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الاسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ في الآخرةِ مِنَ الخَاسِرِيْنَ .

وقد ورد مُتَحمِّلاً كَتَابَكَ فما اوردا الا كلام البشر الذي جرت عادة اهل الضعف بايراده عند العجز والفشل والتبلد والخور مع التحير والانقطاع والاضطراب في الدعاوي والاقوال وادعيّا في اول الأمر من المحال قريباً مما ادعى الوارد قبلهما مع تكذيبهما له فيما نقل عنك ، ثم آلت حالهما الى مثل ما آلت حاله اليه ومن تكذيب انفسهما وتكذيب المعبر عنهما فيما نقل عنهما وترجمه من قولهما .

وعندنا من علم شريعتكم واختلاف اخباركم في ملتكم وما تورده كل طائفة من شُبهكم في الاقانيم والاتحاد ومعنى اللاهوت والناسوت والجوهر وغير ذلك من تنميات اناجيلكم ما لو ابدينا اليهما اليسير منه لحيّرهُما وبهرهما وعلماً ان عندنا من جملها وتفاصيلها ما لم ينته اليه احد من اهل ملتكم ولا وصل الى تفريعه وتتبع معانيه اولكم وآخركم ، لكنّا آثرنا الرفق بهما والاخفاء عليهما والتأنيس لهما وابدينا اليهما نبذة خفية من الأمر ، مما لا تنفر منه نفوسهما ولا تتوجع من سماعه خواطرهما آخذين بذلك بأدب الله تعالى في امتثالهما لدينهما .

وقد رأينا ما في كتابك مما خالفت فيه جميع اهل ملتك فانه ليس في فرق النصارى من يقول : ان المسيح لا ينبغي الايمان باحد سواه بل هو الايمان بالآب عندكم واجب والآب لم يتخذ بالناسوت عندكم وانما اتخذ به الابن فمن لم يؤمن بغير الابن كفر بالآب ، وقد تقدم في كتابك ان المسيح ابن الله وهذا نقض لقولك انه لا ينبغي الايمان بغير المسيح الذي هو الابن .

ولو تتبعنا ما في كتابك من التناقض وفساد الوضع ومستحيل القول لما سلم الا اليسير الحقير ، لكنّا وفقنا الله واياك حملنا ذلك منك على ما عهدناه من اهل ملتك من قلة العلم والبعد عن مقاصد المناظرة وترك المدارسة والمحاورة مع تمويهات لا تصح وتلفيقات لا تثبت ولا تنصر ، وارجو ان يوفقك الله بارشادنا لك الى ترك التمويه والتعلق بالمغالطة والكذب ويعوضك علم الحقائق وصحيح المقاصد وادب المناظرة التي تفضي بك الى السبل اللائحة والحقائق الواضحة .

وقد جرى من كلام الواردَيْن من اصحابك اللذين اخترتهما للنيابة عنك من هذا النحو ما اتبعاه بالتحير والتبلد والانكار له بعد الاقرار به .

ولوددنا ان تصير الينا فنبلغ الغرض من تعليمك ونتمكن من تفهيمك ونبين لك من تحقيق الكلام وتحريره وتفصيله وتوجيهه وترتيب الادلة ومقتضاها واحكام البراهين ومنتهاها ما يزيل كل سخيفة من نفسك ويطهر من دنسها قلبك فتعاين الحق جلياً واضحاً والدين قوياً لائحاً .

على ان ملك الله تعالى اعظم من ان يحيط به فهم انسان او تستوعب صفاته بكلام او بيان فمن عظمته تعالى وقدرته وعزته انفراده عن الاشراك والانداد واستغناؤه عن الصحابة والاولاد «ما اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إذاً لَذَهَبَ كُلّ اله بما خَلَقَ» ، تفرد بالخلق والانشاء وكشف الضر والبلوى وبعث النبيين مبشرين ومنذرين فاخبروا عن ربنا بعظيم قدرته وعلو كلمته واتمام مشيئته وبينوا شرائعه واوضحوا براهينه وامره كل ذلك بالكلام المبين والمنهج القويم والادلة التي تضطر من تأملها الى الحق وتُنكّب من خالفها الى الشرك ولولا الكلام ما عرف الجائز من المحال ولا تبين الهدى من الضلال .

وما من نحلة ولا ملة الا وهي تزعم ان نفوسها نيرة بما تعلمه منشرحة بما تعتقده وكذلك تقول «البراهمة» الذين يكذبون الرسل «والدهرية» الذين يدعون الازل «والفلاسفة» القائلون بقدم العالم «والثنوية» المثبتون لخلق النور والظلام فما احد من هذه الفرق الا وهو يدعي ان

نفسه اسكن الى ما تعتقده واوثق بما تنحله وانور بما تزعم انه يعلمه ، من نفوس مثبتي الرسل ومتبعي الكتب .

لكن وضع الكلام ونشره وتمييزه ووصفه يعلي الحق ويثبته ويدحض الباطل ويمحقه ، وان الله تعالى جعل الدنيا دار تكليف وفتنة ومحنة ليبلونا اينا احسن عملاً ، وجعل الآخرة دار ثواب وعقاب ليثبت المؤمنين المحسنين ويعذب الكافرين المشركين وجعل من اسباب الفتنة ابليس اللعين وبعث النبيين يهدون الى صراط مستقيم «لئلا يكونَ للناسِ عَلَى الله حُجَةٌ بَعْدَ الرُسُلِ» فهدى بالنبيين من شاء بفضله وخذل بابليس اللعين من شاء بعدله .

فاول الرسل الى اهل الارض ، ابونا آدم ــ عليه السلام ، دعا الى عبادة الله وحده لا شريك له ولا ولد وكذلك الرسل بعده كلما نسيت شريعة وتقادم عهدها بعث الله رسولاً الى اهل الارض يجددها ويؤكدها الى ان بعث الله تعالى نبياً اسمه عيسى ــ عليه السلام ــ فدعا قومه الى عبادة ربه ومنشئه وخالقه فآمن به اليسير والعدد القليل الذين لم يطيقوا منعه مما اراده من اعدائه الكافرين المكذّبين لما جاء به من قبله حتى رفعه الله اليه واختار له ما لديه ، «وَمَا قَتَلُوه وَمَا صَلَبُوه وَلَكِن شُبّه لَهُم» . وقد بذل دمه بزعمكم حرصاً على استنقاذ الناس من الضلالة ، فما آمن به الا العدد اليسير وقد آمن بغيره من الانبياء ممن لم يبلغ هذا المبلغ امثال من آمن بعيسى فما توفي موسى عليه السلام ، حتى آمن به العدد الكثير والجم الغفير ولا توفي محمد صلى الله عليه وسلّم ، حتى آمن به العدد العظيم الذي استحوذ به على البلاد وتغلب على الآفاق واظهره الله على الدين كله «وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ» . ثم استفتح بعده باثر وفاته اصحابه بلاد فارس على بعدها عن مكانه وتمكين سلطانها وعظم شأنها وقدرها ، واستفتحوا بلاد الشام وهي كانت افضل بلادكم ومكان شريعتكم واليها ينتهي حجكم وعبادتكم فما صار لمن تزعمون انه آلهكم مع بذل دمه الا اقل مما صار للمربوبين الآدميين من النبيين مع اعزاز الله لهم وحمايته اياهم .

ولو كان عيسى إلاهاً لما احتاج الى ذلك ولخلقهم مؤمنين ولو شاء الله الا يعصى ما خلق الفتن ولا ابليس اللعين ، لكن الله تعالى خلق للجنة اهلاً للجنة بتوفيق الله تعالى يعملون وخلق للنار اهلاً للنار بخذلان الله يعملون ، ولو علم الغيب عيسى عليه السلام ، لما بذل دمه طمعاً فيما لم يتم له ولا حصل له منه شيء .

فاعتبر ايها الراهب ، ضعف ما انت عليه وفضل ما ندعوك اليه فعسى ان يوفقك الله ويهديك فتصير بعلم الله ، بكونك من جملتنا وفيئتك الى ملتنا فقد بلغنا من ارادتك للخير ورغبتك فيه وحرصك عليه ما حرصنا به على ارشادك وهدايتك ورجونا سرعة انقيادك وانابتك وما توفيقي الا بالله وعليه توكلت .

ومن اغرب ما تأتون به قولكم : انه بذل دمه في خلاص العباد وكيف يكون للرب دم والدم في الاجسام المحدثة المخلوقة ؟ ولو حددتم الكلام لزعمتم انه دم الناسوت دون اللاهوت

وللزمكم ان تقولوا : ان المصلوب هو الناسوت دون ابن الله تعالى ، لكنكم حققتم ان الهكم صلب ومات وهذه صفة لا تصح الا على محدث مخلوق لأن الحياة القديمة لا يصح عدمها ولئن جاز هذا عليه ليجوزن على ابيه ، بزعمكم ، لأنه على صفة ابنه بل هو عند جماعة منكم فكيف يكون الها قديماً حياً قيّماً لم يزل من يجوز عليه الموت وعدمت حياته وكيف لم يذهب عن نفسه الموت ولم يقدر على دفعه عنها واذهبه ، بزعمكم ، على ما ذكرته في كتابك وان جاز ان يموت ويكون مع ذلك الها فما نمنع على هذا ، ان يكون كل من رأيناه او سمعنا نخبره قديماً لم يزالوا الهة وان كان لهم اب او ماتوا وفنيت حياتهم وعدمت ، وهل يصح ان يبلغ هذا المبلغ من الجهل الواضح وتجويز قلب الحقائق ودعوى المحال الا من سقطت مقالته واستحكمت جهالته وعميت بصيرته ؟ فكيف يكون من هذه حاله يدعو الى ما هو عليه ويندب اليه ؟ وهل يمكن ان يكون في المقالات المستحيلة او المخايل المرذولة اشد فساداً من هذه التلفيقات التي تخجل من يوردها ولا يكاد يصح تكليف من يجوزها ويعتقدها ؟

واني لاعتقد ان مثل هذا لا يخفى عليك مع قلة المعرفة والبعد عن النظر في الادلة الآن هذا ليس مما يدرك بدقيق النظر ولا يحتاج فيه الى تأمل بل هو مما تناله اوائل العقول او يدركه ببديهة من له ادنى تحصيل واظن ان الحامل لك على هذا امرين :

اما انك لم ترَ من الشرائع غير ما قد نشأت عليه فاعتقدت ان سائر الشرائع تجري هذا المجرى في الاستحالة والفساد فرأيت ان تستمر على ما وجدت عليه سلفك اذ لم يظهر لك سبيل الى ما هو افضل منه .

او رأيت انك قد نلت بهذا المحال عند الجهال اهل ملتك منزلة تكره ان تنحط عنها وتبعد منها اذا انتقلت الى الدين الصحيح لعلمك انك لا تنال درجة دونهم منزلة في العلم ، فكيف بدرجة اعلامهم وايمتهم وذوي التقدم منهم .

ومن طريف ما تأتون به وتضحكون سامعه منكم قولكم ان عيسى ابن الله تعالى عن ذلك وتقولون انه من ولد داود عليه السلام ، وهذا ثابت في انجيلكم ومتلو من كتابكم ، وتزعمون ان جبريل اذ بشر مريم به قال لها : انه يكون عند الله عظيماً ويكون الله اسمه ناشراً ويدعى بابن الله ويورثه الله ملك ابيه داود ، ولا تحملون ذلك على ان داود ابوه من قبل مريم لأنها لم تكن من ذرية داود وانما تحملون على انه ابوه من قبل يوسف النجار الذي تزعمون انه كان زوجاً لمريم فاذا كان عيسى من ولد داود وداود عبد مخلوق وجد بعد ان لم يكن ومات بعد ان حيي فكيف يكون عيسى الأبن خالق داود ابيه والاهه كيف يكون ابناً لداود المخلوق وابناً لله الخالق ؟ وهل هذا الا جهل بمعرفة الابن مع الآب والقديم من المحدث والخالق من المخلوق ؟ ومن بلغ هذا الحد من الجهل لم يصح له اعتقاد شرع فكيف يدعو اليه ويتكلم عليه ؟ ولكن قلة التأمل مع حب الظهور يوجب التفريط ويورث التبلد والتحير نسأل الله العصمة .

وقد اختلفت فرقكم في الاتحاد الذي سميتموه التحاماً اختلافاً لعلة لم تبلغك ولو كنت لدينا لأريناك في هذا من كلام متقدمي اهل ملتك ثم من تقريع المسلمين على ذلك وتتبع الحجج عليهم بما لم يبلغه قط احد منهم ولاسمعناك من غرائبه وعجائبه وتلفيقاته وتناقضه وفضائحه واضطراب رواة الانجيل ما يملأ سمعك ويطيش له لبك ، لكن الكتب لا يحتمل التطويل لا سيما لمن لم يرد التأليف وانما اراد التقريب وخاف تحير من رود عليه الاكثار بالشرح والتفسير ، وما احد من اهل الملل واتباع الرسل ممن تقدم عيسى ، عليه السلام ولا ممن تأخر عنه يقرّ بانه وجد الالتحام الذي تدعونه في كتب ولا تنزيل ولا فيما اخبر به نبي ولا رسول .

وقد انزل ربنا في كتابه الكريم ان عيسى بشر بنبينا محمد صلى الله عليه وسلّم فاما ان يكون علم هذا عندكم والا فقد كتمه احباركم ومحوه من اناجيلكم فقد قرأناها معربة وعلمنا من اختلافها واضطرابها ما دلنا على انه قد دخلها التحريف والتبديل والزيادة والنقصان .

ومن ذلك ما في الانجيل من رواية متى ان بين ابرهيم ويوسف الذي تزعمون انه زوج مريم اثنتان واربعون ولادة وفي رواية لوقا بين ابرهيم والمسيح خمسة وخمسون رجلاً ليس فيهم من اسماء الدين في رواية متى الا عدد يسير .

ولا تكاد هذه الروايات تتفق في شيء والايمان بها عندكم واجب على اختلافها لأن الانجيل كتابكم واصل شرعكم فكيف يصح لكم الايمان بما يختلف ولا يتفق ويتباين ولا يتعاضد ، وكتابنا المحفوظ يحفظه الصغير والكبير لا يمكن احداً الزيادة فيه ولا النقصان والذي يقرأ به من في ابعد المشرق هو الذي يقرأ به مَنْ في ابعد المغرب دون زيادة حرف ولا لفظة ولا اختلاف في حركة ولا نقطة .

واني لاعجب ايها الراهب على ما ينقل الينا من فضلك في قومك وتقدمك عند اهل ملتك مما يبدو من فرط غفلتك وعدم معرفتك ، فيما تضمنه كتابك من ان ابليس اللعين يقدر ان يضل من شاء الله ان يهديه الى الدين القويم ، مع قولنا وقولك في كتابك : «ان الله على كل شيء قدير» ، فاي قدرة له اذا كان قد بذل دمه في نقض ما شرعه ابليس وغيره من خلقه فلم يقدر على اصلاح ما افسده ولا استرجاع ما احدثه ولا تقويم ما عوجّه وابليس اللعين لم يبلغ فيما ناله من ذلك سفك دمه ولا تغيير حاله ولا تجسد لغير جسده ولا انتقل الى غير ما كان عليه ؟ ان لمما هذا كان يجب ان لا يجوز على اقل تلاميذك واصغر اتباعك مما كان يجب ان لا يجوز على اضعف الناس علماً واقلهم فهماً .

ولكن ليس هذا باغرب من قولكم : ان ابليس عرض لعيسى الاله بزعمكم ورقى به اعلى الجبل واراه زهرة الدنيا وقال له : ان عبدتني ملكتك جميع هذا ، فلما سمع بذلك المسيح من كيد ابليس عاذ من شره واستجار من فتنته بصيام اربعين يوماً واربعين ليلة ، فامسك ابليس عنه فهل لمن جوّز هذا على ربه واخبر به عنه مسكة او بقيت بينه وبين التمسك بالحقائق والديانة نسبة ؟

اليس الاله هو الخالق لابليس والقادر على هلاكه متى شاء والمالك للارض والسماوات وما بينهما دون شريك ولا تمييز ؟ فكيف يخاف من هذه صفته بعض من خلقه ان يفتنه ؟ او كيف تحمل ابليس الارض او تظله السماء ، وهو يخاطب ربه ويدعوه الى عبادته وبعد ان يثيبه على ذلك ويملكه زينة الحياة الدنيا وهي ملكه ومن خلقه وربه يخاف فتنته ويستجير منه بالصيام ؟ وكيف يقول : انه يعاقبه في الآخرة بالعذاب الاليم ونار الجحيم ، وهو لا يستطيع ان يخلص نفسه منه ومن فتنته في الدنيا ؟ وهل قدرته في الآخرة الا كقدرته في الدنيا وكيف تزعم انه سليم من حبائل ابليس وخداعه وهو يخاف على نفسه ويحتاج الى من يسلمه منه وهو القاهر والخالق لابليس كيف شاء والمهلك له اذا شاء تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وان الله تعالى بلطفه وحكمته وعطفه ونعمته بعث محمداً صلى الله عليه وسلّم فختم به الرسالة واكمل به النبوة وجعله آخر المرسلين وبعثه الى جميع العالمين ففضله بهذه الدرجات الرفيعة وابقى شريعته الى يوم الدين واكرمه بهذه المنة العظيمة ، بعثه على حين فترة من الرسل ودروس من السبل وجهل بالشرائع وبعد عن معرفة الاديان والمذاهب ، وقد دخل جميعها التبديل والتغيير ، وقد خالفت اليهود وسائر الملل عيسى بن مريم عليه السلام وردت ما جاء به وانكرت ما دعا اليه واختلفت النصارى بعده على فرق كلها قد ضلت عن السبيل المستقيم والمنهج القويم واظهرت من الجهالات ما تحيله العقول ، وعبدت «المجوس» نيرانها و «الثنوية» نورها وظلامها و «العرب» اصنامها واوثانها وادعوا لله الصاحبة والاولاد وجعلوا له الاشراك والانداد فابتعثه الله من خير الأمم وهم بنو اسماعيل عليه السلام ثم من خير بني اسماعيل وهم قريش قطب العرب وافصحها السناً واخلصها عنصراً وارجحها في معاني الدنيا عقولاً واثقبها افهاماً واتمها دهاء واعظمها غناء واكرمها اخلاقاً واجودها اكفاً واطيبها اعراقاً ، فقام منفرداً فيهم يدعوهم الى عبادة الرحمن وخلع الاوثان فخالفه في ذلك القريب والبعيد والعدو والصديق : فأتاهم بالآيات المعجزات التي لا يصح فيها تمويه ولا تلبيس ولا تخييل ولا تحريف ، من انشقاق القمر بحضرة جميع من آمن به وكفر ممن غاب عنه ومن حضر ونبع الماء من بين اصابعه في قدح صغير حتى توضأ منه العدد الكثير وتسبيح الحصى في يده ، وحنين الجذع اليه واطعام العدد الكثير من الطعام اليسير وري الجيش العظيم من الماء القليل الذي لا يكفي النفر اليسير وابراء العيون بامرار اليد عليها وغير ذلك من المعجزات التي لو شئنا ان نتتبعها لعظم بذلك الكتاب وخرجنا عما قصدنا من الاختصار وقد تتابع ذلك في مقامات جمة بمعاينة جميع الأمة والاخبار بالغيوب على وجه يباين التكهين والاتيان بقصص الماضين وذكر الانبياء المتقدمين على حقيقة ما كانوا عليه مما لا يبلغه من افنى عمره في تعلم ذلك ومدارسة اهل العلم به من غير ان يعلم بمدارسة كتاب ولا مذاكرة اصحاب ، وقد علم ان مثل هذا لا يخفى لمن تناوله وان رام ستره وكتمانه .

ثم اكرمه الله تعالى بالمعجز الذي فضله الله به على جميع النبيين والمرسلين وهو القرآن الذي هدى به الأنس والجن اجمعين ، قال الله تعالى : «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الأنسُ والجِنُّ على أنْ يأتُوا بمِثْلِ هذا القرآنِ لا يَأتُونَ بمثله ولو كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيرًا» ، فتحدى به العرب والعجم وجميع الأمم والعرب في ذلك الوقت اهل فصاحة وبيان وتناه في ذلك الشأن فلم يستطع احد منهم ان يأتي بسورة من مثله مع ما اخرجهم اليه خلافهم له من سفك دمائهم وهتك استارهم وأخذ اموالهم والاستيلاء على بلادهم واحوالهم وخروجهم من اوطانهم ومفارقتهم آباءاهم وابناءاهم واخوانهم وازواجهم وكان اتيانهم بسورة من مثله ، لو استطاعوا ذلك اسهل عليهم من تكليف الحرب والصبر على ألم الجرح فكيف بالصبر على جميع ما ذكرناه ، مع انه نشأ معهم وبينهم ولم يتعلم ما لم يتعلموه ولا لقي من لم يلقوه ولو انفرد بالدرس دونهم والقراءة بينهم فقد قرأ غيره ودرس وعلّم وتعلم وكتب : والى زماننا هذا لم يستطع احد ان يأتي بسورة من مثل سوره ولا بآية من آياته وهذه اعظم معجزة على يدي نبي لأن كل معجزة كانت قبله قد امتنعت مشاهدتها وانقضى وقتها وانما ينقل الينا ذكرها ونخبر عنها والخبر يدخله الصدق والكذب ولولا ان محمداً صلى الله عليه وسلّم اعلمنا بصحتها وهو الصادق لما وقع لنا العلم بوجودها ومعجز القرآن باق بين اظهرنا ودائم عندنا لا ينقطع وقته ولا ينقضي الى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ، يدل في كل وقت واوان على صحة ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلّم من شريعته التي اختارها له افضل الشرائع وابينها حكمة واوضحها احكاماً واتمها قواماً فامرنا صلى الله عليه وسلّم بان نؤمن بالله وحده لا شريك له ولا ظهير ولا ند ولا صاحبة ولا ولد ، ونؤمن بملائكته وكتبه ورسله وان المسيح عيسى بن مريم عبد الله ورسوله ونؤمن بالبعث بعد الموت والحساب والثواب والعقاب وان من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلّم وبما جاء به فلا بد له من الجنة وان من كفر به او بشيء مما جاء به فانه مخلد في النار ، وشرع لنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واقامة الصلاة وايتاء الزكاة والصيام والحج وجهاد من كفر وصلة ارحام ورغّب في التواضع والعدل والاحسان والبذل والتساوي في الحق واداء الأمانة والصدق والتناصف والتعاطف والتعاون على البر والتقوى والأخذ بمحاسن الاخلاق في السر والجهر والتزهد في الدنيا والتنقل فيها والتجافي عنها والنبذ لها وحضنا على تعلم العلم واوجبه علينا وندبنا اليه والى الارتحال في طلبه والتتبع لدقيقه والاجتهاد في طلب صحيحه وتميزه من سقيمه والنظر في ادلته ووضعها مواضعها ودفع الشبه المعترضة عليها والمعارضة لها واعلمنا ان ذلك من ارفع ابواب شريعتنا وافضل ما يصرف اليه همتهم اولو الفضل منا ، ونهانا عن المنكر والفحشاء واتباع الضلالة والاهواء والكبر والخيلاء والظلم والعدوان والكذب والبهتان واخذ من ذلك كله في خاصته بابلغ غاية من اتعاب نفسه في العبادة وتكلف منها ما لم يستطع عليه غيره ممن عاصر واتى بعده ووقايته لاصحابه بنفسه في الحروب واوقات الشدائد واجتناب كل ما نهي عنه من المآثم وقبيح الاحوال ومذموم الخلال من حيث لو كان من امة توارث اهلها الشرائع من اول الازمان ثم لم ينتقلوا عنها ولا تبدلوا بها بل دونوا فيها

الدواوين وصنفوا فيها التصانيف والتآليف وكثر فيها علماؤهم وائمتهم وكثر الوارث لذلك عنهم ، ممن قطع عمره بقراءة ذلك ودرس كتبها وملازمة علمائها ، لقصر عما ظهر منه من صحيح الاحكام ورفيع الاحوال والاصابة في الاقوال والافعال والتصرف والزي والأكل والشرب والجلوس والمشي والأخذ والاعطاء وجميع الحركات والسكنات واللحظات وذلك كله مما يشهد عنه من فهم معانيه وتأمل في ذلك مقاصده وعرف وجه الصواب فيها ، انه من عند الله الذي يوفق انبياءه ويرشد رسله واولياءه ويشرع لهم الشرائع التي تشهد بصدقهم صحتها وتبين الحكمة في تفاصيلها وجملها .

وكان مع ذلك متقللاً من الدنيا مؤثراً غيره بها حين تعذرها ووقت الشح بيسيرها مطرّحاً لها معرضاً عنها حين اقبالها مع عظيم ما فتح عليه منها وبسط له فيها يبثها في اهل ملته والمستحق لها من غيرهم لم يمنعهم انحرافهم عنه وتكذيبهم له من اتيانهم العدل وانصافهم بالقول والفعل وان كان حظه وحظ اهله واقاربه من الدنيا وما فتح عليه منها اقل حظ ، لم يشبع هو واهله من طعام ثلاثة ايام متوالية ولا لبس ولا البسهم الا خشن الثياب ولا سكن ولا اسكنهم الا ادون المساكن .

لا يدعي محالاً ولا يقول انه يعلم من الغيب الا ما اعلمه الله تعالى فان سئل عن غيره صرف علمه الى الله تعالى ولا يدعي انه يغفر ذنب احد من امته فان سئل الدعاء دعا للسائل بالمغفرة واعلمنا انه لا يغفر الذنوب الا الله ولا يؤاخذ بها سواه ، يجالس العبد ويزور الضعيف ويرحم الصغير ويوقر الكبير .

لو جاز عليه ، مع ذلك ، الكذب لجاز على موسى وعيسى وسائر الانبياء فانا لا نعلم صدقهم ولا ميزنا ما جاءونا به من الحق مما جاءنا به الكاذبون والمتخيلون من الباطل والكذب الا بما ظهر على ايديهم من الآيات البينات وما اتى به محمد ابين واصح واتم وابلغ ، ولو جاز لكم ان تقولوا : ان ما اتى به محمد من جملة التخيل لجاز للدهرية والفلاسفة والبراهمة والثنوية الذين يكذّبون الرسل ان يقولوا : ان جميع ما جاء به موسى وعيسى وسائر الانبياء عليهم السلام ، من ذلك الباب وهو قولهم : ولما كذبتهم آياتهم ومعجزاتهم ووجب عليهم تصديقهم لزمكم وجميع الأمم تصديق محمد فما جاء به ابين واظهر واعظم .

وانك ، ايها الراهب ، الذي نحرص على تخليصك من الضلالة ان سمعت نصحنا لك واطعتنا فيما به امرناك وردت الآخرة في جملتنا من اتباع محمد عليه السلام النبي المكرم فتسعد بشفاعته وتشرب من حوضه وتسكن الجنة معه .

ونحن نسأل الله تعالى ان لا يعدل بنا عن الطريقة المثلى ولا يصرفنا عن سبيل الهدى وان يستنقذك من مكائد ابليس التي انت فيها متورط وبحبائلها متعلق وبخدعها متحيّر من تمادى عليها نال الشقوة وطول الحسرة في عرصة القيامة ويوم الندامة . يوم لا ينفع نصح ولا يقبل عذر ويوم

يعض الظالم على يديه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ولا مستقر يومئذ الا الجنة او النار فمن آمن وعمل صالحاً فالجنة مأواه ومن جعل لله صاحبة او ولداً فدرك النار مثواه اعاذنا الله منها واماتنا على الاسلام المبعد عنها .

فلا يغرنك ، ايها الراهب ، حظوتك عند اهل ملتك ومكانتك في مكانك واستجلاب نفوسهم واستمالة قلوبهم بالفاظ تزخرفها لا تعلم معانيها ولا تعرف حقيقة المراد بها ولا مقتضى القول فيها من قولك : الجواب الروحاني والكلام الالهي . وما اشبه ذلك من الفاظ كسيرة سمعتها فنقلتها الى غير موضعها واستعملتها على غير وجهها فانك لو سئلت عن مقتضى ذلك لاسلمك عدم معرفتك الى العي والحصر والعجز عن التقدم والتأخر فان استعمالك لها على غير وجهها دليل على جهلك بها .

فان قبلت نصحي وسمعت موعظتي اخرجناك ، بعون الله ، من ظلمة الجهل الى نور العلم ومن حيرة الشك الى تيقن الحق واريناك من طرق الاستدلال وتمييز البراهين والامثال ما يشرح صدرك وينور قلبك وتعلم به الحقائق ومعاني هذه الالفاظ التي انت معجب ومخطىء في ايرادها على غير وجهها وتتيقن انها من اقل ابواب الكلام واضعف ما يتمسك به ذو الاحلام .

وان ابيت الا الاستكبار والعتو والاصرار والغلو والالحاد والطغيان والعناد والعصيان فانك لن تعجز ربك ولن تنجو من ذنبك وذنوب من اتبعك وضل بك والكلام بغير علم في الدين كذب وافك على رب العالمين «وَمَنْ اظْلَمُ مِمَّن افترَى على الله كَذبا أُولئكَ يُعرَضُونَ على رَبّهم ويَقُول الأشْهَادُ : هؤلَاء الذّينَ كَذَبُوا على ربّهم ألَا لَعْنَةُ الله عَلَى الظَّالِمِينَ» .

فلا تؤثر على خلاص نفسك وخلاص من تبعك شيئاً من عرض الدنيا وزخرفها فانك لا ينفعك جهل من اغتر بك فيها يوم الورود على ربك .

وقد اودعنا صاحبيك الواردين علينا سراً وجهراً وبدءاً وعوداً ما نعتقده مما اعزنا الله به من الاسلام وخصنا به من بين الانام واكرمنا به من اتباع نبينا محمد صلى الله عليه وسلّم .

وقل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله فان تولوا فقولوا : «اشهدوا بانا مسلمون وتعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين» .

والله نسأله ان يهديك ويهدي بك من قبلك فتفوز باجورهم وتكون سبباً الى استنقاذهم فانت ، فيما بلغنا مطاع فيهم «والسَلامُ عَلَى مَنْ اتبع الهُدَى» .

كمل جواب الفقيه الأجل القاضي الاعدل ابي الوليد الباجي ــ رحمه الله وغفر له ونضر وجهه بمنه وكرمه وجوده انه ذو رحمة واسعة ورب غفور .

«بربشتر» «BARBASTRO» :

اكبر محنة نزلت بالمسلمين على عهد المقتدر بن هود هو غزو الاردمانيين لمدينة بربشتر وفتكهم باهلها باشنع وافظع ما سجلت صحف التاريخ ، ذلك ان حملة كبيرة من النورمان او الاردمانيين تقدر بعشرة آلاف فارس بقيادة «غليوم دي مونري» نزلت شاطىء قطلونية وسارت نحو الشمال مخترقة اراضي سرقسطة . وكانت هذه الحملة قد احتشدت في ولاية «نورمندي» الفرنسية .

قاد الحملة كما قلنا «غليوم دي مونري» من اكابر فرسان عصره ، وفد قبل ذلك العهد على ايطالية في اواسط القرن الحادي عشر وخدم الكرسي الرسولي حتى اصبح قائد الجيوش الرومانية البابوية .

انها حملة من الحملات الناهية التي تتستر بالصفة الصليبية ، قصدها العبث والنكاية والغنم والسبي في اراضي المسلمين اين كانت . اعد هذه الحملة البابا اسكندر الثاني وعلى رأسها روبرت كرسبين «ROBERT CRESPIN» بارون نورماندي . خرج الافرنج من الاراضي الكبيرة الى الأندلس في جموع ليس لها حد ولا يحصى لها عدداً الا الله وانتشروا على ثغور سرقسطة ونزلوا في قطلونية واجتازوا الى اراضي مملكة سرقسطة كما اشرنا ، وكانت تحمي مؤخرتهم ارض نصرانية هي امارة برشلونة وقصدوا اولاً مدينة وشقة احدى قواعد سرقسطة الرئيسية فنازلوها اياماً ولم ينالوا منها مأرباً ، غادروها وساروا شرقاً حتى مدينة «بربشتر» «BARBASTRO» .

تقع هذه المدينة على فرع صغير من فروع نهر ابرة بين مدينتي «لاردة» و «وشقة» في الشمال الشرقي من سرقسطة وتعتبر في ذلك الحين من امنع القواعد الاسلامية الشمالية ، فنزل عليها الاردمانيون وضربوا حولها الحصار في اوائل سنة ٤٥٦ (ربيع سنة ١٠٦٤) ، ولم يبادر المقتدر لانقاذها اذ كانت من اعمال اخيه يوسف المظفر ، فكان منه جبناً ونذالة على حد قول عبد الله عنان ، ادرك عواقبها فيما بعد . لم يتمكن يوسف نفسه من انجادها فتركها لمصيرها واستمر الحصار اربعين يوماً والمسلمون صامدون داخل مدينتهم الحصينة . وحاميتها تخرج من آن لآخر وتخوض مع الاعداء معارك شديدة ثم ترتد الى الداخل . ولما اشتد الضيق بالمدينة المحصورة وعزّت الاقوات وقع الهرج والتنازع بين اهلها ، وعلم الاردمانيون بذلك

فشددوا قبضتهم وجالدوهم . وكان الماء يأتيها في سرب تحت الارض من النهر حتى يدخل اليها فيخرقها . فخرج رجل من القصبة الى الاردمانيين ودلهم عليه فساروا اليه وهدموه وحالوا بينه وبين الاتصال بفم السرب ، فعدم اهلها الماء ولم يكن لهم صبر على العطش ، فراسلوا الروم في ان يسلموهم انفسهم وذراريهم ويسلمون اليهم البلد فأبى الروم من ذلك ، فجالدهم المسلمون الى ان دخل الروم عليهم عنوة .

وكان رئيسهم يسمى «البيطبين» وذكر انه حصل في سهمه من اوقار الاطعمة والحلى والكسوة خمسمائة حمل . وكان الخطب في هذه المدينة اعظم من ان يوصف لأن الحال آل بهم الى ان القوا بايديهم بسبب الظمأ وخرجوا من المدينة وانتشروا في بسيط الارض . فلما رأى الطاغية كثرتهم وانتشارهم خاف ان تدركهم حمية في استنقاذ انفسهم فامر ببذل السيف فيهم وبعضهم ينظر الى بعض من رجال ونساء . فقيل انه قتل منهم يومئذ نحو ستة آلاف ، ثم نادى برفع السيف عنهم وامر بخروجهم من المدينة بالاهل والذرية ، فبادروا الخروج منها مزدحمين على ابوابها فمات في ازدحامهم خلق كثير .

(ابن عذاري المراكشي جزء ٣ ص ٢٢٦)

ولما عرض جميع من خرج من المدينة بفناء بابها بعد قتل من قتل منهم ظلوا قياماً ذاهلين منتظرين نزول القضاء فيهم . ثم نودي بان يرجع كل ذي دار الى داره باهله وولده ، وازعجوا الى ذلك ولما استقروا بالدور مع عيالهم وذرياتهم اقتسمهم المشركون فكل من صارت في حصته دار حازها وما فيها من اهل وولد ومال فحكم كل علج منهم فيمن سلط عليه من ارباب الدور بحسب ما يبتليه الله به منه ، يأخذ كل ما اظهر له ويعذبه فيما اخفى عنه وربما زهقت نفس المسلم دون ذلك فاستراح وربما انذره اجله الى اسوأ من مقامه ذلك .

فلما استولى الروم على المدينة المشؤومة ترك فيها رئيسهم الف فارس واربعة آلاف راجل ورحل منها الى بلاده .

وقال ابن حيان : «وكان تغلب العدو على بربشتره قصبة بلد برطانية وهي تقرب من سرقسطة سنة ست وخمسين واربعمائة ، ١٠٦٤ مسيحية . وذلك ان جيش الاردمنيين حاصرها ونازلها وقصّر يوسف بن سليمان بن هود في حمايتها ، ووكل اهلها الى انفسهم فاقام العدو عليها اربعين يوماً وقع فيما بين اهلها تنازع في

القوت لقلته واتصل ذلك بالعدو فشدد القتال عليها والحصر لها حتى دخل المدينة الاولى في خمسة آلاف مدرع فدهش الناس وتحصنوا بالمدينة الداخلة وجرت بينهم حروب شديدة قتل فيها خمسمائة افرنجي ثم اتفق ان القناة التي كان الماء يجري فيها من النهر الى المدينة تحت الارض في سرب موزون انهارت وفسدت ووقعت فيها صخرة كبيرة سدت السرب باسره فانقطع الماء عن المدينة ويئس من بها من الحياة فلاذوا بطلب الامان على انفسهم خاصة دون مال وعيال ، فاعطاهم العدو الامان .

فلما خرجوا نكث بهم وغدر وقتل الجميع الا القائد ابن الطويل والقاضي ابن عيسى في نفر من الوجوه وحصل العدو من الاموال والامتعة ما لا يحصى حتى ان الذي خص بعض مقدمي العدو لحصنه وهو قائد خيل رومة نحو الف وخمسمائة جارية ابكاراً ، ومن اوقار الامتعة والحلى والكسوة خمسمائة حمل وقدر من قتل واسر مائة الف نفس وقيل خمسون الف نفس .

ومن نوادر ما جرى على هذه المدينة لما فسدت القناة وانقطعت المياه ان المرأة كانت تقف على السور وتنادي من يقرب منها ان يعطيها جرعة ماء لنفسها او لولدها فيقول لها اعطني ما معك فتعطيه ما معها من كسوة وحلى وغيره .

وقد كان السبب في قتلهم انه خاف من يصل لنجدتهم وشاهد من كثرتهم ما هاله فشرع في القتل حتى قتل منهم نيفاً على ستة آلاف ثم نادى الملك بتأمين من بقي وامر ان يخرجوا فازدحموا في الباب الى ان مات منهم خلق عظيم ونزلوا من الاسوار في الحبال للخشية من الازدحام في الابواب ومبادرة الى شرب الماء . وكان قد تحيز في وسط المدينة قدر سبعمائة نفس من الوجوه وحاروا في نفوسهم وانتظروا ما ينزل عليهم .

فلما خلت ممن اسر وقتل واخرج من الابواب والاسوار وهلك في الزحمة نودي في تلك البقية بان يبادر كل منهم الى داره باهله وله الأمان وارهقوا وازعجوا .

فلما حصل كل واحد منهم بمن معه من اهله في منزله اقتسمهم الافرنج بامر الملك واخذ كل واحد منهم داراً فيها من اهلها .

وكان من اهل المدينة جماعة قد عاذوا برؤوس الجبال وتحصنوا بمواضع منيعة وكادوا يهلكون من العطش فآمنهم الملك على انفسهم وبرزوا في صور الهلكى من

العطش فاطلق سبيلهم ، فبينما هم في الطريق اذ لقيهم خيل الكفر ممن لم يشهدوا الحادثة فقتلوهم الا القليل ممن نجا باجله .

وكان الفرنج لما استولوا على اهل المدينة يغتصبون البكر بحضرة ابيها والثيب بعين زوجها واهلها وجرى من هذه الاحوال ما لم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمن ومن لم يرض منهم ان يفعل في خادم او ذات مهنة اعطاهن خوله وغلمانه يعيثون فيهن عيثه . وبلغ الكفرة منهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقة .

ولما عزم ملك الروم القفول الى بلده تخيّر من بنات المسلمين الجواري الابكار والثيبات ذوات الجمال ومن صبيانهم الحسان الوفاً عدة وحملهم معه ليهديهم الى من فوقه وترك من رابطة خيله ببربشتره الفاً وخمسمائة ومن الرجالة الفين» .

وقال ابن حيان : «واختم هذه الاخبار الموقظة لقلوب اولي الالباب بنادرة منها يكتفي باعتبارها عما سواها ، وهي ان بعض تجار اليهود جاء بربشتره بعد الحادثة ملتمساً فدية بنات بعض الوجوه ممن نجا من اهلها حصلن في سهم قومس من الرابطة فيها كان يعرفه قال :

«فهديت الى منزله فيها واستأذنت عليه فوجدته جالساً مكان رب الدار مستوياً على فراشه رافلاً في نفيس ثيابه والمجلس والسرير كما خلفهما ربهما يوم محنته لم يغير شيئاً من رياشهما وزينتهما ووصائفه مضمومات الشعور قائمات على رأسه ساعيات في خدمته فرحب بي وسألني عن قصدي فعرفته وجهه واشرت الى وفور ما ابذله في بعض اللواتي على رأسه وفيهم كانت حاجتي .

فتبسم وقال بلسانه : ما اسرع ما طمعت فيمن عرضناه لك اعرض عمن هنا وتعرض لمن شئت ممن صيرته لحصتي من سبي واسراي من اقاربك فيمن شئت منهم .

فقلت له : اما الدخول الى الحصن فلا رأي لي فيه وبقربك انست وفي كنفك اطمأننت فسمني ببعض من هنا فاني اصير الى رغبتك .

فقال : وما عندك ؟

قلت : العين الكثير الطيب والبز الرفيع الغريب .

فقال : كأنك تشهيني ما ليس عندي ، يا باجة ، ينادي بعض اولئك الوصائف يريد يابهجة ، بعجمته : قومي اعرضي عليه ما في ذلك الصندوق .

فقامت اليه واقبلت ببدر الدنانير واكياس الدراهم واسفاط الحلى فكشف وجعل بين يدي

العلج حتى كادت تواري شخصه . ثم قال لها :

ادني الينا من تلك التخوت .

فادنت منه عدة من قطع الوشي والخز والديباج الفاخر مما حار به ناظري وبهت واسترذلت ما عندي . ثم قال : لقد كثر هذا عندي حتى ما الذ به .

ثم حلف بالهه انه لو لم يكن عنده شيء من هذا ثم بذل له باجمعه في ثمن تلك ما سخت بها يدي فهي ابنة صاحب المنزل وله حسب في قومه اصطفيتها لمزيد جمالها لولادتي حسبما كان قومها يصنعون بنسائنا نحن ايام دولتهم وقد رددنا الكرة علينا فصرنا فيما تراه ، وازيدك ان تلك الخودة الناعمة واشار الى جارية اخرى قائمة الى ناحية ، مغنية والدها التي كانت تشدو له على نشواته الى ان ايقظنا من نوماته . يا فلانة ، يناديها بلكنة : خذي عودك فغني زائرنا بشجوك .

فاخذت العود وقعدت تسويه واني لأتأمل دمعها يقطر على خدها فتسارق العلج مسحه واندفعت تغني بشعر ما فهمته انا فضلاً عن العلج ، فصار من الغريب ان حث شربه عليه واظهر الطرب منه .

فلما يئست مما عنده قمت منطلقاً عنه وارتدت لتجارتي سواه واطلعت لكثرة ما لدى القوم من السبي والمغنم على ما طال عجبي به . فهذا فيه مقنع لمن تدبره وتذكر لمن تذكره» .

وبربشتره هذه تناسختها قرون المسلمين منذ ثلاثمائة وستين سنة من عهد الفتوح الاسلامية بجزيرة الأندلس فرسخ فيها الايمان وتدورس القرآن الى ان طرق الناعي بها قرطبنا صدور رمضان من العام فصك الاسماع واطار الافئدة وزلزل ارض الأندلس قاطبة وصيّر لكل شغلاً يشغل الناس في التحدث به والتساؤل عنه والتصور لحلول مثله اياماً لم يفارقوا فيها عاداتهم من استبعاد الوجل والاغترار بالأمل والاستناد الى امراء الفرقة الهمل الذين هم منهم ما بين فشل ووكل يصدونهم عن سواء السبيل ويلبسون عليهم وضوح الدليل ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا في صفين هم الملح فيها الامراء والفقهاء بصلاحهم يصلحون وبفسادهم يفسدون ، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا بما لا كفاية له ولا مخلص منه ، فالامراء قد نكبوا عن نهج الطريق ذياداً عن الجماعة وجرياً الى الفرقة والفقهاء ائمتهم صموت عنهم صدوف عما اكده الله تعالى عليهم من التبين لهم قد اصبحوا ما بين آكل من حلوائهم وخابط في اهوائهم وبين مستشعر مخافتهم آخذ في التقية من صدقهم ، واولئك الاقلون فيهم . فما القول في ارض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميع اغذيتها وما هي الا مشفية من بوارها ، ولقد طما العجب ، من افعال هؤلاء

الامراء ، لم يكن عندهم لهذه الحادثة الا الفزع لحفر الخنادق وتعلية الاسوار وشد الاركان وتوثيق البنيان ، كاشفين لعدوهم عن السوأة من القائهم يومئذ بايديهم اليه اموراً قبيحات الصور مؤذنات الصدور باعجاز الغير :

امور لو تدبرها حكيم اذاً لنهى وحبّب ما استطاعا

استرجاع بربستره :

وكان صدى النكبة قد نفد الى الاعماق واهتز لها الأندلس وفي مقدمتهم المقتدر ابن هود وهو الذي شهدها عن كثب ولحقه من جرائها اكبر وزر . واتجه اليه اشد اللوم لتقصيره في انجاد المدينة المنكوبة ، نادى بالنفر للجهاد في سائر بلاد المسلمين ، فحميت نفوس اهل الاسلام وجاءه منهم خلق عظيم لا يحصى عدده . ذكر انه وصل من سائر بلاد الأندلس ستة آلاف من الرماة القّارة . وبعث المعتمد بن عباد ملك اشبيلية نجدة من خمسمائة فارس[1] .

سار المقتدر بن هود في قواته وقوات الامداد المختلفة الى بربشتره في جمادي الاولى سنة سبع وخمسين واربعمائة ، ربيع سنة ١٠٦٥ مسيحية ، وضربوا حولها الحصار ، لأن النصارى لما عاينوا قوة المسلمين وكثرة حملتهم ورماتهم اغلقوا ابوابهم وتركوا حربهم وعظم عليهم امرهم .

امر المقتدر بالله بالنقب لسورها وامر الرماة ان يثقفوا السور لئلا يمنع النصارى النقابة عن النقب ، فكان النصارى لا يخرجون ايديهم من فوق السور ، فنقبوا شقة كبيرة ودعموا السور واطلقوا النار في الدعائم فوقعت تلك الشقة بهم واقتحم المسلمون عليهم البلد .

---

١ ـــ لما استولى الروم على مدينة بربشتر خاطب ابو حفص عمر بن الحسن الهوزني المعتضد برسالة يحضه فيها على الجهاد ، فراجعه برسالة يشير فيها بالرجوع الى بلده ، لا بل استدرجه الى ملحده . فاستقر ابو حفص الهوزني باشبيلية سنة ثمان وخمسين واربعمائة ولقيه المعتضد باعلى المحل وفوّض اليه من الكثر والقل وعوّل عليه في العقد والحل . فلما كان يوم الجمعة لأحدى عشرة ليلة خلت لربيع الاول سنة ستين احضره القصر وباشر قتله بيده ، فلم ينل عباد بعده سولاً ولا متعّ بدنياه الا قليلاً .

ومن شعره في رسالة خاطب بها المعتضد من مرسية :

«أعبادُ جلّ الرزءُ والقوم هُجّعُ على حالة ما مثلها يُتَوَقّعُ

فلقّ كتابي من فراغكَ ساعة وان طال فالموصوفُ للطُول موضعُ

اذا لم أَبُثَّ الداءَ رَبَّ نَجاحهِ اضعْتُ ، واهل للملام المُضيّعُ

ولما عاين الروم ذلك خرجوا من ناحية اخرى على باب آخر وحملوا حملة رجل واحد في محلة المسلمين فاتبعهم المسلمون يقتلونهم كيف شاؤوا ولم ينجُ منهم الا اهل اليسير ممن تأخر اجله وسبوا كل ما كان من عياله وابنائهم وقتل منهم نحو الف فارس وخمسة آلاف راجل ولم يصب من جماعة المسلمين الا نحو الخمسين فاستولى المسلمون على المدينة .

وقال البكري : ادخل منها سرقسطة نحو الف سبية ونحو الف فرس ونحو الف درع واموالاً واثاثاً . وكان اخذها في جمادي الاولى سنة ٤٥٧ بعد ان احتلها النصارى تسعة اشهر .

وشاع لأبن هود صنيع في بلاد المسلمين لهذا الفتح الذي اتفق على يده وعلى اثره اتخذ ابن هود لقب المقتدر بالله .

المؤتمن :

وولي بعده ابنه المؤتمن يوسف بن المقتدر ، فكان خير خلف عن ابيه حامياً لملكه مجاهداً لغدوه مالفاً للآدباء والعلماء والشعراء ، وبه استجار ابن عمار من ابن عباد .

عادت الحرب الاهلية تضطرم من جديد بين يوسف المؤتمن صاحب سرقسطة واخيه الحاجب المنذر صاحب لاردة . التقى الفريقان في احواز موريلا على مقربة من طرطوشة فهزم المنذر وحليفه ، واستولى السيِّد «CID» على معسكرهما وعلى كثير من الاسرى .

لم يدم حكم المؤتمن اكثر من اربعة اعوام اذ توفي سنة ١٠٨٥ .

المستعين :

خلفه ولده المستعين الاصغر وحاصره الفونسه السادس الذي اضطر الى رفع الحصار والتوجه الى الجنوب لمقاتلة المرابطين .

ومن اخبار المستعين بن هود انه نزل من حصن روطة الى مدينة سرقسطة فجدد البيعة عن اهلها لنفسه ولأبنه بولاية العهد ، فلما كمل له من تجديد البيعة امله عزم على الغزو على بلاد الروم المجاورين له فجمع وحشد وسار في جيش جرار وتحرك في شهر جمادي الآخرة فاجتاز بمدينة تطيلة ودخل منها على «ارنبة» فتغلب على ارباضها واعتصم اهلها منه بكنيسة منيعة ثم صالحهم على مال يؤدونه اليه اخذ به

رهائن منهم . ثم انصرف قافلاً عنهم وشن في صدره الغارات على من بذلك الصقع من الروم وهدم واحرق وقتل وسبى وعاد الى بلاده . فلما شارف بلاد الاسلام لحقته خيل الروم المتآلفة من البلاد في اول يوم من رجب من سنة ٥٠٣ / ٢٤ يناير ١١١٠. فاجتلدوا احر الجلد وصبر الفريقان وطال الضرب واستشهد المستعين بن هود وانفض الجمع .

عماد الدولة :

وولي عبد الملك الملقب «بعماد الدولة» بعد استشهاد ابيه وبايعه الناس بسرقسطة بعدما اشترطوا عليه الا يستخدم الروم ولا يلتبس بشيء من امرهم ، واتصل بعبد الله بن فاطمة موت المستعين فطمع في سرقسطة وتحرك اليها وذلك على نحو شهر واحد من الوقعة . فلما انتهى الى مقربة منها وجّه اليه اهلها ان ينصرف عنهم ولا يبدأ الفتنة مع المبايع له خشية استصراخه بالنصارى فيعود الحرب .

ثم بعد ذلك لم يف عماد الدولة بن المستعين بالشرط الذي الزمه نفسه من طرح الروم وتركهم . فعزم على مداخلتهم ، وفهم منه ذلك اهل سرقسطة فاستدعوا الامير محمد بن الحاج صاحب بلنسية من قبل امير المرابطين معوضاً به من الامير عبد الله بن فاطمة الوالي على غرناطة . فوافاها صبيحة يوم السبت العاشر من ذي القعدة ففتحت له الابواب ففتحها واضطربت المحلة في الشريعة منها . ودخل المرابطون سرقسطة وتقدم اهلها لمحمد بن الحاج ، فدخل الجعفرية وصار القصر المذكور في ملكه .

وجرى ابن المستعين على سيرة ابيه وصانع اذفونش بن رذمير فاستجابه ووافاه بحصن تطيلة ومحمد ابن الحاج بالجيش في تلك الناحية . ثم انصرف الى سرقسطة وتقدم «الفونسه» حتى كان منها على فرسخين فابتدر ابن الحاج الى حرمه وامر الناس بالخروج اليه للمرحبة ورتب الناس على هيئة الاهبة والرتبة عامة يومهم وبآخره اخلوا مراكزهم وتسللوا الى المدينة فظهر الخلل والتسلل وانتهز الاذفونش الفرصة وقسم جيشه فرقتين وصدمت احداها ابن الحاج وصدمت الأخرى ابنه ابا يحيى فتفرق الناس عن الأبن واستشهد هناك وفقد في تلك الوقعة جملة من المسلمين .

وفي سنة ١١١١/٥٠٤ استقر محمد بن الحاج بسرقسطة «والفونسه بن رذمير» يساجله الحرب والظهور عليه وعبد الملك بن المستعين معه في جيوش تعضل

به الارض ، فنزل على نحو فرسخ من المدينة ومحمد بن الحاج يناوشه الحرب صباحاً ومساء الى ان لحق ابو عبد الله بن عائشة الوالي على مرسية من قبل امير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين بعسكرية مرسية والطاغية ابن رذمير صادر الى بلاده والعساكر المسلمة في اثره ، ولم تزل بعد ذلك الحرب متصلة والمضارب مترددة وغزوات محمد بن الحاج متوالية الى ان توجه «علي ابن كنفاط» اللمتوني بعسكر من المرابطين في جهة قلعة ايوب فنازل حصناً من حصون ابن المستعين صاحبهم فوجّه اليه مدداً من الروم شفى امره حتى دخل الحصن وخرج منه ليلاً على المحلة والناس على طمأنينة فتغلب العدو على المحلة واسر اميرهم «ابن كنفاط» وبقي في اعتقال ابن المستعين مدة ثم خلّى سبيله فكانت مهادنة ثم كانت حرب والحرب سجال .

وفي سنة ١١١٢/٥٠٥ خرج عماد الدولة من مدينة روطة برسم محاربة سرقسطة فخرج اليه واليها محمد بن الحاج بعسكرها فحاربه ثم بعد منه .

توفي عماد الدولة بروطة وولي بعده ابنه . فلم يستطع مقاومة النصارى فسلمهم روطة .

استسلام سرقسطة :

قتل ابن الحاج حين عودته من غزوة ١١١٤/٥٠٨ وذلك انه خرج في قواته من سرقسطة في شهر صفر ١١١٤/٥٠٨ وانضم اليه في لاردة محمد بن عائشة في قواته وسارت القوات المرابطية المتحدة شرقاً واخترقت اراضي امارة برشلونة وهي تثخن فيها وتستولي على مقادير هائلة من السبي والغنائم واستمرت كذلك حتى وصلت الى ظاهر مدينة برشلونة العظمى . وعندئذ بعث ابن الحاج الغنائم والسبي مع بعض قواته لتعود من الطريق الكبير واتجه بقواته غرباً ليسير من طريق البرية وهو اقصر واقرب الى سرقسطة ولكنه فوجىء خلال الطريق بقوات كثيفة من النصارى متأهبة في كمائنها فنشب القتال بين الفريقين وقاتل ابن الحاج وقواته قتالاً عنيفاً حتى سقط معظمهم وفي مقدمتهم قائدهم الباسل ونجا ابن عائشة وقليل من اصحابه .

وخلفه في ولاية سرقسطة الامير ابو بكر بن ابراهيم بن تافلوت المسوفي والي مرسية وهو ابن عم امير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين وصهره زوج اخته فلبث

في ولايتها زهاء عامين استوزر خلالها الفيلسوف الشهير ابا بكر بن الصائغ المعروف «بابن باجة» . ولما اتصل نبأ وفاته بالامير ابي اسحق ابراهيم بن يوسف اخ امير المسلمين علي بن يوسف وهو يومئذ والي مرسية بادر بالسير الى سرقسطة فنظر في شؤونها وضبط احوالها . ولما اطمأن الى توطيد امورها عاد الى مرسية مقر ولايته .

بدأ حصار النصارى لسرقسطة في شهر صفر ٥١٢ شهر ايار ١١١٨ . اننا امام حملة صليبية من فرنسيس وبَشْكُنْس وقَطَالانيّين و «ارقلة» «URGEL» ، وكان بين المقاتلين كثير من الاساقفة ورجال الدين وتنوه الرواية الاسلامية بضخامة هذه الحملة الفرنجية وتصفها الروايات بانها كالنمل والجراد اكثره من الجنود الرماة وتقول الرواية ان عددهم وصل الى خمسين الفاً .

بدأ الحصارَ الجيشُ الذي يقوده الفرنجي غشقون دي برن . ويقول لنا صاحب «روض القرطاس» : ان عبد الله بن مزدلي لما ولي سرقسطة سنة ٥١١ سار اليها من غرناطة فوجد ابن رذمير قد اذاق اهلها شراً فاشتبك معه عبد الله في عدة معارك شديدة حتى هزمه واخرجه من البلدة ولبث عبد الله بعد ذلك عاماً آخر في سرقسطة ثم توفي فبقيت دون امير .

واتصل الخبر بامير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين فكتب الى امراء الأندلس بالمسير الى اخيه تميم وكان والياً على شرقي الأندلس ليسير معه لاستنقاذ سرقسطة ولاردة اللتين يحاصرهما الاذفونش بن رذمير ، فقدم على تميم عبد الله بن مزدلي وابو يحيى بن تاشفين صاحب قرطبة بعساكرهما فخرج تميم بن يوسف من بلنسية مع امراء لمتونة فقصد نحو لاردة وكان بينه وبين الفنش قتال عظيم اقلعه عن لاردة خاسئاً حاسراً بعد ان بذل جهده في قتالها وفقد عليها من جيوشه ما يزيد على عشرة آلاف رجل ورجع تميم الى بلنسية .

بدأ حصار سرقسطة في ايار ١١١٨ وطوقتها قوات كثيفة من الفرنج والاراغونيين والبشكنس والقطلان وسرقسطة تعتمد في الدفاع على اسوارها العالية وعلى قلعتها المنيعة . وكان قصرها الشهير المسمى «الجعفرية» نسبة الى مؤسسه ابي جعفر المقتدر بن هود يقع خارج الاسوار غربي سرقسطة على قيد ميل منها وعلى مقربة من النهر ومن ثم فقد احتله النصارى لأول مقدمهم وحمل المحاصرون معهم ابراجاً خشبية عالية تجري على بكرات لكي يتمكن المهاجمون بها من الدنو من

الاسوار العالية لينصبوا فوقها الرعادات وجاءوا كذلك بعشرين منجنيقاً ضخمة لدك الاسوار . وكان الذي يشرف على آلات الحصار واستعمالها طائفة من اهل بيرن ممن اشتركوا في حصار بيت المقدس وتمرسوا في استعمال هذه الآلات .

ماذا حصل طوال هذا الحصار الذي استمر اكثر من سبعة اشهر ؟

يقول ابن الابار : ان جيشاً مرابطياً بقيادة الامير ابي طاهر تميم وصل في اواخر ايام الحصار في شهر كانون الاول دسمبر الى مقربة من سرقسطة بقصد محاولة انقاذها فخرج الى الامير تميم زعيمان من زعماء المدينة هما الفقيه علي بن مسعود بن اسحق بن ابرهيم بن عصام الخولاني وهو من اكابر علماء سرقسطة وكان متولياً قضاء ميورقة ، والخطيب ابو يزيد بن منتيال وحدثاه باسم اهلها بمحضر ابي الغمر الشايب بن غرون عن اهبات النصارى ووجوب مناجزة العدو ، ولكن الامير تميماً جبن عن ذلك ، وكان انتقاله بالجيوش عن سرقسطة سبباً في نجاح النصارى بالاستيلاء عليها .

وقد وجه قاضي سرقسطة ثابت بن عبد الله وجماعة من اهلها رسالة الى الامير تميم يتضرعون اليه بعبارات مؤثرة ان يتقدم لانجاد سرقسطة وانقاذها والا ينكص على عقبيه امام النصارى . كتبت يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان ٥١٢ اي لستة اشهر ونصف من بدء الحصار وقبل تسليم المدينة بثمانية عشر يوماً .

جاء فيها :

رسالة كتب بها قاضي سرقسطة والجمهور فيها الى الامير ابي طاهر تميم بن يوسف بن تاشفين حين حاصرها ابن رذمير واستولى عليها اعادها الله .

(مخطوط الاسكوريال رقم ٤٨٨)

«من ملتزمي طاعة سلطانه ومستنجديه على اعداء الله ثابت بن عبد الله وجماعة سرقسطة من الجمل فيها من عباد الله .

اطال الله بقاء الامير الاجل الرفيع القدر والمحل لحرم الاسلام يمنعه ومن كرب عظيم على المسلمين يزيحه عنهم ويدفعه .

كتابنا ايدك الله بتقواه ووفقك لاشتراء دار حسناه بمجاهدة عداه ، يوم الثلاثاء السابع عشر من الشهر المبارك شعبان ، عن حال قد عظم بلاؤها وادلهمت ضراؤها فنحن في كرب عظيم وجهد اليم قد حل العزاء والخطب واظللنا الهلاك والعطب فيا غوثاه ثم يا غوثاه الى الله . دعوة من دعاه وامله لدفع الضرر ورجاه سبحانه المرجو عند الشدائد الجميل الكرم والعوايد ،

ويا لله ويا للاسلام لقد انهك حماه وفضت عراه وبلغ المأمول من بيضته عداه ، ويا حسرتاه على حضرة قد اشفت على شفى الهلاك طال ما عمرت بالايمان وازدهرت باقامة الصلوات وتلاوة القرآن ترجع مراتع للصلبان ومشاهد ذميمة لعبدة الاوثان ، ويا ويلاه على مسجد جامعها المكرم وقد كان مأنوساً بتلاوة القرآن المعظم تطؤه الكفرة الفساق بذميم اقدامها ويؤملون ان يدنسوه بقبيح آثامها ويعمروه بعبادة اصنامها ويتخذوه معاطن لخنازيرها ومواطن لخماراتها ومواخيرها ثم يا حسرتاه على نسوة مكنونات عذارى يعدن في اوثاق الاسارى وعلى رجال اضحوا حيارى بل هم سكارى وما هم بسكارى ، ولكن الكرب الذي داهمهم شديد والضرر الذي مسهم عظيم جهيد ، ومن حذر هم على بنيات قد كّن من الستر نجبات الوجوه ان يروا فيهن السوء والمكروه وقد كن لا يبدون للانظار فالآن حان ان يبرزن الى الكفار ، وعلى صبية اطفال قد كانوا نشأوا في حجور الايمان يصيرون في عبيد الاوثان ، اهل الكفر واصحاب الشيطان ، فما ظنك ايها الامير ، بمن يلوذ به بعد الله الجمهور بامة هي وقائد هذه العظام الفادحة والنوائب الكالحة ، هو المطالب بدمائها اذا اسلمها في آخر ذمائها وتركها اغراضاً لاعدائها حين احجم عن لقائها فالى الله بك المشتكى ثم الى رسوله المصطفى ثم الى ولي عهده امير المسلمين المرتضى حين بعثك باجناده وامدك بالجم الغفير من اعداده نادباً لك الى مقارعة العدو المحاصر لها وجهاده والذب عن اوليائه المتعلقين بحبل طاعته والمتحملين السبعة اشهر الشدائد الهائلة في جنب موالاته ومشايعته من امة قد انهكها الم الجوع وبلغ بهم المدى من الضر الوجيع . قد برّح بهم الحصار وقعدت عن نصرتهم الانصار فترى الاطفال بل الرجال جوعاً يجرون يلوذون برحمة الله ويستغيثون ويمنون مقدمك بل يتضرعون حتى كأنك قلت : اخسئوا فيها ولا تكلمون . وما كان الا ان وصلت ووصل الله برك بتقواه على مقربة من هذه الحضرة ونحن نأمل منك بحول الله اسباب النصرة بتلك العساكر التي اقر العيون بهاؤها وسر النفوس زهاؤها فسرعان ما اثنيت وما انتهيت وارعويت وما ادنيت خارجاً عن اللقاء ناكصاً على عقبيك عن الاعداء فما اوليتنا غناء بل زدتنا بلاء وعلى الداء داء بل ادواء ، وتناعت بنا الحال جهداً والتواء بل اذللت الاسلام والمسلمين واجترأت فضيحة الدنيا والدين فيا لله ويا للاسلام لقد اهتضم حرمه وحماه اشد الاهتضمام اذ احجمت انصاره عن اعزازه اقبح الاحجام ونكصت عن لقاء عدوه وهو في فئة قليلة وملة رذيلة وطائفة كليلة يستنصر بالصلبان والاصنام وانتم تستنصرون بشعار الاسلام ، وكلمة الله هي العليا ويده الطولا وكلمة الذين كفروا السفلى . وان من وهن الايمان واشد الضعف الفرار عن الضعف فكيف عن اقل من النصف .

فيا قبح من رضي بالصغار وسما خطة الخسف ، فما هذا الجبن والفزع ؟ وما هذا الهلع والجزع ؟ بل ما هذا العار الوضيع ؟ اتحسبون يا معشر المرابطين ، واخواننا في ذات الله المؤمنين ان سبق على سرقسطة القدر بما يتوقع من المكروه والحذر ؟ انكم تبلغون بعدها ريقاً وتجدون في سائر بلاد الاندلس عصمها الله ، مسلكاً من النجاة او طريقاً ؟ كلا والله ليسومكم الكفار عنها

جلاءً وفراراً وليخرجكم منها داراً فداراً . فسرقسطة ، حرسها الله ، هي السد الذي ان فتق فتقت بعده اسداد والبلد الذي ان استبيح لاعداء الله استبيحت له اقطار وبلاد .

فالآن ايها الامير الاجل هذه ابواب الجنة قد فتحت واعلام الفتح قد طلعت فالمنية ولا الدنية والنار ولا العار ، فاين النفوس الابية واين الانفة والحمية ؟ واين الهمم المرابطية ؟ فلتقدح عن زنادها بانتضاء حدها وامتضاء جدها واجتهادها وملاقاة اعداء الله وجهادها فان حزب الله هم الغالبون ، وقد ضمن تعالى لمن يجاهد في سبيله ان ينصره ولمن حامى عن دينه ان يؤيده ويظهره .

فما هذا ايها الامير الاجل ؟ الا ترغب في رضوانه واشتراء جنانه بمقارعة حزب شيطانه والدفاع عن اهل ايمانه ؟ فاستعن بالله على عدوه وحربه واعمد ببصيرة في ذات الله الى اخوان الشيطان وحزبه فانهم اغراض للمنايا والحتوف ونهر للرماح والسيوف ولا ترض بخطة العار وسوء الذكر والصيت في جميع الامصار لأنك كمن قيل فيه :

«يجمع الجيش ذا الالوف ويغزو ولا يرزأ من العدو فتيلا .

ولن يسعك عند الله ولا عند مؤمن عذر في التأخر والارعواء عن مناجزة الكفار والاعداء . وكتابنا هذا ايها الامير الاجل اعتذار تقوم لنا به الحجة في جميع البلاد وعند سائر العباد في اسلامكم ايانا الى اهل الكفر والالحاد ونحن مؤمنون ، بل موقنون اجابتك الى نصرتنا واعدادك الى الدفاع عن حضرتنا ، وانك لا تتأخر عن تلبية ندائنا ودعائنا الى استنقاذنا من ايدي اعدائنا ، فدفاعك انما هو في ذات الله وعن كلمه ، ومحاماة عن الاسلام وحزبه ، فذلك الفخر الانبل لك في الاخرى والدنيا ومورث لك عند الله المنزلة العليا فكم تحيي من امم وتجلي من كروب وغمم وان تكون منك الاخرى وهي الابعد عن متانة دينك وصحة يقينك فاقبل بعسرك على مقربة من سرقسطة ، عصمها الله ، ليخرج الجميع عنها ويبرأ الى العدو ، وقمه الله ، منها ولا تتأخر كيفما كان طرفة عين فالامر اضيق والحال ازهق فعد بنا عن المطل والتسويف قبل وقوع الكروه والمخوف والا فانتم المطالبون عند الله بدمائنا واموالنا والمسؤولون عن صبيتنا واطفالنا لاحجامكم عن اعدائنا وتثبطكم عن اجابة ندائنا وهذه حال نعيذك ايها الامير عنها فانها تحملك من العار ما لم تحمله احداً وتورثك وجميع المرابطين الخزي ابداً .

فالله الله اتقوه وايدوا دينه وانصروه فقد تعين عليكم جهاد الكفار والذب عن الحرم والديار .

قال الله : «يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة الآية ... ومهما تأخرتم عن نصرتنا فالله ولي الثار ولنا منكم ورب الانتقام وتدبيركم باسلامنا للاعداء من نصر الاسلام وعند الله لنا لطف خفي ، ومن رحمته ينزل الصنع الخفي ويغنينا الله

عنكم وهو الحميد الغني ، ومن متحملي كتابنا هذا وهم ثقاتنا تقف من كنه حالنا على ما يتضمنه الخطاب ولا استوعبه الاطناب بمنه وله اتم الطول في الاصغاء اليهم واقتضاء ما لديهم ان شاء الله تعالى والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته» .

(عصر المرابطين ــ في المغرب والاندلس)
محمد عبد الله عنان ص ٥٣٨ــ٥٤١

ويقول عبد الله عنان في المصدر نفسه : «انه يحق لنا ان نتساءل عن البواعث التي حملت قائد الجيش المرابطي الامير ابا طاهر تميماً على اتخاذ هذا الموقف السلبي في مثل هذه الآونة العصيبة من حياة المدينة المسلمة العظيمة وحملت الجيش المرابطي على الاحجام عن منازلة العدو في محاولة يائسة لانقاذها . فاما من الناحية العسكرية فانه يمكن القول ان ذلك يرجع الى تفوق النصارى في الكثرة على الجيش المرابطي تفوقاً خشي معه الامير تميم ان يدخل في معركة غير مضمونة العواقب . وتميم لم يكن من كبار القادة المرابطين وانما يقود الجيش بصفته الاميرية ولم يكن انتصاره في موقعة اقليش راجعاً الى مقدرته وصفاته الخاصة وانما كان راجعاً بالاخص الى شجاعة قائديه محمد بن عائشة ومحمد بن فاطمة ولولاهما لما اشتبك في المعركة ولآثر الارتداد . وكان الجيش المرابطي قد فقد معظم قادته العظام امثال سير بن ابي بكر ومزدلي وعبد الله بن فاطمة ومحمد بن الحاج . ويمكن ان يقال ان موقع سرقسطة بعيد عن مراكز تموين الجيش المرابطي وامداده من بلنسية وقرطبة ومرسية لم يكن مما يشجع على القيام باية محاولة عسكرية خطيرة .

على ان هذه الاعذار وامثالها لا تكفي لتبرير موقف جيش واحجامه عن القيام بعمل انقاذ مشرف ، واتقائه بذلك صدع هيبته في انحاء شبه الجزيرة ولوم التاريخ والاجيال وانما ترجع البواعث الحقيقية لتقاعس المرابطين عن المغامرة وانقاذ سرقسطة الى انهم كانوا يشعرون بان الاحتفاظ بهذه المنطقة النائية من شبه الجزيرة ــ منطقة الثغر الاعلى ــ كان يلقي عليهم مسؤوليات عظيمة لوقوعها بين اعداء اقوياء يتربصون بها باستمرار . وان سرقسطة لم تكن بظروفها وروح شعبها كثيرة الولاء لحكمهم ومن ثم فان المرابطين لم يعنوا بان يتجسموا في سبيل انقاذها تضحيات عسكرية جمة .

تركت سرقسطة لمصيرها واضطرت بعد ان عانت اهوال الحصار وعنف

الجوع والحرمان والمرض اشنع الخطوب والمحن ، وبعد ان يئس اهلها من تلبية صريخهم وتلقي الاجناد من اي مكان رأت ان تخاطب الفونسه ابن رذمير ان يمنح اهلها هدنة مؤقتة فاذا لم يأتهم الانجاد المنشود سلمت اليه المدينة . وتعاهد الفريقان على ذلك ثم مضى الاجل دون ان يتلقى المحصورون اي معونة فاضطرت المدينة الى الاستسلام .

وهذه شروط تسليم سرقسطة كما ذكرها ابن الكردبوس تحقيق الدكتور العبادي ص ١١٨ـ١٢٠ :

ـ يسلمون البلد اليه ويجعلونه في يديه .

ـ من احب منهم الاقامة على اداء الجزية خاصة اقام ومن احب ان يرحل بما عنده الى حيث شاء من بلاد الله فله الامان التام الى ان يصل الى بلاد الاسلام .

ـ يسكن الروم المدينة والمسلمون ربض الدباغين .

ـ ان كل اسير يفلت للروم من المدينة ويحصل عند الاسلام فلا سبيل لمالكه اليه ولا اعتراض له عليه .

وقّع هذا الاتفاق وانعقدت فيه بينهم عقود العهد الوكيد والميثاق واسلموا البلد اليه في ٤ رمضان سنة ٥١٢ هـ يقابلها ١٩ دسمبر كانون الاول ١١١٨ ومنذ ذلك الحين صارت قاعدة لدولة اراغون .

فلما استقر الفونسه المقاتل ابن رذمير في البلد اخذ اكثر المسلمين في الرحيل والفرار فبلغ عددهم نحواً من خمسين الف نسمة ما بين صغير وكبير واناث وذكور .

فلما ساروا من المدينة على مرحلة ، ركب بنفسه مع من استصحبه واحتمله فوقف عليهم وامرهم ان يبرزوا جميع ما لديهم من القليل والكثير ، فرأى اموالاً لا تحصى ولا كان راجياً ان يرى جزءاً منها دهره فقال لهم : «لو لم اقف على ما عندكم من هذه الاموال لقلتم لو رأى بعضها لم يسمح لنا بالترحال ، فسيروا الآن حيث شئتم في امان» .

ووجه معهم من رجاله من يشيعهم الى آخر اعماله ولم يأخذ منهم سوى مثقال على الرجال والنساء والاطفال .

وعندما دخلها فرّ عماد الدولة بن المستعين الى روطة وهو معقل على مقربة من

سرقسطة مساو لاعنان السماء وفي غاية من المنعة والارتقاء كان المستعين بن هود قد اعده وبناه وبالاقوات والسلاح قد شحنه وحفر فيه الى الوادي سرباً اتقنه ، ادراجه تنيف على الاربعمائة درج فما يقطع له شرب ولا منهج فاقام فيه اعواماً ممتنعاً الى ان توفي .

وقام بالامر من بعده ابنه احمد وتسمي بالمستنصر فراسله طاغية الامبراطور الملقب بالسليطين وقال له :

«ارحل عن روطة واعوضك عنها بقشتالة ما هو احسن وافيد وتقرب من غرب بلاد الاندلس واخرج معك بنفسي واجنادي وابطالي واطوف معك على تلك البلاد وتدعوهم الى طاعتك فمن اجابك ودخل في جماعتك تركت عنده ثقاتك واستعملت عليه ولاتك وامنته انا من غارات الروم . وكنت لهم الأب المشفق الرحيم فارجو ان لا يتوقف عن اجابتك احد ، اذ قد اذاقهم المرابطون العذاب الاليم فكرههم الجميع وبودهم ان يضحى ملكهم وهو صريع ، ولو ظفرت بك ايديهم ما ابقوا منهم بشراً في ناديهم اذ لم يبق من ابناء الاملاك احد سواك» .

فرسخ هذا الكلام في رأسه وتمكن من نفسه وتخلى له عن معقل ما ابصر مثله من يعقل وامر له بقشتالة من قرى ومزارع وارضين ذات مراجع .

ثم خرج معه الى بلاد الاسلام الغربية في جيوش لا ترام فما قصد موضعاً الا الفه متقلعاً ممتنعاً ولا اطاعه بشر ولا انبسط له من قرية من القرى احد ولا انتشر لأنهم خافوا ان اطاعوه ان يغلبه العدو ويتملكهم ويقتلهم ويهلكهم فرجع اخسر صفقة من ابي غبشان[1] .

الحركة الادبية في سرقسطة :

ابن باجة :

كانت سرقسطة في عهد بني هود مركزاً لحركة ادبية علمية زاهرة . وكان بنو هود من حماة العلوم والآداب وقد نبغ بعضهم في ميدان الفكر مثل ابي جعفر المقتدر وولده المؤتمن وقد كان كلاهما من اكابر علماء عصرهما في الفلسفة والرياضة والفلك . اشتهرت سرقسطة في القرن الحادي عشر الميلادي بالدراسات الفلسفية

---

[1] ـ هو المحترش بن حليل بن حبيشة بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي ، ويضرب به المثل في الحمق والندامة وخسارة الصفقة . يمكن مراجعة خبره في الميداني مجمع الامثال ، جزء اول صفحة ٢١٦ .

والرياضية . وكان من اعلام ابنائها في هذا العصر فيلسوف من اعظم فلاسفة الاسلام وعلمائه هو ابو بكر محمد بن الصائغ المعروف بابن باجه وقد نشأ ابن باجه في اواخر القرن الحادي عشر بسرقسطة ولما ولي الامير ابو بكر بن ابراهيم اللمتوني سرقسطة من قبل المرابطين ندب ابن باجه لوزارته واختص به رغم ما كان يرمى به الفيلسوف من الميول والآراء الالحادية . ولما سقطت سرقسطة في ايدي الاسبان عام ١١١٨ غادرها ابن باجة الى اشبيلية ثم الى شاطبة ثم الى المغرب وتوفي هناك عام ١١٣٨ وكتب زهاء خمسة وعشرون كتاباً وترك لنا عدداً من القصائد وقد كان لآرائه تأثير كبير في تفكير الفيلسوف ابي الوليد بن رشد .

وكان ابو بكر بن ابراهيم ، الامير ابو يحيى المسوفي الصحراوي مثلاً في الكرم وآية في الجود انسى اجواد الاسلام والجاهلية الى الغاية في الحياء والشجاعة والتبريز في ميدان الفضائل .

ولما ملك سرقسطة اختص الوزير الحكيم ابا بكر بن الصائغ (ابن باجة) ولطف منه محله ، كما يقول ابن الخطيب (الاحاطة في اخبار غرناطة جزء اول ص ٤٠٦–٤٠٨) . ذكر انه غاب يوماً عنه وعن حضور مجلسه بسرقسطة ، ثم بكر من الغد فلما دخل قال له اين غبت يا حكيم عنا ؟ فقال : يا مولاي اصابتني سوداء واغتممت ، فاشار الى الفتى الذي كان يقف على رأسه ، وخاطبه بلسان عجمية فاحضر طبقاً مملوءاً مثاقيل وعليها ياسمين فدفعه كله اليه .

فقال ابن باجه : يا مولاي لم يعرف جالينوس من هذا الطب ، فضحك .

وذكر انه انشد شعراً في مدحه ، وقد قعد للشرب فاستفزه الطرب وحلف ان لا يمشي الا من فوق المال الى منزله في طريقه ، فالتمس الخدام برنسه بان كانوا يطرحون من المال شيئاً له خطر ، على اوعيته حتى يغمرها فيمشي خطواً الى ان وصل الى منزله .

وحسد الحكيم اصحابه ولم يقدروا على مطالبته . واتفق ان سار الامير ابو بكر وامر اصحابه بالتأهب والاستعداد ، فاستعد ابن باجة واتخذ الاقبية والاخبية واستفره الجياد من بغال الحمولة . فكانت له منها سبعة صفر الالوان ، حمل عليها الثياب والفرش والمال . فلما نزل الامير بمقره ، مرت عليه البغال المذكورة في اجمل الهيئات ، فقال لجلسائه : لمن هذه البغال ، ومن يكون من رجالنا هذا ، فاصابوا

العزة . فقالوا : هي للحكيم ابن الصائغ وليعلم مولانا ان في وسط كل حمل منها الف دينار ذهباً سوى المتاع والعدة ، فاستحسن ذلك . وقال : أهذا حق ؟ قالوا نعم . فدعا الخازن على المال وقال له : ادفع لأبن باجة خمسة آلاف دينار ليكمل له ذلك اثني عشر الفاً ، فقد سمعته غير مرة يتمنى ان يكون له ذلك . ثم بعث عنه في الحين وقال له : يا حكيم ما هذا الاستعداد ؟ فقال يا مولاي كل ذلك من هباتكم واعطياتكم ، ولما علمت ان اظهار ذلك يسركم . فسر بذلك .

ولما توفي بسرقسطة في سنة ٥١٠/١١١٦ رثاه الحكيم ابو بكر بن الصائغ بمراث منها :

سلام والمام ووسمي مزنـــة ... على الجدث الثاني الذي لا ازوره
احق ابو بكر تقضي فلا ترى ... ترد جماهير الوفـود ستـوره
لئن انست تلك اللحود بلحده ... لقد اوحشت اقصاره وقصوره

ومن ذلك قوله :

ايها الملك المفـدى لعمـري ... نعي المجد ناعيك يوم قمنا فنحنا
كما تقارعت والخطوب الى ان ... غادرتك الخطوب في الترب وهنا
غير اني اذا ذكرتك والدهـر ... اخـال اليـقين في ذاك ظنـا
وسألنا متى اللقاء فقيل الحشر ... قلنـا صبراً اليـه وحزنـا

ابو بكر الطرطوشي :

ونبغ في سرقسطة في ايام بني هود في عهد المستعين بن المؤمن المفكر والفيلسوف السياسي ابو بكر الطرطوشي نسبة الى طرطوشة في ثغر سرقسطة وهو صاحب كتاب «سراج الملوك» الذي يعتبر بنظرياته المبتكرة وموضوعه من الكتب التي خلقت اسس السياسة الملوكية في التفكير الاسلامي ويشير ابن خلدون الى هذا الكتاب في مقدمته ويعتبره من الكتب التي سبقته في موضوعه وقد وضعه اثناء اقامته بمصر ايام الافضل شاهنشاه ابن امير الجبوس وتأثر في كتابه بتفكير استاذه فيلسوف العصر ابن حزم القرطبي . توفي الطرطوشي بالاسكندرية سنة ١١٢٦ م .

وقد اوحت ظروف مملكة سرقسطة واحوالها السياسية والاجتماعية يومئذ الى الطرطوشي بكثير من نظرياته الاجتماعية ومنها نظرية عصبية الدولة فانه يرى ان عصبية

الدولة او قوتها الحامية انما تقوم على جند المرتزقة ، على جند اهل العطاء المفروض مع الاهلة . ويعارض ابن خلدون هذه النظرية ويقول انها لا تنطبق على الدول في اولها وانما تنطبق على الدولة في نهاية عهدها بعد التمهيد واستقرار الملك واستحكام الصنعة لأهله . وان الطرطوشي قد ادرك الدولة الهودية عند هرمها ورجوعها الى الاستظهار بالموالي والصنائع ثم الى المستخدمين من ورائهم بالاجر عن المدافعة .

وادرك دول الطوائف عند اختلال الدولة الاموية وانقراض عصبتها من العرب واستبداد كل امير بقطره . وعاش في ظل المستعين بن هود بسرقسطة ولم يكن بقي لهم من العصبة شيء لاستيلاء الترف على العرب منذ ثلاثمائة سنة وهلاكهم ولم ير الا سلطاناً استبد بالملك عن عشائره وقد استحكمت له صنعة الاستبداد فهو يستعين على امره بالاجراء من المرتزقة . والظاهر ان الطرطوشي قد تأثر تأثيراً شديداً بما شهده من اعتماد بني هود في حماية ملكهم على معونة جند النصارى ولا سيما ايام «السيِّد الكمبطور» وسعيهم الى شراء هذه المعونة بالمال اينما استطاعوا منذ ابتداء دولتهم حتى نهايتها .

وكانت سرقسطة الى جانب كونها مركزاً للعلوم والرياضة والفلسفة في القرن الحادي عشر الميلادي مركزاً لحركة ادبية قوية نبغ بها في ذلك العصر كثير من الادباء والشعراء مثل «ابن الدباغ» و «ابن حسداي» و «ابي عمر بن القلاس» ، و «قاسم بن ثابت» وكان اعلم من ابيه يقال انه اول من ادخل كتاب العين للخليل الى الأندلس والّف كتاباً في شرح الحديث عنوانه : «كتاب الدلائل» مات قبل اكماله فاكمله ابوه ثابت بعده . وكان قاسم عالماً بالحديث والفقه متقدماً في معرفة الغريب والنحو والشعر . قال الفرضي :قرأت بخط الحكم المستنصر بالله . توفي قاسم بن ثابت سنة ٩١٤/٣٠٢ .

«**وابو المطرف عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن فرتش**» : كان فقيهاً اديباً وكان فصيح اللسان وكان ذا فضل وادب وافر الشعر ومن شعره :

ولائمـة لي اذ رأتنـي مشمـرا اهرول في سبل الصبا خالع العذر
تقول : تنبه ويك من رقدة الصبا فقد دب صبح الشيب في غسق الشعر
فقلت لها : كفي عن العتب واعلمي بان الذّ النـوم اغفـاءة الفجـر

ومنهم : «**ابو زيد عبد الرحمن بن منتيل الانصاري**» : من اهل سرقسطة كان

صهر القاضي ابن سكرة وكان ايضاً اديباً شاعراً كتب الى القاضي ابي علي بن سكرة :

كتبت لأيام تجد وتلعب ويصدقني دهري ونفسي تكذب
وفي كل يوم يفقد المرء بعضه ولا بد ان الكل منه سيذهب

ومنهم ابو القاسم خلف بن خلف بن محمد بن اسماعيل بن يوسف الانصاري يعرف **بابن الانقر** اخذ العربية عن ابي عبد الله بن ميمون الحسيني. خرج من سرقسطة بعد ان استولى الروم عليها واستوطن بلنسية وشاوره قاضيها ابو الحسن بن واجب، ولم تخرج بلاد الثغر الشرقي افضل منه ومن ابي زيد بن منتيال الخطيب. ومن قول ابن الانقر السرقسطي :

«احفظ لسانك والجوارح كلها فلكل جارحة عليك لسان
واخزن لسانك ما استطعت فانه ليث هصور والكلام سنان».

توفي سنة ٥١٩/١١٢٥.

ومنهم ابو عبد الله محمد بن ميمون القرشي الحسيني من اهل سرقسطة ومن ولد الحسين بن علي رضي الله عنهما كان من اهل العلم بالعربية والآداب مدرساً لها. قال : «كانت لي في صبوتي جارية وكنت مغرماً بها وكان ابي رحمه الله يعذلني فيها ويعرض لي بيعها لأنها تشغلني عن الطب فكان عذله يزيدني اغراء بها، فرأيت في المنام كأن رجلاً يأتيني في زي اهل المشرق كل ثيابه بيض وكان يلقي في نفسي انه الحسين بن علي بن ابي طالب وكان ينشدني :

«تصبو الى مي ومي لا تني تزهي ببلواك التي لا تنقضي
ونجارك القوم الاولى ما منهم الا امام او وصي او نبي
فاثن عنانك للهدى عن ذا الهوى وخف الاله عليك ويحك وارعو

قال : فانتبهت فزعاً مفكراً فيما رأيته، فسألت الجارية : هل كان لك اسم قبل ان تسمي بالاسم الذي اعرفه. فقالت لا. ثم عاودتها حتى ذكرت انها كانت تسمى مية فبعتها حينئذ وعلمت انها وعظ الله».

ومنهم سليمان بن مهران السرقسطي : اديب شاعر مشهور له جلالة وقدرة. روى ابو محمد بن حزم عن محمد بن الحسن المذحجي قال : انشدني سليمان بن

مهران في مجلس الوزير ابي الاصبغيس بن سعيد وزير المظفر عبد الملك بن المنصور محمد بن ابي عامر :

خليلي ما للريح تأتي كأنما ... يخالطها عند الهبوب خُلوقُ
ام الريح جاءت من بلاد احبتي ... فاحسبها عرف الحبيب تسوق
سقى الله ارضاً حلها الاغيد الذي ... لتذكاره بين الضلوع حريق
اصار فؤادي فرقتين فعنده ... فريق وعندي في السباق فريق

وقد احصيت على هذا الشكل ما يزيد على مائة وعشرين عالماً كلهم من مملكة سرقسطة .

نرجع الى ابي بكر الطرطوشي فنقول انه ولد في ثغر طرطوشة في ٢٦ جمادي الاولى سنة ٤٥١ يوليو ١٠٥٩ وكانت مملكة سرقسطة تتمتع بفترة من الازدهار والرخاء ، وكان في هذا الوقت المقتدر بن هود ٤٣٨ــ٤٧٤ ، وكان من اكابر علماء عصره يشغف بدراسة الفلسفة والرياضة وله في ذلك كتب ضاعت وكان من العلماء المنتمين الى بلاطه العلامة الكبير ابو الوليد الباجي امام عصره في الفقه وفي مسائل الخلاف فقصد الطرطوشي الى هذا المنهل الغزير وتلقى عن الباجي كثيراً من علمه ولازمه خلال اقامته في سرقسطة وتأثر الطرطوشي في تفكيره وفلسفته الكلامية بتفكير هذا المفكر العظيم كما تأثر بتفكير صنوه وقرينه في غزارة الفقه ومسائل الخلاف والفرق العلامة ابن حزم القرطبي ، وشهد في شبابه احداث دول الطوائف ومملكة سرقسطة هي التي املت عليه بعض نظرياته السياسية والاجتماعية .

رحل الطرطوشي الى المشرق وهو في السادسة والعشرين من عمره وحج ثم قصد الى بغداد ودرس فيها على يد ابي احمد الجرجاني وابي سعد بن المتولي وهم يومئذ ائمة الفقه الشافعي . رحل الى الشام وبيت المقدس ثم مصر ونزل بالاسكندرية وحصل بينه وبين ابن حديد خصومة بسبب انتقادات الطرطوشي لتصرفات ابن حديد في الاموال والمكوس والمغارم الظالمة .

سراج الملوك :

ألّفه في الاسكندرية واهداه الى الوزير المأمون البطائحي وقدمه بنفسه له واستقبله الوزير بمنتهى المودة والاكرام .

جمع في هذا الكتاب ما اعتقد انه متفق مع العنوان : سير الأمم وخاصة ملوك الطوائف وحكماء الدول وانه وجد ذلك في ست امم هي العرب والفرس والروم والهند والسند والسند هند ، وقد استعرض ما الفاه في كتبهم من الحكم البالغة والسير المستحسنة بالاضافة الى ما جمعه من سير الانبياء وآثار الاولياء وبراعة العلماء وحكمة الحكماء ونوادر الخلفاء .

١ ــ يتحدث الطرطوشي عن الخصال التي يقوم عليها الملك وتلك التي تؤدي الى هدمه ، وعرض الخصال الممدوحة في السلطان والتي توجب ذمه وما يجب على الرعية اذا جنح السلطان الى الجور ، ثم يذكر سيرة السلطان مع الجند واقتضاء الجباية وانفاق الاموال .

٢ ــ الخصال المحمودة في السلطان : العدل والتواضع والحزم والحذر والحلم ولين القول ، ويقترن بذلك الحديث عن خير السلطان وشره : العقل الدهاء المكر والصفات البشرة من الحلم والجود والشح والصبر وكتمان السر والشكر . ثم الظلم وسوء عواقبه والسعاية وقبحها والقصاص وحكمه . يأتي على ذكر سير ملوك العجم والانبياء والزهد والوصايا والعظات .

٣ ــ الوزراء وصفاتهم وآدابهم والمشورة والنصيحة ، ويقرن ذلك كله بايراد الحكم والاخبار من اقوال الاسكندر وازدشير وانو شروان وبزر جمهر ويتحدث عن سياسة الخلافة نحو الذميين وعن القضاة والعمال وعن الحروب وتدبيرها .

يعتقد الطرطوشي ان هذه المواضيع لم يعالجها احد قبله والحقيقة انها عولجت : ابن قتيبة الدينوري المتوفي سنة ٢٣٦ هجرية عالجه في كتابه عيون الاخبار . وعالجه اخوان الصفاء في اواسط القرن الرابع الهجري في بحوثهم عن السياسة وعالجه ابو الحسن الماوردي المتوفي ٥٤٠ هـ في كتابه : «الاحكام السلطانية» وفي رسالته عن الوزارة والسياسة . غير ان الطرطوشي يمتاز عن اسلافه بالتوسع والاضافة وبانه طرق بعض ابواب لم تطرق من قبل . (عبد الله عنان) .

الصفة الدينية تغلب على اسلوبه .

حاول في بعض نظراته ان يستقرىء احداث عصره وخواصه وان يستخرج منها بعض المبادىء الاجتماعية على نحو ما فعل ابن خلدون حيث جعل من المجتمع كله

ومن تاريخه مادة لتأملاته . ويصارحنا ابن خلدون ان الطرطوشي كاد ان يطرق نفس موضوعه ولكنه لم يصاف فيه الرمية ولا اصاب الشاكلة ولا استوفى المسائل ولا اوضح الادلة انما يبوب الباب للمسألة ثم يستكثر من الاحاديث والآثار وكأنه حوّم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده .

تأثر الطرطوشي في عرض نظرياته الاجتماعية بالاخص بما شاهده في وطنه الأندلس وقضى شطراً من شبابه في مملكة سرقسطة في ظل بني هود ، شهد عن كثب اساليب ملوك الطوائف في تدعيم سلطانهم وحشد جيوشهم وانفاق اموالهم .

من ابرز نظريات الطرطوشي ان عصبية الدولة او قوتها الحامية انما تقوم على الجند اهل العطاء اي الجند المرتزقة .

ويرى الطرطوشي ان سبب ضعف المسلمين بالأندلس هو اهتمام ملوكهم بجمع المال دون انفاقه على حشد الجند . ويقول ان الدفاع في الرجال لا في المال ويعبر عن ذاك بقوله : انه لا شك ان بيت رجال خير من بيت مال . وقد تأثر الطرطوشي في صوغ نظريته مما عاينه من شدة اهتمام ملوك الطوائف بجمع المال من رعاياهم وانفاقه على حياتهم المترفة وعلى انشاء القصور الفخمة واقتناء الجواري والغلمان واهمال قضية الدفاع القومي والاستعانة عند الضرورة بحشد المرتزقة النصارى . وقد كانت تحشد في مُعظم الاحيان للعدوان ومباشرة الحروب الاهلية التي كان ينزلق اليها ملوك الطوائف باستمرار مما سبب ضعفهم في قضية الدفاع والوقوف في وجه العدو النصراني .

ويحبذ الطرطوشي ان ينفق السلطان المال في سبيل العلم والعلماء ويعتبر ذلك ايضاً من دعائم الملك والدولة ويستشهد بقصة الوزير الشهير «نظام الملك» مع مليكه «ابي الفتح بن الب ارسلان» ملك الترك ، فقد احتج هذا الملك على وزيره بضخامة ما ينفقه من الاموال على دور العلم والعلماء واهل الصلاح والفقراء في سائر انحاء المملكة او بعبارة اخرى على من لا ينفع ولا يغني من الناس وانه كان من الافضل لو ان هذه الاموال انفقت على تنظيم جيش يوجه لافتتاح قسطنطينية . فاجابه نظام الملك : انه ينفق هذه الاموال على ما يسميه جيش الليل وان هذا الجيش متى نامت الجيوش يقوم جنده صفوفاً بين يدي ربهم يرسلون دموعهم ويطلقون بالدعاء السنتهم

للملك وجيوشه وان الجيوش السلطانية انما تعيش من خفارة هذا الجيش الروحي وتبيت بدعائه وترزق ببركته .

بكى الملك لشرح وزيره بكاءً شديداً وغمره بعبارات الشكر والرضى وطلب اليه ان يكثر من هذا الجيش الميمون .

وتقف معظم نظرات الطرطوشي النقدية والاجتماعية عند احداث وطنه الأندلس او بعبارة اخرى عند احداث ممالك الطوائف التي عاصرها في اواخر عهدها وسرقسطة موطنه الاصلي نموذج بارز من نماذجها ولا نكاد نجد بعد ذلك في عرض الطرطوشي غير السير والحكم والمواعظ .

والطرطوشي فقيه من اقطاب الفقه المالكي ومن ثم فان امير المسلمين يوسف بن تاشفين يطلب رأيه وفتواه الى جانب الأمام ابي حامد الغزالي في اخطر شؤونه السياسية والعسكرية ومن ذلك مشروعه في خلع ملوك الطوائف وافتتاح ممالكهم باعتبارهم خارجين على احكام الشريعة والدين وهو ما افتى به فقهاء المغرب والأندلس وقد ايد الطرطوشي هذه الفتوى ، ونفذ امير المسلمين مشروعه بافتتاح ممالك الطوائف والاستيلاء على الأندلس وضمها الى امبراطوريته الكبرى.

وكان الطرطوشي شاعراً ومن قوله في الغزل الروحي :

«اقلب طرفي في السماء ترددا … لعلي ارى النجم الذي انت تنظر
واستعرض الركبان من كل وجهة … لعلي بمن قد شم عرفك اظفر
واستقبل الارواح عند هبوبها … لعل نسيم الروح عنك يخبّر
وامشي وما لي في الطريق مآرب … عسى نغمة باسم الحبيب تذكر
والمح من القاه من غير حاجة … عسى لمحة من نور وجهك تسفر»

وقوله في الرشوة :

اذا كنت في حاجة مرسلا … وانت بانجازها مغرم
فارسل باكمة خلالة … به صمم اغطش ابكم
ودع عنك كل رسول سوى … رسول يقال له الدرهم

وللطرطوشي كتاب آخر عنوانه «مراقي العارفين» ذكره لسان الدين بن الخطيب وفي هذا الكتاب يهاجم ابا القاسم بن خلصون ويقول فيه :

«دخل على الساكلين ضرر عظيم من كتب هذا الرجل الطوسي فانه تشبه بالصوفية ولم يلحق بمذهبهم ، وخلط مذاهب الصوفية بمذاهبهم حتى غلط الناس فيها على انني اقول ان باعه في الفلسفة كان قصيراً ، وانه حذا حذو الشيخ ابي علي بن سينا في فلسفته التي نقلها في المقاصد ومنطقه الذي في معيار العلم لكن قصّر عنه . وتلك الاعتقادات ، منها حق ومنها باطل ، وتلخيصه لا يتأتى الا لصنفين من الناس ، اعني اهل البرهان واهل المكاشفة ، فبحسب ذلك تحتاج كتبه الى تقدمة علوم البرهان او رياضة اهل المكاشفة . ولذلك صنّف هو معيار العلم ليكون الناظر في كتبه يتقدم فيتعلم منه اصناف البراهين فيلحق باهل البرهان . وقدّم ايضاً تصنيف «ميزان العمل» ليكون المرتاض فيه ، وبه يلحق باهل المكاشفة وحينئذ ينظر في سائر كتبه . وهذه الرسالة طويلة ، تكلم فيها على كتب ابي حامد الغزالي بما يدل على تفننه وعلى اضطلاعه ، رحمه الله» .

(الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق عبد الله عنان جزء اول ص ٢٦٧)

توفي الطرطوشي في ثغر الاسكندرية في السادس والعشرين من جمادي الاولى سنة ٥٢٠ (٢٠ حزيران ١١٢٧) في التاسعة والستين من عمره ، وقد عرف قبره فيما بعد واقيم عليه مسجد يسمى بمسجد الطرطوشي وهو ما زال قائماً حتى يومنا .

مدرسة ربض المسلمين في سرقسطة :

استولى الفونسه المقاتل على سرقسطة عام ١١١٨ ولكن المدينة ظلت عربية وظل العرب يعيشون فيها تحت اسم «المدجنون» وهم المسلمون الذين ظلوا في المناطق التي استولى عليها النصارى وظلوا يحافظون على دينهم ولغتهم وعاداتهم وتقاليدهم .

نقدم بعض رسائل نسخها التلميذ شبطون الطيرولي اي من مدينة «طرويل» «TERUEL» من اعمال سرقسطة في ذلك العهد ، في مبنى جامعة المدجنين في الحي الاسلامي من مدينة سرقسطة في العشر الاول من ربيع الآخر عام ١٤٤٧/٨٥١ وهي المخطوطة رقم ٣٣ من المجموعة التي كان يملكها «بولس جيل» .

وهذا نص الوثيقة :

«كملت المسايل ، والحمد لله على ذلك والصلاة التامة على سيدنا ونبينا

ومولانا محمد الكريم . وكان الفراغ منها في مدرسة ربض المسلمين بمدينة سرقسطة في يوم الاثنين وفي العشر الاول من ربيع الآخر ماضية ١٩ يوماً من شهر يونيه ٨٥١ هـ على يدي كاتبها العبد الفقير لربه ، الراجي عفوه وغفرانه : التلميذ ابي عبد الله محمد بن ابراهيم بن عبد الله بن شبطون الطيرولي ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين . آمين يا رب العالمين ، لا رب غيره ولا معبود سواه» .

رد على رسالة من طالب الى معلمه :

رسالة كتبها في سرقسطة التلميذ محمد قلبارة القرشي وتوجه بها الى استاذه ابي عبد الله الغازي في «بلجير» «BALAGUER» من مجموعة جمعية تشجيع الدراسات :

الحمدُ لله وحده .

سيدي وسندي ، وعزي واجلالي ، ومحل تعظيمي واشتياقي ، الذي محبته ممزوجة بلحمي ودمي وشوقة رؤيته مغروسة في قلبي وشراسيفي ، ذلك السيد الفقيه المكرم ، والاستاذ الماهر العظيم ابو عبد الله محمد الغازي ، اكرمه الله وتولاه وجعل الجنة منزله في اخراه ، برحمته وجوده انه منعم كريم .

سلام كريم ، مقدس عميم ، يعتمد سيادتكم ، ورحمة الله وبركاته من معز حرمتكم وموجب خدمتكم اصغر عبيدكم محمد القرشي ، المعروف بقلبارة .

«اما بعد ، فقبضت كتابكم الانير وفهمت متضمنه لاكن مقصود رسالتكم الكريمة ، التي هي الرغبة الاكيدة ان ابعث لكم شروحات وثائق الجزيري ، لاكن رغبتكم الى معذورة ، لأنني ، لأفعل عنكم شيئاً ما احتاج رغبة من جانبكم ، لأن بالامر منكم كنت ملتزماً ان افعله فضلاً عن ان ترغبوني . فوالله الذي لا اله الا هو ، كانت الشروحات عندي منسوخة الا في رقاع متفرقات ، وكانت في بلدي تلك الرقاع ، واكون الآن الوم نفس لسفهي ، وغلط طبعي بتركها في الرقاع بغير نسخ ، كيفما كان اني اجتهد في نسخها اذا جاء محمد بن يوسف اطلب منه الشروح المذكورة لانتسخ منها نسخة ، وارسلها الى علية مجدكم ، ان شاء الله ، وان كان معي اشغال اتركه لأجل خدمتكم .

«اما من شروحات الخطب فلم ... ، لاكن كل يوم ارغب وارسل رسالة

لقرطبي ان يبعثها اليّ ، وكما كان رجل من قلة عهد وامان ما يفعل شيئاً برسالتي ، كان حلف بالله انه اذا بلغ لتطيلة انه يرسلها الي بلا شك ومضى شهران ولم يرسلها .

«اما من جواد فضلكم الى السؤال عن حالي ، وعن كيفية تعليمي في مقصودي ، فاخبركم كيف اكون صحيحاً في الحال ، الحمد لله ، وفرغت الآن من قراءة «شرح ارجوزة ابن سينا» وبدأت بقراءة الكتاب الاول من القانون مستعيناً بالله ، وكنت اجتهد واتعب ليلاً نهاراً لأنال مقصودي ، لأن الكتاب المذكور كان يتكلم في كليات الطب ، وكليات الطب كانت معرفة حد الطب والمزاج والاركان والطبائع ومعرفة الضروريات من المأكل والمشرب والنوم واليقظة والحركة والسكون ومعرفة المرض والعرض والسبب وغير ذلك من اشياء كثيرة لا تحصى ، وكل ذلك كان من ادق هذا العلم ، لأنه كان يتكلم منطقياً وفلسفياً وكل ما كان كذلك لا ينال الا بجهد وتعب ، فكان واجباً عليّ ان اتعب ليلاً ونهاراً لأنال مقصودي ، وارغب الى الله ان يعينني على نيل مقصودي او على ما يكون اعبد واحمد .

«واما قولكم ان وسع الزمان ان اجتهد في زيارتكم ، لأنكم مشتاقون لرؤيتي ، فاني والله لاشد شوقاً لرؤيتكم وخدمتكم ، فان وسع الله في الزمان انا زايركم ان شاء الله .

«ارغبكم ان تبلغوا السلام عني على الطاهرة الزكية حليلتكم وعلى اولادكم ، وعلى جميع تلاميذكم وسائر من تحوطه رعيتكم ، والسلام عائد عليكم ورحمة الله وبركاته .

المقبل ايديكم وارجلكم ، اصغر تلاميذكم .

محمد قلبارة من سرقسطة

كتب يوم الاثنين الثاني عشر لينير عام ٩٠٠ هـ / ١٤٩٥

عنوان الجواب

في باالجيط

يدفع بيدي سيدي وسندي وعزي واجلالي ومحل تعظيمي واشتياقي ، الذي محبته ممزوجة بلحمي ودمي ، وشوقة رؤيته مغروسة في قلبي وشراسيفي ذالكم الاستاذ المكرم ، والعالم المعظم ، ابو عبد الله محمد الغازي ، اكرمه الله .. مرغوبة .

صيغ عقود :

صيغة عقد بين مدرس ووالد تلميذ ، او ولي امره ، كما وردت في الجزء الثاني من كتاب الوثائق والمسائل المجموعة ، لمؤلفه ابي محمد عبد الله بن عبد الواحد البونطي (المخطوطة رقم ١١ من المجموعة نفسها الورقة رقم ١٠٠) .

وثيقة استئجار معلم القرآن :

استأجر فلان بن فلان ، فلان بن فلان ، المعلم ، ليعلم ابنه فلاناً او ابنته فلانة او بنيه فلاناً وفلاناً وفلاناً القرآن ، نظراً او ظاهراً ، والكتب والخط والهجاء عاماً اوله شهر كذا من سنة كذا ، بكذا وكذا دينار ، صفة كذا ، ويودي اليه كل شهر ما ينوبه منها وذلك كذا وكذا ، ويدفع اليه في كل شهر في اوله من دقيق القمح الطيب الريون الجيد الطاهر ، ربعين او ثلاثة بوزن كذا ، ومن الزيت نصف ربع من زيت الماء الطيب الاخضر بكيل كذا . ويشرع المعلم في التعليم المذكور وعليه الاجتهاد ، ثم يكمل الوثيقة . فان اشترط عليه في الاعياد شيئاً ذكرت ذلك وقلت : ويدفع اليه في عيد الفطر كذا وفي عيد الاضحى كذا ويعطيه عند حذقة الصبي فلان القرآن كله كذا شهد .

الانقطاع والمرض :

واذا غاب الامام او المؤدب الى بعض حاجته او الى باديته الايام الجمعة ونحوها فلا بأس بذلك ، فان طال مغيبه كان لأهل المسجد توقيف الامام عن ذلك ، والمعلم منعه منه ، ولا يحط من اجرته شيء وكذلك ان مرض الايام اليسيرة ، وان طال مرضه او مغيبه انحط من اجرته ما تقع منها على امد مغيبه او مرضه ، وان غيب الصبي ابوه او وليه وشغلاه فللمعلم الاجرة تامة ، فان مرض الصبي مرضاً طويلاً انحط من الاجرة بقدر مرض الصبي .

الفصل السابع

موقعة أفراغة

بعد ان عقد الفونسه بن رذمير الصلح مع ملك قشتالة الفونسه ريموندس ابن اوراكة زوجته ، عبر جبال البرطات وحاصر مدينة بيونة واستولى عليها سنة ١١٣١ .

اغتنمت جيوش المسلمين في الثغر الاعلى وقاعدتها طرطوشة ولاردة فرصة انشغال الفونسه المقاتل بحروبه مع قشتالة واجتاحت الاراضي النصرانية .

فلما انتهى الفونسه بن رذمير من الحرب مع ابن زوجته شاء الاستيلاء على الاراضي الاسلامية في ذلك الثغر فاعد حملة اشترك فيها الكثيرون من الاشراف الفرنسيين وبدأ الزحف على مدينة «مكيننسة» مكناسة العربية الواقعة على ملتقى نهري «سجرة» وابره فهاجمها بقوة فاضطرت الى الاستسلام بعد مقاومة عنيفة سنة ١١٢٣ .

ثم قصد مدينتي افراغة ولاردة وطوق افراغة الواقعة على الضفة اليمنى لنهر سنكا ، وهي ذات موقع حصين فوق رابية عالية في نهاية منحدر وعر ضيق تصعب مهاجمته ويسهل الدفاع عنه . كما ان المرابطين شعروا من تحركات الفونسه بن رذمير ان المعركة الحاسمة بينهم وبينه وشيكة الوقوع في الثغر الاعلى . وكانوا قد عقدوا السلم مع صاحب برشلونة «رامون برنغير الثالث» خشية ان ينتهز الفرصة فيهاجمهم من جانبه ويضطر المرابطون عندئذ الى القتال على جبهتين ، فاتفقوا على ان يؤدوا له جزية سنوية قدرها اثنا عشر الف دينار بناء على طلب امير المسلمين علي بن يوسف .

فغضب لذلك ابن رذمير واقسم انه سوف ينتزع تلك البلاد التي تؤدي عنها الجزية ويقطع بذلك منفعتها عن الطرفين الخصمين[١] .

وما كادت مكناسة تسقط في يد ابن رذمير حتى بادر المرابطون في الثغر الاعلى وفي الثغر الاوسط الى التأهب للدفاع عن افراغة ولاردة ، وهرع الزبير بن عمر اللمتوني من قرطبة الى الثغر الاعلى في الفي فارس ومعه مقادير وفيرة من المؤن وهرع اليه الامير ابو زكريا يحيى بن غانية والي بلنسية ومرسية في قوة تقدرها الرواية بخمسمائة فارس . وكان من اعظم واشجع القادة المرابطين . وحشد كذلك عبد الله بن عياض والي لاردة قواته .

وحينما ضيق الفونسه بن رذمير الحصار على اهل افراغة واخذت مواردهم في النضوب كتبوا الى يحيى بن غانية باعتباره عميد القادة المرابطين بطلب الانجاد والقوات وانذروه في كتابه انهم يستسلمون لأبن رذمير ان لم يفعل . ولكن ابن غانية ليس بحاجة الى مثل هذا الانذار فمسألة انجاد افراغة وانقاذها تلقى لديه ولدى سائر القادة المرابطين منذ البداية الغيرة والاهتمام[٢] .

وصل «الفونسه» بن رذمير بقواته الى افراغة وضرب حولها الحصار ، فقاومته حاميتها واهلها بقيادة واليها سعد بن محمد بن مردنيش اشد مقاومة . واضطر الى رفع الحصار اكثر من مرة ثم يعود اليه . وحملته هذه المقاومة ذاتها على مضاعفة الجهود في التضييق على المدينة المحصورة ، واقسم على فتح اسوارها كما اقسم ابوه شانجه راميرس قبل ذلك باربعين عاماً تحت اسوار وشقة ان يفتح افراغة او يموت دونها ، واقسم معه عشرون من سادته . وامر ان يؤتى برفات القديسين الى المعسكر اذكاء لحماسة الجند وان يتولى الاساقفة والرهبان قيادة الصفوف .

وتقول الرواية النصرانية انه ما كادت القوات المرابطية تطل على ظاهر افراغة وتتقدم الى انجادها حتى وقعت بينها وبين النصارى معركتان متواليتان وهزم المرابطون في كلتيهما ، عندئذ دب اليأس في نفوس اهل المدينة وعرضوا التسليم ببعض الشروط ، فرفض «الفونسه المقاتل» كل عرض للتسليم وقرر اقتحام المدينة بالسيف

---

١ — ابن القطان في نظم الجمان .

٢ — ابن القطان وعبد الله عنان .

فانقلب المحصورون الى مقاومة يائسة ، ونظم المرابطون قواتهم وارتدوا الى المدينة لانقاذها ، فدبروا كميناً جذبوا اليه الاراغونيين على يد قافلة من المؤن وهنا نشب القتال ، وانقضت نخبة من المجاهدين الشجعان فاثخنت فيهم وقتلت منهم جمهرة من الفرسان الفرنسيين والقوامس واسقفي روطة ووشقة وعدداً كبيراً من الجنود .

وكانت معركة من اشد المعارك عنفاً في الثغر الاعلى ، وتتشكل قوات المرابطين من جند قرطبة : الف فارس ومن جند مرسية وبلنسية خمسمائة فارس ومن جند لاردة مائتا فارس ، كما يقول ابن الاثير ، بينما الرواية النصرانية تقدرهم بعشرة آلاف رجل ، وهذا معقول ايضاً لأن هذه النسبة من الفرسان عادة ما تقابلها تلك النسبة من المشاة .

وخرج اهل افراغة وانقضوا على النصارى من الوراء ، فاشتد الأمر على ابن رذمير وكثر القتل بين صفوفه وهلكت منهم عدة كبيرة من القادة والاشراف ومزقت صفوفهم شر تمزيق واصيبوا بهزيمة ساحقة لم يشهد مثيلها منذ موقعتي الزلاقة واقليش واستولى المسلمون على محلتهم وعتادهم وسلاحهم ، وكان ذلك في اليوم السابع عشر من تموز سنة ١١٣٤ (٢٣ رمضان ٥٢٨ هـ) .

مقتل الفونسه بن رذمير :

ماذا كان مصير الفونسه ؟ تقول الرواية النصرانية ما خلاصتها ان الفونسه بن رذمير لما رأى هزيمة جيشه حاول ان يلقي بنفسه الى المعمعة ليموت فاستحلفه اسقف ارقلة (اورخيل) باسم الله ان ينقذ نفسه فغادر ميدان القتال مع ستين من فرسانه ولكن عشرة منهم فقط نجوا من الموت وحشد الفونسه جنداً آخر وعاد الى ميدان القتال سريعاً ليتدارك ما حل به من هزيمة ولكنه اجتذب الى كمين دبره الاعداء في ٧ سبتمبر ايلول ١١٣٤ فاحاط به المسلمون فقتل في الميدان بعد معركة عنيفة وقتل معه ثلاثمائة من الفرسان .

ويصف الأب ماريانا المعركة فيقول : ابتدأ حصار المدينة في شهر اغسطس آب ١١٣٣ وعند قدوم الشتاء اضطر الملك الى تسريح الجيش على امل العودة الى محاصرة المدينة في شهر فبراير شباط من عام ١١٣٤ بعزم اشد وقوة اصلب وامتد الحصار طيلة شهري آذار ونيسان دون نتيجة اللهم نقص المؤن عند المحصورين غير

ان ابن غانية صاحب لاردة اقبل لنجدة المدينة بقوات ضخمة جمعها من هنا وهناك . جرت المعركة في عيد القديستين «يوستا» او «روفينا» ، وكان النصارى قد ملوا القتال والحصار الطويل بينما المسلمون قدموا بنشاط وبعنف شديد انقضوا على القوات المسيحية وقتلوا منهم جمعاً كبيراً غير ان هذه الخسارة لم تهد من حيل الملك الفونسه فلم يفك الحصار عن المدينة بل توجه الى قشتالة ليأتي بقوات جديدة حشدها في صورية . وارتد الى ساحة القتال دون توقف حتى وصل الى «مونسون» وكان في مؤخرة هذه القوات مع ثلاثمائة فارس فصادف في طريقه قوات من العدو كبيرة كانت كامنة له ، وادرك الخطر المحدق به فتوجه الى فرسانه بهذه الكلمات :

«تذكروا انكم نصارى فشدوا على العدو بجميع قواكم كما عهدتكم في السابق ، فشجاعتكم هي التي تنقذكم بينما خوفكم يأتي بالبوار عليكم فبسيفكم وشجاعتكم تخرجون من هذا المأزق واذا لم تتمكن شجاعتكم من الظفر على عدوكم تذكروا ان الله قادر على كل شيء وانه لا يتخلى عن ابنائه في اوقات حرجة مثل هذه الاوقات ، حاولوا على الاقل ان تبيعوا نفوسكم غالية ولا تستسلموا ، بل كروا على العدو كرة رجل واحد غير هيابي الموت» .

واشتدت المعركة وحمي الوطيس وشعر جنود الفونسه انهم امام عدو يتفوق عليهم بالعدد فقاتلوا قتال يائس من الحياة . وادرك العدو ان الملك «الفونسه بن رذمير» بين جنوده فقصدوه دون سواه واحاطوا به من كل جانب واسخنوه جراحاً حتى قتلوه .

ولما شاهد النصارى ملكهم قتيلاً حاول بعضهم الثبات والبعض الآخر لاذ بالفرار .

جرى ذلك في مكان اسمه «سارينيانا» في السابع من سبتمبر ايلول سنة ١١٣٤ وهكذا انتهت حياة هذا الملك العظيم الذي خاض تسع وعشرين معركة ضد اعدائه وخرج ظافراً في اكثرها . دام ملكه ثلاثين عاماً وكان قد كتب وصيته قبل ذلك في ثلاثة اعوام عندما كان يحاصر مدينة «بيونة» الفرنسية ، وبما انه لم يكن له ابناء فقد منح ثروته للاديرة والمعابد وخص بنوع فريد فرسان «الداوية» وفرسان «الاسبطارية» وفرسان «حراس القبر المقدس» .

وقد كان لنصر المرابطين في افراغة صدى عميق في سائر ارجاء الاندلس وفي

اسبانية النصرانية بنوع خاص وعادت سمعة المرابطين العسكرية الى سابق مكانتها في شبه الجزيرة وذاع صيت يحيى بن غانية قائد المرابطين في ذلك اليوم المشهود ، وقد نظم الشاعر ابو جعفر بن وضاح المرسي في واقعة افراغة ومديح ابن غانية قصيدة يقول فيها :

«شمرت برديك لما اسبل الواني وشب منك الاعادي نار غيان
دنفت في غاية الخطّي نحوهم كالعين يهفو عليها وطف اجفان
عقرتهم بسيوف الهند مصلتة كانما شربـوا منها بغـدوان
هون عليك سوى نفس قتلتهم من يكسر النبع لم يفجر من البان
وقفت والجيش عقد منك منتثرا الا فرائـد اشيـاخ وشبـان
والخيل تنحط من وقع الرماح بها كان انصالها ترجيـع الحان»

وانقشع الخطر مدى حين عما بقي بايدي المسلمين من اراضي الثغر الاعلى وعن شرقي الاندلس اثر موقعة افراغة ومقتل الفونسه بن رذمير ، فتوارت هذه الشخصية الخطرة التي هددت سلام المسلمين . وبالفعل الفونسه المقاتل من اعظم ملوك اراغون في القرون الوسطى ، واحتلاله لسرقسطة فاتحة عهد جديد لمملكة اراغون كما كان افتتاح طليطلة عصراً جديداً لمملكة قشتالة وقد غدت مملكة اراغون بعد انضمام نبارة اليها منذ عهد ابيه شانجه قرينة مملكة قشتالة من حيث ترامي الرقعة وضخامة الموارد وقوة المراس في مناجزة الاندلس ، استطاع ان يوطد حدود مملكته ويوسع رقعتها باحتلاله «سرقسطة» و «تطيلة» و «قلعة ايوب» و «دروقة» وغيرها من القواعد الاسلامية وزواجه باوراكة ابنة الفونسه السادس ملك قشتالة مهد له الفرصة ليغدو قيصراً لاسبانية الكبرى ، ولكن الخلاف الذي نشب بين الزوجين حول السلطان وما ابداه اشراف قشتالة من بغض لاراغون كان كفيلاً بتحطيم مثل هذا المشروع ، والحرب الاهلية التي نشبت من جراء ذلك بين قشتالة واراغون اتاحت للمسلمين اوقات هدنة سعوا فيها لغزو الاراضي المسيحية . والرواية الاسلامية تشيد بعظمة «الفونسه المقاتل» ويصفه ابن الاثير بقوله : «.. وكان من اشد ملوك الافرنج بأساً واكثرهم تجرداً لحرب المسلمين واعظمهم صبراً» .

والمرابطون رغم نصرهم الساحق في موقعة افراغة وتمزيقهم للجيش الاراغوني شر ممزق ومقتل الملك ابن رذمير لم يفكروا في الاستفادة من نصرهم بالزحف على

سرقسطة ومحاولة استردادها ، وهي على مقربة من ساحة نصرهم . وسحق الجيش الاراغوني ووفاة ملكه يشجعان على الاضطلاع بمثل هذه المحاولة ، ولكن المرابطين قنعوا بالنصر وانصرفوا الى قواعدهم على غرار ما حدث عقب معركة الزلاقة عندما احجم يوسف بن تاشفين عن مطاردة القشتاليين ولم ينتهز الفرصة بعد اندحار الجيش القشتالي وابادته لمحاولة استرداد طليطلة على الاقل . ومن الغريب ان المرابطين كانوا في نفس الوقت الذي اضطرمت فيه معركة افراغة سنة ٥٢٨ هـ / ١١٣٤ مسيحية يقومون بغزوات مخربة عقيمة في اراضي قشتالة بقيادة الامير تاشفين بن امير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ، ولو انهم حشدوا المزيد من قواتهم في الثغر الاعلى على اثر انتصارهم في افراغة بقيادة البطل يحيى بن غانية لكانت لديهم بلا ريب فرصة لاسترداد الثغر الاسلامي الاعلى .

ارتكبوا خطأ عسكرياً لا شك في خطورته باحجامهم عن استرجاع طليطلة وسرقسطة . وقد يكون لهم عذر في ذلك فبعد معركة الزلاقة قد يكون يوسف بن تاشفين فكر في اجتياح الاراضي المسيحية لو لم يصل اليه من افريقية نبأ وفاة ابنه فاضطر للعودة على جناح السرعة وترك الفرصة تفلت من يده بعد ان اباد جيش الفونسه السادس في معركة الزلاقة ، واستطاع الفونسه في وقت قصير ان يلم شعثه وينهض من كبوته ويسترد هيبته ويدفع له المسلمون ملوك الطوائف الجزية من جديد عن السنوات التي تخلوا فيها عن الدفع اثر انتصار الزلاقة . ولهم العذر ايضاً في معركة افراغة والفرصة مناسبة لاسترداد سرقسطة ولكن ظهور الموحدين في المغرب استحوذ على كامل اهتمامهم فاهملوا الاندلس وتركوه في جراحاته ليداووا جرحاً وجدوه اخطر عليهم في عقر دارهم .

رسالة

موجهة من امير المسلمين تاشفين بن علي بن يوسف الى الفقهاء والوزراء والاخيار والكافة ببلنسية

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلّم تسليماً . من امير المسلمين وناصر الدين تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين .

الى وليه في الله تعالى ، الاعز الاكرم الاحظى في ذات الله لديه ، ابي زكريا

يحيى بن علي والفقيه القاضي ابي محمد بن جحاف وساير الفقهاء والوزراء والاخيار والصلحاء والكافة ببلنسية ، حرسها الله ، وادام كرامتهم بتقواه .

سلام مبرور كريم ، مردد عليم على جميعكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد . فان كتابنا اليكم ، كتبكم الله ممن آثر الحق واتبع سننه وادرع الحزم ولبس جنته ، وسمع القول واتبع احسنه ، وحافظ على كتاب الله الذي يسره للذكرى وبينه وجعلنا واياكم من ممن جمله بتقواه وزينه من مناخنا بكرنطة في العشر الاول من جمادي الاولى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، وبحمد الله من صحيفتنا هذه صدرها الاكرم وكل قول فبعده يترتب ويتنظم وقد جاء في الآثار : «كل كلام لا يبدأ فيه بذكر الله فهو اجذم» .

وبعد ان نستوفي واجب الحمد والشكر ونذكر نعمه السابغة علينا اجمل الذكر فنسأل الله توفيقاً قائداً الى الرشد وقوة على طاعته نحمل بها من تلزمنا رعايته على المنهج الافضل والسنن الاحمد ونستعيذه من قلب لا يخشع ودعاء لا يسمع وموعظة لا تنفع وسجية لا تطاع وهوا يتبع ونصلي على محمد نبيه ورسوله الذي طهره تطهيراً وارسله رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً ، فبلغ رسالة ربه وهداه وصبر على مشقة البلاغ واذاه ، ولم يخش احداً الا الله الذي رجاه ، الى ان بلغ الكتاب اجله والدين مداه ، وانتهى ملك امته الى ما كان الله له زواه ، صلى الله عليه وعلى صحبه الذين ذبوا عن هذا الدين وحموا حماه ووالوا من والاه وعادوا من عاداه .

ولما كان ، اعزكم الله ، الذين ينعت بالنصيحة لله ولرسوله وللمسلمين والذكرى تنفع المؤمنين ، وجب ان نتخذ لكم من الموعظة به انفسها الذي مرها في العاقبة حلو واخفض مراتبها في الله علو ، فاعلموا ، اعلمكم الله ولا اقامكم مقاماً يرديكم ان اقرب الناس الى الله احناهم على عباده وامحضهم للنصيحة لهم بمبلغ جده واجتهاده وان اولى الناس بنا من طاب خيره وكرم اثره وحسن مورده في الامور ومصدره وكذلك العامل منكم والقاضي وفقهما الله ، انما اقعدا بذلك المكان لخير يتوليانه وشر يردعانه وعدل يقضيانه فليقدما اولاً تسديد امرهما ولينظرا في اصلاح انفسهما قبل اصلاح غيرهما ، فمن لا يصلح امر نفسه لا يصلح سواه ومن لا يسدد اموره لا يسدد امر من تولاه . وعليكم اجمعين بتقوى الله في السر والاعلان والتمسك

بعصم الايمان والاستعانة على حوائجكم بالكتمان والتنزه عن فلتات اليد واللسان . ولم تخل امة من جاهل وعليم ومعوج وقويم فليردع الجاهل العليم ولينبه المعوج القويم ولم يزل الناس بخير ما لم يتساووا فاذا تساووا هلكوا .

واهم اموركم الصلاة التي هي سبيل النجاة لسالكها ولا حظ في الاسلام لتاركها فالزموها في جماعاتها ولا تخلوا بشيء من مسنوناتها ومفروضاتها واخلصوا فيها لله العلي الاكبر ، واعلموا انها كما قال سبحانه : «ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» .

وعليكم وفقكم الله باصلاح ذات البين واعتماد الحق المخلص في الدارين وتخير الرفقاء وانتخاب الجلساء فان مثل الجليس كمثل القين والصاحب الصالح قوة في الدين وقرة في العين .

وانتدبوا واندبوا من قبلكم للجهاد الذي هو من قواعد الايمان والرشاد ، امر الرحمن ، وفرض على الكفاية والاعيان واتصال الهدوء بفضل الله وللامان وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم انه قال : «مثل المجاهد في سبيل الله كمثل القائم الصائم الذي لا يفتر عن صلاة ولا صيام» .

والذي نأخذ به عهد الله على العامل منكم الرفق بالرعية والحكم بالتسوية واجراء امورها على السبيل الحميدة المرضية ، فهي العنصر الذي منه الاستمداد والاصل الذي بثبوته تعمر البلاد وتتوفر الاجناد ويتمكن الرباط في سبيل الله والجهاد ، وليعلم ان العدل يقسطها والجور يسخطها وقلة المساواة تشتتها وتقنطها . ولا سبيل ان يستعمل عليها الا من يستوثق جانبه وتحسن الاحدوثة عنه ، وان ظهر احد منهم بنظر جميل فيه وكان في نفسه ما يخفيه فالبدار البدار الى عزله وعقابه والتشديد فيما نأمر به .

واعلموا ، رحمكم الله ان مدار الفتيا ومجرى الاحكام والشورى في الحضر والبدا على ما اتفق عليه السلف الصالح ، رحمهم الله ، من الاقتصار على مذهب امام دار الهجرة ابي عبد الله مالك بن انس ، رضي الله عنه ، فلا عدول لقاض ولا مفت عن مذهبه ولا يأخذ في تحليل ولا تحريم الا به ، ومن حاد عن رأيه بفتواه ، ومال من الائمة الى سواه ، فقد ركب رأسه واتبع هواه ، ومتى عثرتم على كتاب بدعة او صاحب بدعة فاياكم واياه ، وخاصة وفقكم الله ، كتب ابي حامد الغزالي فليتبع اثرها

وليقطع بالحرق المتتابع خبرها ويبحث عليها وتغلظ الايمان من يتهم بكتمانها .

والخمر ، نزهكم الله عن خبائث الامور التي هي جماع الاثم والفجور ، والباب المفضي الى سواكن الفسق والشرور ، فاجتهدوا في شأنها واوعزوا في جميع جهاتكم باراقة دنانها ، فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم انه قال : «لعن الله الخمر وعاصرها وحاملها والمحمولة اليه» .

وكذلك نؤكد العهد في ما نوصي به دائباً ، مما اوجبه الله تعالى في حقوق المسلمين من الاعشار والزكوات والاموال المفروضة للارزاق المسماة فليؤخذ ما فرض الله منها في نصابها المعلوم ، وعلى سنة نبيه عليه افضل الصلاة والتسليم .

وكذلك نؤكد عليكم اتم تأكيد امر اهل الذمة الا يتصرف احد منهم في امور المسلمين لأنه من فساد الدين .

والسلام الابر الاكرم الاخطر على جميعكم ، ورحمة الله وبركاته وعلى من هناك من المسليمن .

(منقولة عن المخطوط رقم ٥٣٨ اسكوريال)

رسالة كتب بها امير المسلمين الى الامير الاجل ابي محمد بن ابي بكر بهزيمة القلعة :

كتابنا وفقّ الله رأيك وحسن لديك ولا امال عن الهدى والرشد سعيك ، من حضرة مراكش حرسها الله في السابع من شعبان المكرم سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة وقبله وافى كتابك تذكر فيه المثلة التي كانت للعدو عليك في اليوم الذي واجهتموه فيه بعد ان كان لكم صدره واتيح لكم نصره فاواخر الامور ابداً اؤكد واهم والعواقب هي التي تحمد او تذم واذا حسنت خواتم الاعمال فالصنع ابهى واتم وان لسان العذر لذلك الحال تقصير وان الله على ذلك المشهد المضيع لمطلع بصير ، توافقتم مع عدوكم وانتم اوفر منه عدة واكثر جمعاً واحرى ان تكونوا عن حريمكم منعاً واقوى دونه دفعاً فثبت وزللتم وجدّ ونكلتم وشد عقد عزيمته وحللتم وكنت في تلك الوقعة قرة عين الحاسد وشماتة العدو الراصد وقد كانت نصبة توليكم بين يديه بشيعة هائلة ودعامتكم لولا انثناؤه عليكم مائلة فشغله عنكم عمن غررتموه من الرجل الذي اسلمتموه للقتل وفررتم ونصبتموهم دريئة للرمح ثم طرتم ولو كان من اوردتموه من المسلمين ولم تصدروه وخذلتموه من المجاهدين ولم تنصروه لا نكشف دون ذلك

الرماح جنتكم ووقاؤكم واصيبت بها ظهوركم واقفاؤكم عاقبكم الله بما انتم اهله فانتم اشجع الناس اقفاء وظهوراً واجبنهم وجوهاً ونحوراً ليس منكم من تدفع به كريهة ولا عندكم في الرشد روية ولا بديهية فمتى واي وقت تفلحون ولأي شيء بعد ذلك تصلحون ؟ ونحمد الله عز وجهه كثيراً فقد دفع بفضله الاهم الاكبر واجرى باكثر السلامة القدر فاكشفوا بعد اغطية ابصاركم وقصروا حبل اغترارکم والبسوا منه جنة حذاركم واعلموا ان وراء مجازاتنا اياكم جزاء توفونه ويوماً عصيباً تلقونه فكونوا بعد هذه الهناءة لداعي الرشد بين مطيع وسامع ومن كلمة الاتفاق والتآلف على امر جامع فانكم لو خلصت غيوبكم وحسنت سريرتكم واطمأنت على التقوى قلوبكم لظهر امركم وعلا جدكم ولما ذهب ريحكم . فتوخوا في سبيل الله وطاعته اخلص النيات واصدق العزمات واثبتوا احسن الثبات وكونوا على الحذر والتقوى على مثل ليلة البيات . وقد ذكر ان للعدو دمره الله ، مدداً يأتيه من خلفه ، والله يقطع به ، فلتضعوا على سالكه عيوناً تكلأ ولتكن آذانكم مصيخة لما يطرأ فان كان له مدد كما ذكرتم قطعتم به السبيل دون لحاقه واقمتم الحزم على ساقه والله تعالى يفتح لكم فيهم الابواب ويأخذ بازمتكم الى الصواب ، انه الحميد المجيد ، لا اله الا غيره .

ولامير المسلمين الى الفقيه القاضي وسائر الفقهاء والوزراء والاعيان والكافة في بلنسية عند نزول ابن رذمير عليها :

كتابنا ابقاكم الله وامدكم بتقواه ووفقكم لما يرضاه ولا اخلاكم من لطائف رضاه وعوارف نعماه ، من حضرة مراكش حرسها الله لسبع خلون من شعبان المكرم سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة وقد وصل الينا كتاب الفقيه الخطيب القاضي ابي الحسن منكم اعزه الله بتقواه مضمناً من ذكر ما بلغه الوجل من نفوسكم ما لا نزال نتوخى بحسبه ان شاء الله ما يفي بترفيهكم وتأنيسكم فلا يذهبن بكم الجزع لما كان من انكشاف المسلمين هناك عن مراكزهم وتصيرهم ما صيروه من محلتهم فرصة لمناهزتهم وانهزامهم بغير سبب سوى تخاذلهم المعتاد مع ما كانوا عليه من تكاثر الاعداد وتظاهر الاجناد فحسبناهم جميعاً وقلوبهم شتى ولشد ما وعظناهم في ذلك وذكرناهم ، فما نجعت فيهم الموعظة ولا نفعتهم الذكرى . وبعد فاننا لا ندعكم بحول الله لضياع ولا نالوكم الا اهتبالاً يذهب بمشيئة الله ما نالكم من توقع وارتياع ، فطيبوا انفساً

واطمئنوا قلوباً والله يجعل من دون ما توقعتموه فتحاً قريباً ، انه الفاتح العظيم المنان الكريم لا رب غيره واعلموا انه قد نفدت كتبنا ثانية الى ولاة اعمالنا كلأهم الله وإياها نأمرهم بتسريب الاقوات وتعجيل انفادها نحوكم من كل الجهات وسيرد عليكم منها الكثير الموفور لأقرب الاوقات ثم لا تزالون من بالنا باحق مكان من المراعاة والمحاماة ان شاء الله تعالى وهو سبحانه يوفقنا لصالح نتوخاه من لم شعثكم وسد خللكم واذهاب مكترثكم وحسم عللكم ويقضي بما يضم نشرهم ويشد ازرهم ويصلح امرهم ويسد ثغرهم ويحفظ الالفة عليهم ويربي النعمة لديهم برحمته وتبلغوا ابقاكم الله سلاماً كثيراً اثيراً خطيراً موفوراً .

(منقولة من مخطوط الاسكوريال رقم ٤٨٨)

ابو عبدالله محمد بن ابي الخصال

له رسالته السراجية ومن كلماته قوله : لولا الظلام ما سطع السراج . اعف صديقك من ريح العتاب وان كانت نسيماً واقبل من الرضا وجهاً وسيماً من امّلك فقد حمّلك واوجب عليك احتمال ما حمّلك . حق الاديب على الاديب حق الوابل على المكان الجديب ، الاديب مع الاديب زند يصافح زنداً ورند يفاوح رنداً . الشق ما اقتاد العصي والتزم التسيار للمكان القصي . رب شوق ابدع بالمطي وخطا على صدور الخطي . لا يعدم مال الكريم غارة من الافضال تشن وعادة من الاحسان تسن ومن نظمه قوله :

وليلـة عنبريـة الافـق ... رويت فيها السرور من طرق
وافت بنا عاطلاً وقد لبست ... غلالـة فصلّت من الحدق
فاجابها الدهر من بنيه دجى ... بغيتة كالصباح في نسق
قامت لنا في المقام اوجههم ... وراحهـم بالنجوم والشفـق
واطلع البدر من ذرى غصن ... تهفو عليه القلوب كالورق
من عبد شمس بدا سناه وهل ... ذا البدر الا لذلك الافق
مد بحمراء من مدامتـه ... بيضاء كف مسكيّة العبق
فخلتها وردة منعمـة ... تحمل من سوسن على طبق
يشرب في الراح حين يشربها ... ما غادرت مقلتاه من رمق

(المغرب في حلى المغرب ج٢ ص ٦٧)

اسمه محمد بن مسعود بن خالصة بن ابي الخصال الغافقي ، الامام البليغ يكنى ابا عبد الله ، اصله من فرغليط من شقورة من كورة جيان وسكن قرطبة وغرناطة .

قال ابن الزبير عند ذكره : ذو الوزارتين ، ابو عبد الله بن ابي الخصال كان من اهل المعارف الجمة والاتقان لصناعة الحديث والمعرفة برجاله ، والمعرفة باللغة العربية والادب والنسب والتاريخ .

ولما ذكره ابو القاسم الملّاحي بنحو ذلك قال : لم يكن في عصره مثله مع دين وفضل وورع . روى عنه ابن بشكوال وابن حبيش وابن مضاء وغيرهم .

شعره كثير فمن اخوانياته ما خاطب به ابا اسحق بن خفاجة :

هب النسيم هبوب ذي اشفاق ... ذهب الهوى بجناحه الخفّاق
وكأنما صبح الغصون بنشوة ... باحت لهم بسرائر العشاق
واذا تلاعبت الرياح ببانه ... لعب الغرام بمهجة المشتاق
مه يا نسيم فقد كبرت عن الصبا ... لم يبق من تلك الصبابة باق
ان كنت ذاك فلست ذاك ولا انا ... قد آذنتك مفارقي بفراق
ولقد عهدت سراك من عدد الهوى ... والموت في نظري وفي استنشاقي
ايام لو عنّ السلو لخاطري ... قرّبته هديـــا الى اشواق
الفي الهوى ثم البطالة مركبي ... والامـــن ظلي والشباب رواقي
في حيث قسمّت المدامة قسمة ... ضيري لأن السكر من اخلاقي
لا ذنب للصهباء انى غاصب ... ولذاك قام السكر باستحقاق
ولقد صددت الكأس فانقبضت بها ... من بعد ما انبسطت يمين الساقي
وتركت في وسط الندامى خلة ... هامت بها الوسطى من الاعلاق
فاستسرفوني مذكرين وعندهم ... اني ادين اللهو دين نفاق
وحبابها نفث الحباب وربما ... سدكت يد الملسوع منه براق
وكأنــه لما توقّر فوقهـــا ... نور تجسم في ندى الاحداق
لو بارح نفح النوى في روضة ... فاثارها وسرى عن الاحداق
ولقد جلوا والله يدرأ كيدهم ... فتّانـة الاوصاف والاعـــراق
اغوى بها ابليس قدما آدما ... والسر يرتمي في هواها الباقي

(القصيدة من بحر الكامل)

ومن قوله يمدح تاشفين بن علي ويذكر الوقعة بكركي يقول فيها :

الله اعطاك فتحاً غير مشترك ورد عزمك عن فوت الى درك
ارسل عنان جواد انت راكبه واضمم يديك ودعه في يد الملك
حتى يصير الى الحسنى على ثقة يهدي سبيلك هاد غير مؤتعك
قد كان بعدك للاعداء مملكة حتى استدرت عليهم كورة الفلك
سارت بك الجرد او طار القضاء بها والحين قد قيّد الاعداء في شرك
فما تركت كمّياً غير منعفر ولا تركت نجيعاً غير منسفك
ناموا وما نام موتور على حنق اسدى اذا فرصة جاءت من السلك
فَصَبَّحَتْهُم جُنُودُ الله باطشة والصبح من عبرات الفجر في مُسُك
من كل مبتدر كالنجم منكدر تفيض انفسهم غيظاً من المَسَك
فطاعنوكم بارماح وما طعنت وضاربوكم باسياف ولم تَحِك
تعجل النحر فيهم قبل موسمه وقدّم الهدي منهم كل ذي نسك
فالطير عاكفة والوحش واقفة قد اثقلتها لحوم القوم عن حرك
عدت على كل عاد منهم اسر يعث في حنجر رحب وفي حنك
كلي هنيئاً مريئاً واشكري ملكاً قرنك اسيافه في كل معترك
ابرح وطالب بباقي الدهر ماضيه فيوم بدر اقام الفيء في فدك
... يا ايها الملك السامي بهمته الى رضى الله لا تعدم رضى الملك
ما زلت تسمعه بشرى وتطلعه اخرى كدرٍّ على الاجياد منسلك
بيضت وجه امير المؤمنين بها والارض من ظلمة الالحاد في حلك
فاستشعر النصر واهتزت منابره بذكر اروع للكفار محتنك
وحسبك الله فرداً لا نظير له تفنيك نصرته عن كل مشترك

ومن شعره قوله مخمساً وقد اقام بمراكش يتشوق الى قرطبة :

بدت لهم بالغور والشمل جامع بروق باعلام العذيب لوامع
فباحث باسرار الضمير المدامع ورب غرام لم تنله المسامع
اذاع بها من فيضها المتصوب
الا في سبيل الشوق قلب مؤثل بركب اذا شاء البروق تحمل
هو الموت الا انني اتحمل اذا قلت هذا منهل عزّ منهل

وراية برق نحوها القلب يجنب

ابى الله الا كل بعد فثابت   واما دنو الدار منهم ففائت

ولا يلفت البين المصمم لافت   ويا رب حيّ البارق المتهافت

غراب بتفريق الاحبة ينعب

وهي طويلة جداً من ارادها كاملة فليقرأها في الاحاطة بتاريخ غرناطة ص ٣٩٦ــ٤٠٣ جزء ٢ تحقيق عبدالله عنان .

وفاته :

والظاهر في مقتله انه اقتحمت عليه داره اذ دخلت المصامدة قرطبة عنوة في الحرب الواقعة بين ابن حمدين وابن غانية اول انقراض سلطان الملثمين بالاندلس ، وكان واقفاً بباب داره فمرّ به بعض المصامدة وقد ارتكبوا من الجرم واستحلوا من المنكر ما حمله على زجرهم والاغلاظ لهم ثقة بمكانته فاجترأ احدهم عليه واستدار من خلفه وهو مشغول بما بين يديه وما لبث ان ذبحه . وقد قتل قاتله فيما بعد بميورقة .

ويروي لنا ابن الابار نقلاً عن ابي عبدالله بين الصفّار الضرير من قتل قاتله بقصة عجيبة . فحكى ان مميت نفسه الطاهرة وسماه تيفوت ما زال يكثر الافتخار ويظهر لمن يحزنه امره الاستبشار حتى عرف بقاتل ابن ابي الخصال سمة عدت عليه وهدت حينه اليه . قال : وكان لآل غانية على فقد غنائه اسف زائد وهو بمجدهم شاهد ولحمدهم شاهر وهذا الآثم قد اركبه البحر اليهم سيل الفتنة واعتقد انه بميورقة جان للمنحة وناج من المحنة . واتفق ان عاينه منهم يوماً اسحق بن محمد وتيفوت البائس قد ذهب فناؤه فدعا به وطلب منه وصف مقتل ابي الخصال فلما فرغ من ذلك حتى التفت اسحق الى جلسائه وقد استشاط غضباً وقال ينبغي لمن قتل ابن ابي الخصال ان يقتل ، ثم امر فاجهز عليه وجرّ برجليه من بين يديه . وكان مقتل ابن ابي الخصال يوم الاحد الثالث عشر من ذي الحجة سنة اربعين وخمسمائة المصادف ١١٤٦ مسيحية .

لابي عبد الله بن ابي الخصال عن بعض المرابطين
الى امير المسلمين علي بن يوسف
تتعلق بشؤون حصن ارلبة (اوريخا)

اطال الله بقاء امير المسلمين وناصر الدين مؤيداً بجنوده معاناً بتوفيقه وتسديده ولا زال عدله ينعش الأمم وسعده ينهض الهمم . كتبت ادام الله تأييده من قرطبة حرسها الله ، لست بقين من جمادي الآخرة ، وقبل ثلاث وافيتها من الوجهة التي صحبني ومن معي فيها يمن امره ، واكتنفتنا عزة نصره بعد ان اودعنا حصن ارلبة حماه الله قوتاً موفوراً ومرفقاً كثيراً وحطت عندهم الاسعار وعم الاستبشار وتسلم ابو الخيار مسعود الدليل ، سلمه الله ، الحصن واحتوى عليه وصار امره اليه ، ووافينا فلاناً ابقاه الله قد استاق غنيمة ظاهرة ، وجملة من البقر وافرة ، وقتل من العدو ، قصمه الله ، عدداً وقضى وطراً وشفى وجداً فتيمن الناس هناك بولاية الامير ابي يحيى اعزه الله ، وبقيادة هذا القائد الذي اقترن الفتح بما اتاه ،

وكانت عند مقدمنا هذا الحصن خيل طليطلة بددها الله ، مجتمعة فوقذهم الرعب وشملهم الصغار والرغم وتحققنا هناك ان مواشي تلك الجبال قد اخذت في الانبساط والاسهال ، والدنو من الوادي في طلب الخصب وتحوله من البرد الى الفيء ، والله يجعلها للمسلمين طعمة ويزيدهم بها قوة بعزته وانباء العدو ، قصمه الله ، الآن خامدة وعزائمهم هامدة وايديهم جامدة ، استأصل الله بجد امير المسلمين نعمتهم ، وقطف قممهم واداخ بلادهم وانتسف طارفهم وتلادهم والفيت الحضرة ، حرسها الله ، وقد اخذ السرور من اهلها كل مأخذ وسرى فيهم كل مسرى ومنفذ ، بولاية الامير ابي يحيى ، اعزه الله ، وكثر الدعاء لامير المسلمين ايده الله ، بما جدد لديهم من حسن نظر ، وخلع عليهم من جمال سيرة ، ولقيته فلقيت كل ما ابهج ، وكان وفقاً لما انتشر ، ومشاكلاً لما استذاع وظهر ، تمم الله النعمة وظاهر عليه الكفاية والعصمة ووافتني كتبه الكرام بما بلغ الأمل ، وحسم العلل وانا ممتثل في كل معنى ما يحره مجتهد ، فيما يقيم ذلك الثغر ويسده ، ان شاء الله عز وجل .

(المخطوط بمكتبة الاسكوريال رقم ٥١٩)

ومن قوله في الرثاء ، يرثي الفقيد ابا الحسين بن مغيث :

الدهر ليس على حر بمؤتمن ... واي علق تخطته يد الزمن
يأتي العفاء على الدنيا وساكنها ... كأن ادبر لم يسكن الى سكن
يا باكياً فرقة الاحباب عن شحط ... هلا بكيت فراق الروح للبدن
نور تقيد في طين الى اجل ... وانحاز عنواً وخلّى الطين في الكفن
كالطير في شرك يسمو الى درك ... حتى تخلص من سقم ومن درن
ان لم يكن في رضى الله التقى وهما ... فيالها صفقة بتت على دغن
يا شد ما افترقا من بعد ما اعتنقا ... اظن محرقة كانت على دخن
ورب سار الى وجه يسرّ به ... وافى وقد نبت المرعى على الدمن
اتى الى الله لا سمع ولا بصر ... يدعو الى الرشد او يهدي الى السنن
في كل يوم فراق لا بقاء له ... من صاحب كرم او سيد قمن
اعيا ابا حسن فقد الذين مضوا ... فمن لنا بالذي اعيا ابا حسن
ان البقية في قوم قد انقرضوا ... فهاج ما شاء ذاك القرن من شجن
يعد فرداً وفي اثوابه زمر ... من كل ذي خلق عمرو وذي فطن
وان من اوجدتنا كلَّ مفتقد ... حياته لعزيز الفقد والظعن
من للملوك اذا خفّت حلومهم ... بما يقاوم ذاك الطيش من سكن
يا يونس لا تسر بتنا لوحشتنا ... نشكو اغتراباً وما بنّا عن الوطن
ويا مطاعاً مطيعاً لا عناد له ... في كل امر على الاسلام مؤتمن
كم خطة كارتجاج البحر مبهمة ... فرجتّها بحسام سنّ من لسن
طود المهابة في الجلا وان جذبت ... عنانه خلوة هزت ذرى وتن
اكرم به سبباً تلقى الرسول به ... لخمس واردة في الفرض والسنن
من كل وادي التقى يسقى الغمام به ... فيستهل شروق الضرع باللبن
تجملت بك في احسابها مضر ... واصل مجدك في جرثومة اليمن
من دولة حولها الانصار حاشدة ... في طامح شامخ الاركان والقنن
من الذين هم روّوا وهم نصروا ... من عيسة الدين لا من جذوة الفتن
ان يد مطلع منهم ومستمع ... فاغرب بنفسك عن لحظ وعن اذن
ما بعد منطقه وشي ولا زهر ... ولا لاعلاق ذاك الدر من ثمن

اقول وفينا فيه فضل سودده | استغفر الله ملء السر والعلن
محمد ومغيث نعم ذا عوضاً | هما سلالة ذاك العارض الهتن
تقيلاً هديه في كل صالحة | نصر السوابق عن طبع وعن مرن
غر الاحبة عند الحسن عهدهما | وان يونس في الاثواب والجنن
علماً وحلماً وترحيباً وتكرمة | للصالحين واغضاء على زكن
يا وافد الغيث اوسع قبره نزلاً | وروّ ما حول ذاك الديم من ثُكن
وطبق الارض وبلا في شفاعته | فنعم رائد ذاك الريف واليمن
وانت يا ارض كوني مرّة بابي | مثوى كريم ليوم البعث مرتهن
وان تردت بترب فيك اعظمه | فكم لها في جنان الخلد من ردن

(الاحاطة في اخبار غرناطة جزء ٢ ص ٣٩٤ــ٣٩٦)

الفصل الثامن

ممالك الطوائف

دولة بني جهور في قرطبة :

ابو الحزم بن جهور ٤٢٢ــ٤٣٥هـ : ١٠٣١ــ١٠٤٤م

ابو الوليد محمد بن جهور ٤٣٥ــ٤٥٧هـ : ١٠٤٤ــ١٠٦٤م

عبد الملك محمد بن جهور ٤٥٧ــ٤٦٣هـ : ١٠٦٤ــ١٠٧٠م

المعتمد بن عباد يستولي على قرطبة سنة ١٠٧٠ .

دولة بني عباد في اشبيلية :

القاضي محمد بن اسماعيل بن عباد : ٤١٤ــ٤٣٣/١٠٢٣ــ١٠٤٢ م

عباد بن محمد المعتضد : ٤٣٣ــ٤٦١/١٠٤٢ــ١٠٦٩ م

محمد بن عباد المعتمد : ٤٦١ــ٤٨٤/١٠٦٩ــ١٠٩١ م

اشبيلية تسقط في ايدي المرابطين .

دولة بني الافطس في بطليوس :

عبد الله بن محمد بن مسلمة المنصور : ٤١٣ــ٤٣٧/١٠٢٢ــ١٠٤٥ م

محمد بن عبد الله المظفر : ٤٣٧ــ٤٦١/١٠٤٥ــ١٠٦٨ م

يحيى بن محمد المنصور : ٤٦١ــ٤٦٤/١٠٦٨ــ١٠٧٢ م

عمر بن محمد المتوكل : ٤٦٤ــ٤٨٨/١٠٧٢ــ١٠٩٤ م

يستولي المرابطون على بطليوس .

دولة بني يحيى في لبلة :

ابو العباس احمد بن يحيى : ٤١٤ــ٤٣٤/١٠٢٣ــ١٠٤٢ م

محمد بن يحيى عز الدولة : ٤٣٤ــ٤٤٣/١٠٤٢ــ١٠٥١ م

فتح بن خلف ناصر الدولة : ٤٤٣ــ٤٤٥/١٠٥١ــ١٠٥٣ م

يستولي المعتضد بن عباد على لبلة .

دولة بني مزين في باجة وشلب :

الحاجب عيسى محمد : ...ــ٤٣٢/...ــ١٠٤١ م

محمد بن عيسى عيد الدولة : ٤٣٢ــ٤٤٠/١٠٤١ــ١٠٤٨ م

عيسى بن مزين المظفر : ٤٤٠ــ٤٤٥/١٠٤٨ــ١٠٥٣ م

محمد بن عيسى الناصر : ٤٤٥ــ٤٥٠/١٠٥٣ــ١٠٥٨ م

عيسى بن محمد المظفر : ٤٥٠ــ٤٥٥/١٠٥٨ــ١٠٦٣ م

يستولي المعتضد بن عباد على شلب

دولة بني البكري في ولبة وجزيرة شلطيش :

عبد العزيز البكري عز الدولة : ٤٠٣ــ٤٤٣/١٠١٢ــ١٠٥١ م

المعتضد يستولي على ولبة وشلطيش .

دولة بني هارون في شنتمرية الغرب :

سعيد بن هارون ٤١٧ــ٤٣٣/١٠٢٦ــ١٠٤١ م

محمد بن سعيد المعتصم : ٤٣٣ــ٤٤٣/١٠٤١ــ١٠٥١ م

المعتضد يستولي على شنتمرية الغرب .

دولة بني ذي النون في طليطلة :

اسماعيل بن ذي النون الظافر : ٤٢٧ــ٤٣٥/١٠٣٦ــ١٠٤٣ م

يحيى بن اسماعيل المأمون : ٤٣٥ــ٤٦٧/١٠٤٣ــ١٠٧٥ م

يحيى بن اسماعيل بن يحيى القادر : ٤٦٧ــ٤٧٨/١٠٧٥ــ١٠٨٥ م

الفونسه السادس يستولي على طليطلة .

دولة بني مناد في غرناطة :

زاوي بن زيري : ٤٠٣ــ٤١٠/١٠١٣ــ١٠١٩ م

حبوس بن ماكسن : ٤١١ــ٤٢٨/١٠٢٠ــ١٠٣٧ م

باديس بن حبوس المظفر : ٤٢٨ــ٤٦٥/١٠٣٧ــ١٠٧٣ م

عبد الله بن بلقين : ٤٦٥ــ٤٨٣/١٠٧٣ــ١٠٩٠ م

المرابطون يستولون على غرناطة .

دولة بني برزال في قرمونة :

محمد بن عبد الله بن برزال : ٤٠٤ــ٤٣٤/١٠١٣ــ١٠٤٢ م

عزيز بن محمد المستظهر : ٤٣٤ــ٤٥٩/١٠٤٢ــ١٠٦٧ م

قرمونة تسقط في يد ابن عباد .

دولة بني دمر في مورور :

نوح بن تزيري الدمري : ٤٠٣ــ٤٣٣/١٠١٣ــ١٠٤١ م

محمد بن نوح عز الدولة : ٤٣٣ــ٤٤٥/١٠٤١ــ١٠٥٣ م

مند بن محمد عماد الدولة : ٤٤٥ــ٤٥٨/١٠٥٣ــ١٠٦٦ م

ابن عباد يستولي على مورور .

دولة بني خرزون في اركش :

محمد بن خرزون عماد الدولة : ٤٠٢ــ٤٢٠/١٠١١ــ١٠٢٩ م

عبدون بن محمد بن خرزون : ٤٢٠ــ٤٤٥/١٠٢٩ــ١٠٥٣ م

محمد بن محمد بن خرزون القائم : ٤٤٥ــ٤٦١/١٠٥٣ــ١٠٦٨ م

ابن عباد يستولي على اركش .

دولة بني يفرن في رندة :

هلال بن ابي قرة اليفرني : ٤٠٦ــ٤٤٥/١٠١٥ــ١٠٥٣ م

باديس بن هلال : ٤٤٥ــ٤٤٩/١٠٥٣ــ١٠٥٧ م

ابو نصر فتوح بن هلال : ٤٤٩ــ٤٥٧/١٠٥٧ــ١٠٦٥ م

رندة تسقط في يد ابن عباد .

مملكة المرية :

١ ــ خيران العامري : ٤٠٥ــ٤١٩/١٠١٤ــ١٠٢٨ م

زهير العامري : ٤١٩ـ٤٢٩/١٠٢٨ـ١٠٣٨ م

عبد العزيز المنصور : ٤٢٩ـ٤٣٣/١٠٣٨ـ١٠٤١ م

٢ ـ معن بن صمادح : ٤٣٣ـ٤٤٣/١٠٤١ـ١٠٥١ م

محمد بن معن المعتصم : ٤٤٣ـ٤٨٤/١٠٥١ـ١٠٩١ م

احمد بن محمد معز الدولة : ٤٨٤/١٠٩١ م

يستولي المرابطون على المرية .

مملكة مرسية :

١ ـ خيران العامري : ٤٠٣ـ٤١٩/١٠١٢ـ١٠٢٨ م

زهير العامري : ٤١٩ـ٤٢٩/١٠٢٨ـ١٠٣٨ م

ابو بكر بن طاهر : ٤٢٩ـ٤٥٥/١٠٣٨ـ١٠٦٣ م

ابو عبد الرحمن بن طاهر : ٤٥٥ـ٤٧١/١٠٦٣ـ١٠٧٨ م

(حكم بنو طاهر باسم عبد العزيز المنصور صاحب بلنسية وولده عبد الملك) .

المعتمد بن عباد يستولي على مرسية .

٢ ـ ابن عمار : ٤٧١ـ٤٧٣/١٠٧٨ـ١٠٨١ م

ابن رشيق : ٤٧٣ـ٤٨٤/١٠٨١ـ١٠٩١ م

المرابطون يستولون على مرسية .

مملكة دانية والجزائر :

١ ـ مجاهد العامري الموفق : ٤٠٠ـ٤٣٦/١٠٠٩ـ١٠٤٤ م

علي بن مجاهد اقبال الدولة : ٤٣٦ـ٤٦٨/١٠٤٤ـ١٠٧٦ م

٢ ـ المقتدر بن هود صاحب سرقسطة : ٤٦٨ـ٤٧٤/١٠٧٦ـ١٠٨١ م

المنذر بن هود : ٤٧٤ـ٤٨٤/١٠٨١ـ١٠٩١ م

المرابطون يستولون على دانية .

مملكة بلنسية :

الفتيان مظفر ومبارك : ٤٠٠ـ٤٠٨/١٠٠٩ـ١٠١٧ م

لبيب العامري : ٤٠٨ـ٤١١/١٠١٧ـ١٠٢١ م

عبد العزيز المنصور : ٤١١ـ٤٥٢/١٠٢١ـ١٠٦١ م

عبد الملك بن عبد العزيز : ٤٥٢ــ٤٥٧/١٠٦١ــ١٠٦٥ م

المأمون بن ذي النون يستولي على بلنسية .

نائبه ابو بكر بن عبد العزيز : ٤٥٧ــ٤٧٨/١٠٦٥ــ١٠٨٥ م

عثمان بن ابي بكر : ٤٧٨ــ.../١٠٨٥ــ...م

القادر بن ذي النون : ٤٧٨ــ٤٨٥/١٠٨٥ــ١٠٩٢ م

القاضي بن جحاف : ٤٨٥ــ٤٨٧/١٠٩٢ــ١٠٩٤ م

السيد القمبيطور والقشتاليون : ٤٨٧ــ٤٩٥/١٠٩٤ــ١١٠٢ م

المرابطون يستولون على بلنسية .

امارة شنتمرية الشرق :

هذيل بن عبد الملك بن رزين : ٤٠٣ــ٤٣٦/١٠١٢ــ١٠٤٥ م

عبد الملك بن هذيل : ٤٣٦ــ٤٩٦/١٠٤٥ــ١١٠٣ م

يحيى حسام الدولة : ٤٩٦ــ٤٩٧/١١٠٣ــ١١٠٤ م

المرابطون يستولون على شنتمرية الشرق .

امارة البونت :

عبد الله بن قاسم : ٤٠٠ــ٤٣١/١٠٠٩ــ١٠٣٩ م

محمد بن عبد الله يمن الدولة : ٤٣١ــ٤٣٤/١٠٣٩ــ١٠٤٢ م

احمد بن محمد عز الدولة : ٤٣٤ــ٤٤٠/١٠٤٢ــ١٠٤٨ م

عبد الله بن محمد جناح الدولة : ٤٤٠ــ٤٩٥/١٠٤٨ــ١١٠٢ م

المرابطون يستولون على البونت .

مملكة سرقسطة :

١ ــ المنذر بن يحيى التجيبي : ٤٠٨ــ٤١٤/١٠١٧ــ١٠٢٣ م

يحيى بن المنذر المظفر : ٤١٤ــ٤٢٠/١٠٢٣ــ١٠٢٩ م

المنذر بن يحيى معز الدولة : ٤٢٠ــ٤٣٠/١٠٢٩ــ١٠٣٩ م

٢ ــ سليمان بن هود المستعين : ٤٣١ــ٤٣٨/١٠٣٩ــ١٠٤٦ م

احمد بن سليمان المقتدر : ٤٣٨ــ٤٧٤/١٠٤٦ــ١٠٨١ م

يوسف بن احمد المؤتمن : ٤٧٤ــ٤٧٨/١٠٨١ــ١٠٨٥ م

احمد بن يوسف المستعين : ٤٧٨ـ٥٠٣/١٠٨٥ـ١١١٠ م
عبد الملك بن عماد الدولة : ٥٠٣ـ.../١١١٠ـ...م
المرابطون يستولون على سرقسطة .

(هذا الجدول اخذ عن كتاب «دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي»
تأليف محمد عبد الله عنان
وهو العصر الثاني من كتاب دولة الاسلام في الأندلس
القاهرة
مطبعة التأليف والترجمة والنشر
ص : ٤٣٣ـ٤٣٧)

المَصَادِر وَالمَرَاجِع العَرَبيَّة

١ ـ مخطوط الاسكوريال رقم ٤٨٨ .

٢ ـ مذكرات عبد الله : مجلة الاندلس اعداد الستينات .

٣ ـ الاحطة في تاريخ غرناطة ـ لسان الدين بن الخطيب تحقيق عبد الله عنان اربعة اجزاء .

٤ ـ جمهرة انساب العرب ـ ابن حزم الاندلسي تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ دار المعارف ـ مصر .

٥ ـ البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب : لأبن عذارى المراكشي ـ دار الثقافة ـ بيروت ١٩٨٣ اربعة اجزاء .

٦ ـ دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ، محمد عبد الله عنان القاهرة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٧ ـ عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس ـ عصر المرابطين ـ عبد الله عنان .

٨ ـ نصوص عن الاندلس من كتاب ترصيع الاخبار وتنويع الآثار ... ابن الدلائي ، معهد الدراسات الاسلامية مدريد ـ ١٩٦٥ .

٩ ـ البيان المغرب في حلى المغرب ، لأبن سعيد المغربي تحقيق شوقي ضيف دار المعارف ـ القاهرة ، جزءان .

١٠ ـ نفح الطيب ... المقرى اربعة اجزاء ـ القاهرة .

١١ ــ الحلل السندسية : شكيب ارسلان الجزء الاول والثاني ، ١٩٣٦ .
١٢ ــ تاريخ الاندلس في عهد المرابطية والموحدين : تأليف يوسف اشباخ تعريب عبد الله عنان ، لجنة التأليف والترجمة والنشر .
١٣ ــ تراجم اسلامية شرقية واندلسية : تأليف عبد الله عنان ، لجنة التأليف الترجمة والنشر ــ القاهرة .
١٤ ــ تاريخ الاندلس لأبن الكردبوس : تأليف مختار العبادي : معهد الدراسات الاسلامية ــ مدريد ١٩٦٥ .
١٥ ــ السيد عنترة الاسبان : سيمون الحايك : مطبعة الكريم جونية ــ لبنان ١٩٧٤ .
١٦ ــ التاريخ الاندلسي : تأليف الدكتور عبد الرحمن علي الحجي ــ دار القلم ــ بيروت .
١٧ ــ كتاب اعمال الاعلام : لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق ليفي بروفنسال ــ دار المكشوف : بيروت ١٩٥٦ .
١٨ ــ الادب الاندلسي ، من الفتح حتى سقوط الخلافة ، الدكتور احمد هيكل ــ دار المعارف ، الطبعة الثامنة ١٩٨٢ .
١٩ ــ في الادب الاندلسي الدكتور جودة الركابي : دار المعارف .
٢٠ ــ التربية الاسلامية في الاندلس : خوليان ريبيرا ، ترجمة الدكتور الطاهر احمد مكي ــ دار المعارف ــ القاهرة .

المصادر والمراجع الأجنبية

Biblioteca de autores españoles: Pare Juan de Mariana Tomo XXX.

Historia de España: Valdeavellano. Revista de Occidente. Madrid. Tomo I.

Urraca: Lurdes Ortiz. Metropoli de novela.·1982.

LOS MOZARABES: Isidro de las Cagigas. Tomo II. Instituto de Estudios Africanos. Madrid 1948.

LOS MUDEJARES: Isidro de las Cagigas. Instituto de Estudios Africanos. Madrid 1949.

Leyendas de la conquista de España: Washington IRVING. Cronica de los Moriscos.

Contribucion a la toponimia arabe de España: Asin Palacios. Madrid - Granada 1944.

Viajero en Granada: Don Miguel Lafuente Alcantara. Granada 1981.

La Cultura Hispano-Arabe en Oriente y Occidente: Juan Vernet. Ariel Historia. Barcelona-Caracas-Mexico. 1978.

El Arzobispo Don Raimundo de Toledo: Angel Gonzalez Palencia. Editorial Labor S.A. 1942. Barcelona-Madrid-Buenos Aires-Rio de Janeiro.

Entre Monjes y Musulmanes: Vicente Cantarino. Madrid 1977.

EL CID CAMPEADOR: RAMON MENENDEZ PIDAL. Coleccion Austral. Espasa-Calpe.

BEN AMMAR DE SEVILLA: Claudio Sanchez Albornoz. Coleccion Austral Espasa-Calpe.

Seville Musulmane: Lévi - Provençal. Editions Maisoneuve. Paris 1947.

Historia de los musulmanes de España: Dozy. Coleccion Universal. Madrid 1929. (4 Tomos).

AL- MOTAMID, Rey Moro de Sevilla: Antonio Cubero Fierro. Libreria Fé. Sevilla.

Conflictos Sociales y estancamineto economico en la España medieval: Reyna Pastor de TOGNERI. Ariel Quincenal. BARCELONA. 1973.

الفهرس

سلسلة أبطال من الاندلس

ظهر منها حتى الآن

- بلاي الرومي، أو العرب في إسبانية وجنوبي فرنسا.
- عبد الرحمن الداخل (صقر قريش)
- الناصر لدين الله (عبد الرحمن الثالث أول خليفة في الأندلس).
- صبح البشكنسية أو الدولة العامرية.
- السيد عنترة الإسبان، أو الأندلس على عهد ملوك الطوائف وقدوم المرابطين إليها.
- عبد الرحمن الأوسط.
- ألفونس العاشر الحكيم أو نشوء الدّولة النصريّة.
- ثريا الرومية أو إستسلام غرناطة.
- أورّاكة ملكة قشتالة.

المطبعة البولسية
جونيه - لبنان